## بافول رانكوف

# الأمهات



ترجمة: د. غياث الموصلي



بافول رانكوف

# الأمهات





ترجمة: د. غياث الموصلي

# الأمهات

المؤلف: بافول رانكوف
ترجمة وتقديم: د. غياث الموصلي

الطبعة الأولى: 7/ 2013

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص السلوفاكي:
Matky
By: Pavol Rankov

ISBN: 978 – 9933 – 477 – 88 -2
تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية، هاتف وفاكس: +963 41 422 339
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com
بافول رانكوف

"ونحن أيضاً ننطلق في النقاش من الروايات التاريخية، إذا كان هناك من يجد في نفسه الشجاعة لكتابتها. المعروف أن الرواية التاريخية تسجل أحداثاً لم يرها الكاتب في حياته. إن المؤلف الذي يعرف ما حدث في القرن الذي ولد فيه، يمكنه أن يؤكد لنا كيفما يشاء أنه فهمه بشكل جيد، إلا أنه بالرغم من ذلك لا يستطيع الولوج إلى داخله. حسناً هل الرواية التاريخية مجرد قصة خيالية؟".

ألكسندر سولجنتسين: مجموعة أرخبيل الكولاك (الفصل السابع)

# هالت!

## (قف بالألمانية)

ـ فلاندرا(1): همست الأم وأضافت: تحت سقف أمها!... ومع بلشفي.

ألصقت الآن عينها الثانية في ثقب قفل الباب، وكأنها تمنت بذلك رؤية صورة مقبولة أكثر في الغرفة المظلمة. لكنها لم تجد أمامها من جديد سوى خيالات أجساد عارية. عضت شفتيها بغضب، ثم نهضت ببطء. وقع نظرها على الزينة المعلقة على شجرة التنوب الموجودة فوق طاولة المطبخ. حيث بدا لها أن إحدى الكرات يمكن أن تسقط من نهاية الغصن. أزاحتها من مكانها ثم عبرت الغرقة المظلمة باتجاه المقعد ولكنها بقيت واقفة. ثبتت نظرها على باب الغرفة وكأنها تراقب الحدود. لم تعرف بالطبع ما إذا كانت ممنوعة من تخطي تلك الحدود الهامة، أم على العكس يتوجب عليها أن تعبرها.

عادت بعد لحظات بخطى ثابتة باتجاه الباب، ولكن ما أن لمست يدها المسكة حتى سحبتها ببطء ومسحتها بمريولها، وكأنها لمست شيئاً وسخاً. عبرت المطبخ من جديد، وجلست على المقعد الذي أطلق خشبه زقزقة قوية مسموعة. نظرت المرأة بتوتر إلى الباب، وحين وجدته لا يزال مغلقاً، لوحت بقبضتها مهددة، وقالت بقرف:

ـ الحيوانات في فترة الإخصاب. لا شيء يزعجكما.

وأدارت رأسها، وأطلقت زفيراً طويلاً.

ـ ولكن هذا بيتي ـ قالت ذلك الآن بصوت مرتفع ـ وهي ابنتي.

حين مررت الصبية وجهها فوق صدرالرجل، ودغدغ الشعر الخشن شفتيها، تنشقت رائحة رجولته الطاغية، ولكنها حين وصلت إلى تحت الإبط، تراجعت بسرعة:

ـ علينا أن نفكر بالطريقة التي يمكننا فيها تحميمك دون أن تنتبه أمي.

ـ شتو (ماذا)؟ سألها الرجل.

ـ سأحممك، أغسلك.

ـ تغسلينني؟ ضحك الرجل ـ سأغتسل بالثلج.

ـ وأين نجد الثلج! سوف أحممك في الماء الساخن مثل طفل صغير.

ـ طفل صغير؟ كرر الرجل.

واستند على مرفقيه، ورفع رأسه كي يتمكن من رؤية وجه الصبية. تمعن في الوجه الذي توهج من ضوء القمر العابر من النافذة، وقال:

ـ بعد انتهاء الحرب سيكون لنا ولد.

انفجرت الصبية ضاحكة، وكبست يدها على فمها كي تخفف من صخب ضحكتها.

ـ اسم ولدي الأول سيكون "ألكسي ـ وهمس الرجل ـ تعودنا في عائلتنا أن يكون اسم الصبي الأول" ألكسي. ألكسي ألكسيفتش.

ـ ونحن تعودنا في عائلتنا أن تكون الطفلة الأولى على اسم أمها سوزانا. الكسي وسوزانا.

استدارت الصبية على جنبها وألصقت جسدها بجسد، الرجل ثم وضعت ركبتها المطوية فوق بطنه، ثم سألت:

ـ متى ستنتهي الحرب؟

ـ حين سنتمكن من قتل جميع الألمان!

ـ جميعهم، لا، على ما أظن! بعضهم يعيش هنا معنا في أسفل المدينة، وهم أناس طيبون.

قَبَلها الرجل، ثم نهض فجأة وضغط وجهه على النافذة، وصرخ:

ـ الألمان!

فتح النافذة، وقفز عارياً إلى الخارج. رمت الصبية الساموبال خلفه.

فُتح الباب في أقل من جزء الثانية، ودخلت الأم مسرعة إلى الغرفة:

ـ أغلقي النافذة، غبية. وصل الألمان!

تسمرت الصبية في مكانها. شبكت أصابع يديها، وهمست من خلال شفتيها بالكلمات الأولى في الصلاة. دفعتها الأم، وقفزت باتجاه النافذة. أغلقتها، ثم جمعت بسرعة ما تبقى من البزة الروسية.

ـ قف! جاء الصوت من الخارج.

سُمع في الحال صوت إطلاق نار تبعته أوامر بالألمانية. وضعت الصبية وجهها على النافذة، لكن الأم شدتها من جديد:

-غبية، ضعي قميصاً على جسمك، واستلقي! تصنعي النوم. لم تريه في حياتك. لا علاقة لنا بكل مايحدث، هل فهمت؟

لم يتوقف إطلاق النار.

ركعت الصبية العارية على السرير، ووضعت رأسها على ركبتيها وراحت تصلي.

ـ يا أم الرب، اصغي إلى كلامي وساعدي، اصغي وساعدي. يا أم الرب، اصغي إلى كلامي وساعدي كررت.

مررت والدتها يديها الممسكتين بثياب الجندي على ظهرها.

ـ اسمع المخطئة، وساعد البلشفي؟!

وقالت بحنق. ـ لحسن الحظ والدك لم يعد موجوداً.

التقت عيونهما. أدركتا في تلك اللحظة أن إطلاق النار قد توقف.

ـ قتلوه يا أمي: همست الصبية.

ـ البسي وتمددي في السرير. لا يمكنك الآن مساعدته، إما يكون قد هرب أو قبضوا عليه: أمرتها والدتها.

استلقت الصبية ببطء، مثل الطفل حين يدرك عجزه عن فعل أي شيء. جلست الأم على طرف السرير وغطت جسد ابنتها العاري بلحاف الريش السميك.

مررت طرف يدها على وجنتها وقالت:

ـ الألمان يمكن أن يحضروا في أي لحظة. سوف يحققون معنا. أنت لا تعرفين أي شيء! لقد أيقظك صوت إطلاق الرصاص. سوف أرمي ثيابه في فرن المطبخ. حان الوقت كي تلبسي ثيابك أيتها الرخيصة!

خرجت الوالدة مع شروق الشمس إلى فسحة البيت الأمامية. أحضرت الرفش من الحظيرة وبدأت بإزاحة الثلج. لقد سقط منه القليل في الليل، لكن آثار قدمي الجندي كانت لا تزال واضحة تحت نافذة ابنتها. ضربت بالرفش بضع ضربات إلى أن تكشفت الأرض.

ألصقت وجهها بالزجاج. ابنتها كانت لا تزال راكعة، تصلي في سريرها.

سارت الوالدة بعد ذلك مقتفية أثر الأقدام فوق الثلج الذي كانت تارة تزيحه عن طريقها وحيناً تجمعه في كومات صغيرة. عبرت فناء البيت والحديقة حتى وصلت إلى السياج حيث وجدت أحد ألواح خشب السياج مرمياً على الأرض. رفعته المرأة بكل ما أوتيت من قوة ورمته فوق كومة كبيرة من خشب التدفئة الموجودة بالقرب من الحظيرة.

ـ الثغرة في السياج موجودة منذ سنوات، هر أوفيسر (أيهاالسيدالضابط)، ولم أِجد الوقت المناسب لإصلاحها. إنك بلا شك تعرف ما يحدث حين تكون

المرأة وحيدة، ولا يوجد رجل يساعدها. حياة كلاب، يا حضرة الضابط: كانت تُحضر ما ستقوله للألمان.

حين رمت بضع رفشات من ثلج الحديقة فوق آثار القدمين الموجودة خلف السور، لفت نظرها شيئ شاحب على طرف التلة.

ـ يا إلهي! همست: أرجو أن يكون مجرد رؤيا.

برز من الثلج على بعد خطوات منها شيئ أزرق اللون.

انتصب البيت الريفي على طرف القرية. من الممكن ألا يكون أحد غيرها إضافة إلى الجنود الألمان، يعرف شيئاً عن وجود الجسد الميت فوق الثلج حتى ذلك الوقت، لأن رؤية سفح التلة غير ممكنة من البيوت الأخرى، كما أن الخروج لجلب الحطب من الغابة كان محظوراً في تلك الأيام. حدثت المرأة نفسها: إذا لم ينقله الألمان حتى ظهيرة اليوم، سأطلب العون من الكاهن. أمور الدفن إحدى مهماته.

لن تخبر ابنتها بشيء. منعتها من الخروج وأكدت على ذلك، كما قررت منع كل من يريد إلقاء نظرة على الميت من المرور أمام نافذتها. ستحمي ابنتها التي لا تزال صبية. ستنسى مع مرور الوقت. لقد نامت مع أحدهم، وهذا ما فعلته الأخريات. ستنتهي الحرب في أقرب وقت وستقع عيناها على وجه جديد. ستجد الإنسان الذي يسامحها. كل شيء سيبقى مدفوناً في السر تحت الثلج ويصبح في حكم الذكريات.

ألقت المرأة نظرة أخرى على طرف التلة، ولكن صوت هدير رعد بعيد شد انتباهها الآن. عاصفة في كانون الأول؟ بدا لها أمراً مستغرباً. وحين أرعدت من جديد، تذكرت فجأة ما قالته النسوة في اليوم السابق عن ذلك الصوت في الكنيسة أثناء القداس. إنها أصوات المدافع. اقتربت الجبهة. رسمت المرأة الصليب.

كانت الشمس لا تزال ضعيفة حتى إن المرأة لم تتمكن حتى الظهيرة من تجفيف الأرض التي داهمها المطر أثناء الليل. ركعت "سوزانا" ممسكة بيديها كتاباً مفتوحاً فوق العشب الرطب بالرغم من أنها تحفظ الصلاة على زوجها الميت عن ظهر قلب. ركزت نظرات عينيها المبقعتين باللون الأحمر بسبب الدموع السخية على كومة كبيرة من التراب الطري الذي كان يعلو قليلاً فوق الأرض.

رفضت القيادة الألمانية السماح للكاهن بالرغم من توسله دفن النصير الروسي في حرم المقبرة المقدسة، مما جعل شباب القرية يجهزون حفرة في الأرض المتجمدة من سفح الجبل، وتحديداً في المكان الذي أُطلق منه النار على النصير. لفوا الجسد الميت بغطاء السرير ودفنوه على عجل في

تابوت تم تصنيعه من ألواح خشبية مستعملة، وبالرغم من ذلك قام الكاهن برسم الصليب على القبر: بولشفيك (شيوعي) أو قومي، جميعنا متساوون أمام

الرب، صرخ في وجه "الكارديستا"(2) الذي جاء لمراقبة عملية الدفن، وأبدى انزعاجه من تصرف الكاهن.

أول ما خطر ببال "سوزانا" حين تقدمت الجبهة كان تعمير القبر بشكل لائق. تعرفُ أن والدتها لن تدفع كوروناً واحداً، وهذا ما جعلها تقرر طرح الفكرة على الأعضاء الجدد في مجلس المدينة. الشيء الوحيد الذي كانت تخشاه هو قرار نقل "ألكسي" إلى المقبرة، أو ـ لا سمح الله ـ إرسال الجثة إلى الاتحاد السوفيتي. هنا على سفح الجبل سيكون قريباً منها، وبإمكانها زيارته كل يوم، وأحياناً ثلاث مرات في اليوم. كانت الأم بالطبع منزعجة وخائفة في ذات الوقت من كلام الناس، ولا سيما حين سيرون "سوزانا" تبكي علناً على حبيبها البولشفي.

لكن "سوزانا" بالرغم من ذلك لم تول الأمر أهمية تذكر. سيعرف الجميع بعد عدة أسابيع أنها تنتظر مولوداً. "ألكسي" الصغير. سيكون صبياً بالتأكيد. "ألكسي الكسيفيتش". كانت تفتش منذ وقت عن الكلمات التي ستقولها لوالدتها.

رسمت "سوزانا " الصليب أرادت إغلاق كتاب الصلوات، لكن نظرها وقع في تلك اللحظة على أسفل الطرف الثاني من الصفحة حيث دونت الصلوات على روح الوالدين. خطر ببالها أن تصلي على روح والدها نيابة عن طفلها القادم. وضعت إحدى يديها على بطنها وكأنها أرادت بذلك التواصل مع الطفل، وأمسكت بالثانية كتاب الصلوات بقوة، لأن الرياح القوية التي هبت في تلك الأثناء بدأت تقلب صفحاته:

ـ إلهي، يا من أمرتنا بتقديس الأب والأم، امنح غفرانك لروح والدي...

لاحظت "سوزانا" وهي في طريق عودتها من سفح التلة إلى البيت خروج ثلاثة رجال من حديقة البيت باتجاهها. كان اثنان منهم جنديين سوفيتيين ببذاتهما التي يلمع اللون الأحمر من كتافياتها في شمس آذار البارد، والثالث مدني من عناصر الميلسشيا المحلية، علق شريطة حمراء على كم قميصه. كل شيء إلا نقل "ألكسي" من هنا، لاحت لها تلك الفكرة من جديد.

ـ أنت "سوزانا لاوكوفا"؟ سألها الميليشياوي حين التقوها في وسط المرج.

ـ نعم، وأنت تعرفني؟ ردت عليه "سوزانا".

ضم المليشاوي شفتيه بازدراء:

ـ عليك الإدلاء بشرح يتعلق بأشياء محددة، سترافقيننا.

لم يولها الجنديان السوفيتيان اهتماماً يذكر. تمشيا في المقدمة وراحا يتحدثان بحيوية عن شيء ما.

ـ هل يتعلق الأمر بدفن الكسي؟ سألت "سوزانا".

ـ لا أعرف ـ رد عليها الرجل صاحب الشريطة الحمراء. ـ سيخبرونك عن ذلك في الأسفل في "ليفوتشي". أحضري أوراقك الثبوتية، وإذا أردت شيئاً يحميك من المطر. يمكن أن يهطل.

سَرّعت "سوزانا" من خطواتها كي تلحق بالجنديين. أرادت أن تسمع وتلتقط منهما أكبر كم من اللغة الروسية الجميلة التي تذكرها بـ "الكسي".

حين وصلوا إلى البيت كانت الأم بانتظارهم في فناء البيت.

ـ ما الذي يحدث؟ سألت.

ـ لاشيء. ابتسم أحد الجنديين في وجهها ولوح لها بيده.

ـ حقاً ـ قالت لاشيء، "سوزانا" مهدئةً أمها. ـ هدئي من روعك يا أمي.

ـ عليها تفسير بعض الأشياء، سترافقنا، ـ كرر الميليشياوي كلامه السابق، ثم التفت إلى "سوزانا" وأمرها بأسلوب عدائي:

ـ هيا، تحركي إلى الداخل، وأحضري الأوراق. آين تسفاي! (واحد إثنان بالألمانية)

فتحت "سوزانا" الدولاب الموجود في المطبخ، وتناولت منه دفتر هويتها، ودسته في كتاب الصلوات.

ـ تريدين أخذ كتاب الصلوات معك؟ سألها الميلشياوي مستغرباً.

ـ إذا اضطررت للانتظار طويلاً، سأصلي على الأقل ـ شرحت "سوزانا".

رفع الرجل رمانتي كتفيه.

حين دخلت "سوزانا" إلى الغرفة لإحضار الشال الصوفي، بقي باب الغرفة مواربا مما جعلها تسمع السؤال الذي وجهته الأم للشاب: هل تعمل الآن مع الروس؟. أجابها: مثل كل إنسان شهد ما حدث في القرى المجاورة أثناء اندلاع القتال. كان الروس غاضبين، وكان على أحدهم أن يجد الشجاعة لإيقافهم. سألته الوالده بسخرية واضحة عما إذا كان قد أوقف الألمان في السابق. رد عليها الرجل قائلاً إنه يفضل لمصلحتها أن تخبئ لسانها.

خطر ببال "سوزانا" أنه سيكون من الأفضل لو أنها لم تتجول في "ليفوتشي" مثل عجوز مسنة وفي يدها كتاب الصلوات، لذا قررت ارتداء

تنورة والدتها الزرقاء الرسمية المجهزة في داخلها من الأمام بجيب كبير حيث يمكنها وضع كتاب الصلوات هناك.

كانت سيارة روسية تقف بجانب البوابة الصغيرة. جلس الجنود في داخلها بانتظار صعود "سوزانا". عانقت الأم ابنتها بحرارة، وشدتها إلى جسمها وكأنها ترفض تركها، مما جعل المليشياوي ينزل من السيارة ليخلص الابنة عن أمها. بكت الأم وحاولت من جديد معانقة "سوزانا " لكن المليشياوي دفعها، وصرخ بها:

ـ اذهبي، سفولوتش(3)!

تبادل الجنود الروس فيما بينهم نظرات مسلية.

صعدت "سوزانا" وتحركت السيارة.

نادراً ما كانت "سوزانا" تغادر مسقط رأسها إلى "لفوتشي". لطالما سحرتها تلك المدينة بجمال أبنيتها القديمة البيضاء. تباينت حياتها البائسة في "زالسنا بروبا" مع تلك الأبنية الحجرية الجميلة التي تذكرها بالحياة الرغيدة التي عاشتها بورجوازية "لفوتشي" في العصور القديمة. كانت "سوزانا" تقول إنها ولدت في حقبة سيئة، وإن الأوقات الرائعة قد ولت إلى غير رجعة ولم تترك من بعدها سوى تلك الأبنية الجميلة التي لا يسكنها اليوم كما يتوقع المرء أناس شجعان ومحترمون.

احتلت قيادة الكوميساريا الوطنية للشؤون الداخلية البناء المطل مباشرة على الساحة المستطيلة الواسعة وعلى دير المينوريتيين. وقفت "سوزانا" بجانب النافذة في الطابق الثاني وراحت تراقب الحركة النشطة في الساحة، حيث كان الجنود الروس يتحركون فيها بانتظام وسرعة، بينما كانت حركة السكان المحليين أبطأ وأكثر حذراً. بقي المعبر الموجود خلف ظهرها هادئاً وفارغاً، باستثناء البعض من كانوا ينتقلون من باب إلى آخر. انتظرت هنا نصف ساعة تقريباً دون أن ينتبه إليها أحد. ربما نسوا أنهم أرسلوا في طلبها، وربما اضطر الضابط الذي أراد التحدث إليها للخروج من أجل عمل أكثر أهمية، لذا عليها الانتظار ربما حتى المساء، وستعود بعد ذلك سيراً على قدميها في عتمة الليل وحيدة إلى "زالسنا بروبا".

أخيراً فُتح الباب في نهاية المعبر، وأطلت منه امرأة في لباس مدني، ونادتها بصرامة:

ـ سوزانا لايوكوفا، تعالي إلى هنا! بسرعة!

ـ اسمي لاوكوفا، سوزانا لاوكوفا: صححتْ للمرأة، حين دخلت الغرفة وكانت لا تزال واقفة بقربها.

وجدت "سوزانا" نفسها في غرفة واسعة، امتلأ القسم الأكبر منها بأثاث جُلب من مكان آخر، وتم ترتيبه بطريقة عشوائية تفتقد إلى الذوق، بينما استُخدم القسم القريب من الباب بوصفه مكتباً مؤقتاً، حيث وضعت فيه طاولة تتوسطها آلة كاتبة، تناثرت من حولها الأوراق، وَوُضِع في مقابلها كرسيان وفي طرفها مصباح، كما ثبتت بين الباب والطاولة مدفأة معدنية صغيرة، سُطر الخشب بقربها.

الغرفة مُدفأة بإفراط.

جلست الموظفة السوفيتية في أحد طرفي الطاولة، وأمرت "سوزانا" بالجلوس أمامها. نزعت "سوزانا" معطفها، ووضعته مع الشال الصوفي على ركبتيها.

سألت الموظفة "سوزانا" عما إذا كانت تعرف النصير السوفيتي "ألكسي ألكسيفيتش أورلوف".

انفرجت أسارير "سوزانا" لحظة:

ـ بالطبع، إنه... ـ ضغطت بحركة لا إرادية على أسفل بطنها ـ كان يتردد علينا كثيراً.

ـ كثيراً؟ رفعت الموظفة حاجبيها بفضول.

ـ كثيراً. كان يحضر إلى القرية لشراء الطعام، ويتوقف دائماً في بيتنا. نحن نسكن تحت الجبل في آخر بيت من القرية. كنت دائماً أضيف إلى حقيبة كتفه كأس مربى أو بضع تفاحات. لم تكن هناك وفرة. إننا فقراء... كما أنني لم أرغب أن تنتبه والدتي لذلك.

سألتها الموظفة عن الناس الذين تحدثت إليهم عن زيارات "ألكسي". ردت "سوزانا" بأنها لم تخبر أحداً ولو بكلمة واحدة. غالبية السكان يعرفون أن "ألكسي" يزور القرية، وكانوا يزودونه بالطعام والمواد الغذائية، ولكن أحداً منهم لم يعرف عن زياراته لـ "سوزانا". أومأت الموظفة برأسها دلالة على تفهمها، ثم أدخلت بعد ذلك ورقة في الآلة الكاتبة، وبدأت الكتابة. كانت بين الفينة والأخرى تلقي نظرة على المستندات الموجودة على الطاولة. بدا الأمر وكأنها انتهت من طرح الأسئلة.

ـ سوف آخذ على عاتقي أمر تجهيز قبر "ألكسي" ـ قالت لها "سوزانا" أخيراً.

رفعت الموظفة نظرها لحظة عن الأوراق.

ـ سوف نعمر جدرانه، ونكتب الاسم... بالروسية والسلوفاكية. هذا واجب. سيصبح القبر ذكرى عن الحرب وضحاياها.

أومأت الموظفة برأسها:

ـ كراسيفايا إيديا. (فكرة رائعة).

أنزلت رأسها من جديد باتجاه الورقة وتابعت الكتابة، ثم نهضت من مكانها ومشت باتجاه النافذة. فتحتها وأحنت ظهرها إلى الأمام وصرخت:

ـ "غينا" أحضر القميص.

دخل بعد لحظات إلى الغرفة جندي يحمل على كتفه بندقية أوتوماتيكية، وبيده قميص قديم مدعوك من قماش "البوبلين" السميك الناعم. بقي واقفاً بالقرب من الباب بانتظار تعليمات أخرى.

قاست الموظفة "سوزانا" طويلاً، وسألتها بعد ذلك بصوت هادىء لا يخلو من الحزم عن سبب خيانتها "ألكسي". لم تفهم "سوزانا" عم تتحدث. كررت الموظفة سؤالها السابق بذات الطريقة الهادئة. حين فهمت "سوزانا" قصدها في نهاية الأمر، فنجرت عينيها، وفتحت فمها دون رغبة منها ثم أطلقت أنيناً خفيفاً، ولكنها في ذات الوقت حافظت على صمتها. وضعت بعد ذلك يدها على قلبها وكأنها تحضر نفسها للقسم، ولكنها بالرغم من ذلك لم تتمكن طويلاً من نطق كلمة واحدة.

ـ هيا... أمرتها الموظفة.

ـ تقولين بأني... ـ استغربت "سوزانا، ـ خنت "ألكسي"؟ أنا؟

ـ أنت، حافظ صوت الموظفة على هدوئه.

ـ لا، أنا لم أخنه... أنا كنت أحب "ألكسي".

ـ أوي! أنزلت الموظفة يديها بطريقة مسرحية. ـ إنها تحب "ألكسي"....! الفاشية العاهرة..!

أشارت الموظفة إلى طاولتها، وقالت: تمكن الجيش الأحمر من الوصول إلى عدد من الوثائق الألمانية. كشرت، ورفعت إحدى الأوراق. مثلاً، لقد كتب الفاشيون أن "سوزانا لاوكوفا" زارتهم في شهر كانون الأول وأبلغتهم عن تحركات مسؤول تموين الأنصار الروس. مدت "سوزانا " يدها باتجاه الورقة وقالت:

ـ دعيني.

ـ لا ـ ضربت الموظفة قبضتها على الطاولة. ـ والآن، اخلعي قميصك.

ـ إنني لم أش بـ "ألكسي"، دعيني أر تلك الورقة!

ـ اخرسي، وانزعي قميصك.

ـ إنني لم أش بـ"ألكسي"، أرني تلك الورقة! صرخت "سوزانا" بصوت أعلى.

أحست كيف لكزها الجندي من كتفها. حين التفتت إليه، رأته يصوب عليها الساموبال.

ـ إنني لم أش بـ "ألكسي" ـ حاولت الآن أن تشرح للجندي. ـ هل تفهم؟ إنني أحببته.

ـ اخلعي قميصك! صرخ بها الجندي، وشد بذلته بأصابعه من الأمام لتصحيح هندامه.

فهمت "سوزانا" أخيراً أنهم يريدون منها أن تخلع بلوزتها. استدارت باتجاه الموظفة، وخلعتها ببطء، ثم وضعتها على الطاولة. وبالرغم من أنها كانت ترتدي قميصاً آخر تحتها إلا أنها غطت ثدييها بيديها كما لو كانت عارية.

ـ إلبسي. أمرتها الموظفة، وأشارت برأسها للجندي.

التفتت "سوزانا". ناولها الجندي القميص الذي أحضره معه. أخذته منه دون رغبة ولبسته ببطء. أحست أنه معبأ برائحة عرق ذكوري، ولم يُغسل منذ زمن طويل، ولكنها لم تعترض. هل يهم ما ستضعه على جسمها إذا كان أولئك الناس يظنون أنها وشت بـ "ألكسي" عند الألمان؟!. لقد انهارت بعد تلك التهمة غير المتوقعة، كما سيطر الضعف على تفكيرها وجسدها في آن واحد.

نادت الموظفة في تلك الأثناء على الجندي ليقترب منها، وقالت له شيئاً بصوت غير مسموع. بدا وكأنه لم يوافقها الرأي. حاولت "سوزانا" التقاط حديثهما. لعله أراد اقناع الموظفة ببراءتها، أو ربما تفهّم وضعها أكثر.

لم يكن الأمر كما توقعته. فهمت "سوزانا" أن الاثنين لم يتوصلا إلى تفاهم حول المكان الذي عليهما إرسالها إليه. أرادت الموظفة إرسالها إلى "سدريا"، لكن الجندي رفض لأن الغرف هناك ملأى بالرجال. الأفضل هو الاحتفاظ بها وحدها، وسجنها مباشرة في مبنى القيادة حيث لا يزال يوجد في القبو غرفتان فارغتان. وافقت الموظفة في النهاية على اقتراحه.

أمر الجندي "سوزانا" بالسير أمامه. اقتادها إلى غرفة مشرعة الأبواب، تقع في الطابق الأول حيث الفوضى أكثر بكثير من غرفة الموظفة. امتلأت الأرض بالمعاطف، والبزات، والكنزات الصوفية، والسراويل، والأحذية، والمظلات، والحقائب المفتوحة. توقعت "سوزانا" في الحال أن القميص الذي ترتديه الآن كان مرمياً قبل دقائق في مكان ما هنا على الأرض.

جلست امرأة بدينة ببزتها الرسمية على كرسي في وسط هذه الفوضى. حين دخل الجندي برفقة "سوزانا" إلى الغرفة نظرت إليهما بضجر.

ـ شرح الجندي: تفتيش شخصي.

نهضت المرأة من مكانها دون رغبة. أخذت شال الصوف من يد "سوزانا"، ووضعته على الكرسي. جستها بعد ذلك من تحت إبطيها، ونزلت بيديها الضخمتين ببطء إلى الأسفل. تفحصت اليدان الخصر لحظة. سحبت بعد ذلك كتاب الصلوات من جيب التنورة، ورمته على الأرض. فكت مطاط التنورة، ودست سبابتها القاسية من الأعلى ومن الأسفل. التفتت أخيراً نحو الجندي، وأخبرته بأن كل شيء على ما يرام. أمر الجندي "سوزانا" بأخذ شالها الصوفي من المقعد والخروج. حين انحنت لالتقاط كتاب الصلوات، صَوّب نحوها سلاحه من جديد. همهم بشيء بعد ذلك وأنزل فوهة الساموبال.

# جوت شوتز ديخ

# (فليحميك الرب، بالألمانية)

كان القبو فارغاً تماماً. قرفصت "سوزانا" تحت النافذة الصغيرة التي كانت لا تزال تسمح بمرور كمية كبيرة من الضوء. سحبت كتاب الصلوات من جيب تنورتها، وبدأت في الصلاة. صلت في البداية على روح والدها بالنيابة عن وليدها، وأضافت الآخرين بعد ذلك بالترتيب. بدا لها أن جميع الصلوات تناسب الحالة التي وجدت نفسها فيها: على روح الأهل، ولأجل الحياة الدنيا، والسلم. لم تتمكن من التركيز على الصلاة لأنها كانت تفكر طوال الوقت بما حدث معها في ذلك اليوم. كانت على ثقة بأنها ستلتقي في الغد أناساً مختلفين، وربما سيحضر ضابط أكثر خبرة ويصغي إلى كلامها. تذكرت كيف كانت أمها دائماً تشتم البلاشفة وهذا ما جعلها تعترف بصحة كلامها.

حين حل الليل ولم تعد القراءة ممكنة، جلست على الكتاب كي يحميها من برودة الأرض. همست الصلوات التي كانت تحفظها عن ظهر قلب، مثل ملاك الرب و المولد "اللوريتاني". غفت لحظة ولكنها أفاقت بسرعة من شدة البرد وتابعت الصلاة.

فجأة، فُتح باب القبو الثقيل الذي دفَع الجنود من خلاله جسدين إلى الداخل. كانتا امرأتين. لم تنتبها في العتمة إلى وجود "سوزانا". تحدثتا بالألمانية. عرفت "سوزانا" من خلال حديثهما أنهما أم وابنتها، وعرفت أيضاً من لباسهما أنهما تتحدران من ذات المنطقة. اشتكت الصبية وقالت إن الروس سوف يطلقون عليهما النار بالتأكيد. قاطعتها الأم بقسوة، وقالت: علينا أن نهرب، وحين اقتربت من النافذة، انتبهت إلى وجود "سوزانا". سألتها بالسلوفاكية عن سبب سجنها. ردت عليها "سوزانا" بأنها تجهل السبب. زفرت المرأة زفرة طويلة وقالت: حتى هذا يمكن أن يكون ذريعة لإطلاق النار. نبهتها الابنة، وطلبت منها توخي الحذر ثم شدت والدتها إلى الزاوية المعاكسة. اقتربت بعد قليل المرأة الأكبر سناً من "سوزانا" وسألتها بصوت منخفض عما إذا كان بالإمكان الهروب من هنا. ردت عليها "سوزانا" بأنها ترفض القيام بمثل تلك المحاولة لأنها ستطلب في الصباح مقابلة الضابط المسؤول وستشرح له كل شيء. همهمت المرأة شيئاً غير مفهوماً ومفهوم إلى ابنتها.

سمعت "سوزانا" قسماً من الجدل الجاري بينهما، ولكنها لم تفهم كل شيء، لأنهما كانتا تتحدثان بالألمانية، وفِوق ذلك بصوت منخفض، إلا أنهما رددتا

أثناء جدالهما كلمة: بمفردك، ومعاً.

اقتربت الكبيرة بعد لحظات من "سوزانا" وطلبت منها أن تبتعد عن النافذة. وافقت "سوزانا" على طلبها بالرغم من عدم معرفتها السبب. حين ابتعدت "سوزانا" عن النافذة، خلعت المرأة جزمتها، ووقفت تحت النافذة مسندة ظهرها إلى الجدار ثم شكلت من يديها ما يشبه الصحن. اقتربت ابنتها في تلك الأثناء منها وحملت الجزمة بيدها، ثم ارتقت بمساعدة والدتها إلى النافذة الصغيرة. كسرت زجاجها بضربة قوية من كعب الجزمة. قطعت خشخشة نثرات الزجاج الصغيرة سكون الليل. تجمدن ثلاثتهن وبقين دون حراك، كما لو أن خشخشة الزجاج أرعبتهن. ألقت الابنة نظرة على "سوزانا". كانت تلك اللحظة المناسبة للوشاية بهما.

برمتْ "سوزانا" رأسها. أعطت المرأة الأكبر سناً بعد لحظات أمراً قصيراً، بدأت على إثره ابنتها بقلع قطع الزجاج المتبقي من إطار النافذة. سلمتها إلى والدتها التي دستها بحذر في جيب معطفها. وبالرغم من ذلك كانت أحياناً تُسمع خشخشة الزجاج. تمسكت الابنة بعد ذلك بطرفي الإطار الذي حاولت من خلاله التسلل إلى الخارج. تمكنت بصعوبة كبيرة من تمرير جسمها بمساعدة والدتها التي كانت تدفعها من مؤخرتها مما جعلها تشهق في بعض الأحيان من شدة ألمها. ربما جرحتها قطع الزجاج العالقة.

حين أصبحت الابنة في الخارج، مدت كلتا يديها عبر النافذة كي تسحب أمها. كان واضحاً لـ"سوزانا" أن ذلك سيكون شبه مستحيل، حتى لو قامت هي بمساعدة المرأة من الداخل ورفعتها. إن إطار النافذه لا يسعها، وهذا ما أدركته الأم أيضاً، وربما كانت متأكدة من ذلك منذ البداية أثناء تجهيزها الخطة مع ابنتها. ضغطت على أصابع ابنتها لحظة لكنها بعد ذلك ودعتها بسرعة. ابتعدت عن النافذة لتنتعل جزمتها، ولكن يدي الابنة بقيتا ممدودتين وحاضرتين للإمساك بيدي الأم وسحبها إلى الخارج. عادت الأم من جديد إلى النافذة وقالت بحزم:

ـ إذهبي.

ـ لن أذهب بدونك.

ـ جه، أمرتها الأم وابتعدت مختفية في العتمة.

بقيت ابنتها لحظة بجانب النافذة، لكنها نهضت بعد ذلك. كان يمكن رؤية ساقيها اللتين لم تعرفا أي طريق تسلكان، ومع ذلك تحركتا في نهاية الأمر مختفيتين عن المشهد.

ـ في رعاية الرب، همست الأم.

اقتربت بعد ذلك ببطء من "سوزانا" وجلست بجِانبها.

ـ هل ترين؟ نجحنا. كان ذلك ممكناً، قالت وأضافت: لم يطلقوا النار، إن رغبت فسأساعدك أيضاً.

ـ لست بحاجة للهرب. سوف يطلقون سراحي في الصباح، ردت عليها "سوزانا".

ـ أتمنى ذلك.

أمسكت بعد قليل بيد "سوزانا" وقالت:

ـ اسمي "آنا".

تسللت نسمة باردة عبر النافذة إلى الغرفة. لابد أن الأرض ستتجلد مع طلوع الفجر.

# برزز تسلا فوينا سي نينافيدي زلسمي

(بالبولونية. كان أحدنا يكره الآخر خلال فترة الحرب بأكملها)

حين اكتشفوا في الصباح هروب إحدى السجينات، قرر الحراس إطلاق النارعلى السجينتين في الحال. ولكنهم لم يفعلوا في النهاية بسبب وصول ضابط برتبة عالية، قال إنهم بحاجة لكل امرأة، ولا يزال ينقصهم منهن سبع. أحضروا بعد لحظات سبع نساء، لم يفهمن على الإطلاق ما يريده منهن الجنود السوفييت.

وصلت سيارات النقل. أجبروا "سوزانا" مع المرأة الألمانية، والسبع الباقيات على الصعود إلى واحدة منها مع عشرين رجل، بينما نقلت السيارات الأخرى رجالاً فحسب. سأل الناس الذين تجمعوا هناك الحراس عن الوجهة التي ينقلون إليها المساجين ولكنهم رفضوا الإجابة. وحين أصر أحدهم على السؤال، تلقى ضربة من قبضة البندقية على بطنه أو وجهه.

حين صعدت "سوزانا" على سطح الناقلة، وقع نظرها على إحدى نوافذ الطابق الذي تستخدمه القيادة. وقفت هناك الموظفة التي استجوبتها في اليوم السابق. كانت ترتدي بلوزة "سوزانا".

تحركت الناقلات. نسمة باردة لعقت وجه "سوزانا" مثل جرو صغير فضولي. أصيبت بنوبة سعال شديد، وأحست بحرقة في عينيها. لقد بردت في الليل وشعرت بارتفاع في حرارتها. لفّتْ نفسها أكثر بشالها الصوفي.

ـ إنهم ينقلوننا إلى خارج المدينة ليطلقوا علينا النار ـ قال أحد الرجال.

ـ غباء. لن يصرفوا الوقود بسبب ذلك، إنهم ينقلوننا إلى سيبيريا للعمل ـ عارضه الثاني.

ـ ولكن بيننا نساء، لذا لسنا ذاهبين للعمل ـ لم يوافقه الآخر.

ـ سيطلقون النار على المحظوطين منا، ويرسلون البقية إلى سيبيريا ـ قهقه آخر.

حين أشرقت الشمس، وانتشر الدفء، وتوقفت "سوزانا" المحصورة بين جسمين مكورين عن الشعور بالبرد. نامت.

أفاقت على صراخ قوي. كان الجنود السوفييت يحثونهم على النزول من الناقلات. كانت ناقلتهم موجودة بين ناقلات عديدة في مكان مفتوح بالقرب من محطة قطار. حين قفزت "سوزانا" من العربة أحست بدوار في رأسها.

كان من الممكن أن تسقط ولكن اليد القوية لأحد الجنود أمسكت بها. كانت لا تزال محمومة، وتتألم من ساقيها اللتين تحملانها بصعوبة كبيرة.

قام الجنود بصفهم في خطوط خاصة للرجال والنساء. ظنت "سوزانا" أنهم ساقوا إلى هذا المكان أناساً من أماكن مختلفة، لأن أولئك القليلات من "لفوتشي" ضعن بين جموع المصفوفين على شكل مستطيل كبير. الألمانية المسنة فحسب بقيت بالقرب منها.

ـ أين نحن يا "آنا"؟ سألتها بصوت أجش.

ـ في بولونيا، في "سانوك" - وضعت المرأة يدها على جبين "سوزانا". ـ يا إلهي، إنك تشتعلين أيتها الصبية.

قفز في الحال جندي نحوهما، ودفع "آنا" إلى مكانها في الصف.

بدأ العد. مشى الجنود بين الصفوف وأحصوا أعدادهم بصوت مرتفع. حين وصلوا إلى النهاية أبلغوا نتيجة العد لجندي آخر، قام بجمع أعداد كل صف وأبلغ قائده الموجود في الأمام بالرقم النهائي. الأعداد لم تتطابق، لذا توجب إعادة الحساب من جديد.

داهم "سوزانا" إحساس بالتقيؤ. تمكنت عدة مرات من السيطرة على نفسها، ولكن التشنج كان من القوة بحيث جعلها تنحني في خصرها. طار القيء في كل الإتجاهات. نادت النسوة الجنود للمساعده ولكن النتيجة كانت أن شتم أحدهم "سوزانا". حاولت "آنا" أن تشرح للجندي بأن "سوزانا" مريضة، وحرارتها مرتفعة، ولكن الجندي الذي لم يفهم، صرخ في وجهها، وأمرها بالتزام الصمت. أفرغت "سوزانا" في النهاية محتويات معدتها بالكامل. ألقى الجندي على النسوة من حوله نظرات ازدراء وصاح بهنّ مهدداً بالروسية:

ـ "مالتشيت! سترلايت بودو (الزموا الصمت! وإلا سأطلق النار!)

وقف كابتن سوفيتي أمام جموع المصطفين برفقة رجلين في ثياب مدنية. أخبرهم الكابتن أن سبب اعتقالهم هو تعاونهم مع الفاشيين. ترجم أحد المدنيين كلامه إلى الألمانية، وترجم الثاني إلى البولونية. حين سمعوا التهمة المنسوبة إليهم، أطلق بعضهم عبارات احتجاج. أسكتهم الكابتن برفعه يده اليمنى ثم قال إن كل شيء لا يزال مجرد اتهام ومن الضروري إثباته، وهم الآن في طريقهم للمثول أمام المحاكم السوفيتية. أولئك الذين لن تثبت إدانتهم، سيكونون غداً في بيوتهم. لقد أرجعنا العديد منهم بالأمس، وغيرهم سيعودون يوم السبت. أنهى القائد كلامه.

أخيراً، صدر الأمر بالتحرك. توجب على النسوة السير على شكل مستطيل حسب الترتيب السابق باتجاه المحطة القريبة حيث كان قطار النقل

بانتظارهم على بعد عشرات الأمتار من رصيف المحطة. فُتحت أبواب العربات، ووضعت ألواح خشبية توصل بينها وبين الأرض.

أراد الجنود تقسيم المستطيل أمام العربات إلى مجموعات من خمسين في كل مجموعة. ولكن الأمر بدا معقداً لأن السجناء كانوا في صفوف من ثمانية في كل صف. حدثت لخبطة جديدة. صرخ بهم الحراس وضربوهم على أكتافهم بالبنادق. الضربة التي تلقتها "سوزانا" كانت خفيفة ولكنها كافية لإسقاطها على ركبتيها. ساعدتها "آنا" على الوقوف بسرعة. أراد الجنود إعادة تشكيل مستطيل من خمسة صفوف على أن يحتوي كل صف عشرة سجناء، وهذا ما جعلهم يدفعون النسوة من طرف لآخر. وأتبعوا ذلك بإحصاء جديد، لكنه لم يتوج بالنجاح، تماماً كما حدث في المرة الأولى.

صدر الأمر أخيراً بالصعود مما جعل النسوة يركضن باتجاه العربات، والمرور فوق ألواح الخشب. حين وصلت "سوزانا" إلى منتصف العارضة شعرت بدوار في رأسها وضعف في ساقيها، وأشرفت على السقوط فوق صخرة قاسية لولا يقظة الحارس الذي تذكرها وقام بمساعدتها. أمسكها بقوة ثم نادى على إحداهن لتساعده في رفع "سوزانا " إلى العربة.

حين صعدت آخر امرأة، أغلقت البوابة التي أحدث ارتطامها بالطرف الحديدي المقابل صوتاً مدوياً، ومع ذلك بقي القطار وقتاً طويلاً في مكانه مما جعل النسوة يشعرن بالضيق والرغبة في قضاء حاجتهن، وبعضهن أهلكهن الظمأ لذا بدأن يضربن البوابة. لم ينتبه الحراس في البداية، ولكنهم انتبهوا حين بدأن يرفسنه بقوة، اقتربوا من العربة وأمروهن بالتزام الهدوء. تبدل صراخهن بالزعيق، وضرب الباب بأيديهن ورفسه بأقدامهن. جاء رد الجنود قاسياً. أطلقوا عيارات نارية من رشاشاتهم نحو القسم العلوي من العربة مما جعل النسوة يلتزمن الصمت في الحال. تسببت طلقات الجنود في إحداث ثقوب في العوارض الخشبية مما سمح بعبور الضوء إلى داخل العربة.

غالبيتهن في العربة كن ألمانيات وبولونيات.

قالت إحداهن بالبولونية:

ـ برزز تسلا فوينا سي نينافيدزيلي، أ روستسي ناس تراز بولا تشيلي. (خلال الحرب كان أحدنا يكره الآخر ولكن الروس جمعونا الآن).

اتفقت النسوة على عدم قضاء حاجتهن من خلال شقوق الأبواب، واستخدام الثقوب الموجودة بين ألواح الخشب في إحدى زوايا العربة كي يسيل كل شيء إلى الخارج. كان الوصول إلى الثقب في غاية الصعوبة، لأن العربة

كانت محشوة بأجساد الجالسين والمقرفصين من السجناء والسجينات، لأن المقاعد الخشبية قليلة وقد تزاحمت عليها بضع أزواج من النسوة.

وبالرغم من أن أولى علامات الحمل التي ظهرت على "سوزانا" تمثلت في الحاجة إلى التبول المتكرر إلا أنها لم ترغب الآن في ذلك، وكانت لديها رِغبة أكبر في شرب الماء بسبب عرقها الشديد الذي بلل ثيابها، وبلل أيضاً كُمَ معطف "آنا" التي كانت تمسح به عرق "سوزانا".

# ستاكان فودي

# (كأس ماء بالروسية)

تحرك القطار مع هبوط الليل. لم يسافر طويلاً لأنه توقف بعد عدة ساعات. فتحت أبواب عرباته التي أصدرت صريراً قوياً. تم تبديل الحراس القدامى بحراس جدد ترافقهم الكلاب التي كانت تنبح على النسوة بشراسة.

أعانوا "سوزانا" على النزول لأنها كانت تتوازن بصعوبة كبيرة على قدميها، كما سال الدمع من عينيها من الوهج القوي الذي نشرته المصابيح القوية على المساحة التي وقفوا فيها. ارتمت خيالات الأجساد البشرية بين أضواء المصابيح بعد انتهاء فترة الظلام المرعب الذي عاشوه في العربات. كان عليهم الانتظام من جديد في صفوف، ولكنها هذه المرة على شكل مربعات. تسبب الصخب الحاصل أثناء ترتيب الصفوف في تفريق "سوزانا" عن "آنا". بحثت عنها ولكن دون جدوى، وخُيل لـ "سوزانا" أن تلك المرأة المسنة ربما تقف في النهاية المعاكسة للمربع، ولكن الرؤيا كانت شبه مستحيلة في المكان الذي وجهت إليه أضواء المصابيح القوية.

تم إحصاء العدد بسهولة من المحاولة الأولى. سحب الجنود أربع نساء من الصف الأول وأبعدوهن عن المجموعة. وشوشت الباقيات وأطلقن فيما بينهن افتراضات مرعبة عن مصيرهن. سيكون بانتظار الجميع بالتأكيد ذات المصير. عادت النساء الأربع بعد لحظات وقد حملت كل واحدة منهن سطل ماء. مررن من أمام الصفوف وبذلك تمكنت النسوة من شرب الماء من الكيل المربوط بالسطل.

كان الماء شديد البرودة. شعرت "سوزانا" أثناء شربه بتجمد حلقها وحرقة في صدرها. حاولت بلع كميات صغيرة، وببطء شديد، ولكن الحارس كان لها بالمرصاد لأنه سحب الكيل من يدها وأمر المرأة التي كانت تحمل السطل بالتحرك.

كان الأمر أسوأ بالنسبة لأولئك اللاتي كن في نهاية الصف، لأن الماء الموجود في السطل كان قد استهلك، ولم يسمح الحراس للنسوة بتعبئته من جديد. حين اعترضت إحداهن، تلقت ضربة على رأسها بمؤخرة البندقية. انزلقت على الأرض واستلقت دون حراك. صوَّب الجندي بندقيته باتجاه النسوة اللاتي وقفن بالقرب منها وحاولن الانحناء لمساعدتها، وأجبرهن على البقاء في أماكنهن. حين سمح الحراس بعد نصف ساعة للنسوة بالجلوس

على الأرض المتجمدة، اقترب بعضهن بحذر من الجسد الهامد. انتشر في حينها الخبر. المرأة المستلقية على الأرض أصبحت في عداد الأموات.

# بدأت المحاكمة مع إشراقة الصباح

ـ التحقيق سيكون بانتظارك ـ ابتسم الجندي حين وقف أمام "سوزانا".

وبالرغم من أنها كانت تجلس على كتاب الصلوات الذي دسته تحت مقعدها، إلا أنها تيبست بسبب جلوسها الطويل في العراء على أرض متجمدة. حاولت الوقوف ولكنها أصيبت في الحال بنوبة سعال أطاحت بها أرضاً من جديد. ساعدها الجندي وهو يشتمها على الوقوف، ثم سحبها باتجاه عربة القطار التي رفع فوقها العلم السوفيتي، وتم تجهيزها للمحاكمات، وكانت تسمح بإجراء محاكمتين دفعة واحدة. تألفت هيئة المحكمة من ثلاثة أشخاص. أجلسوا "سوزانا" مقابل رجل متقدم في السن يضع غليوناً بين شفتيه، وقد أحاط به من كل جهة عضو أكثر منه شباباً. كانوا ثلاثتهم يرتدون بزات عسكرية.

سألها الأكبر سناً دون أن يسحب الغليون من فمه عن شيء ما. لم تفهم "سوزانا" السؤال.

ـ "الإسم والكنية بالروسية ـ كرر أحد الشابين.

ـ "سوزانا لاوكوفا".

ـ "سوزانا لاوكوفا"، ليتشنوي دلو ـ أمر أحد الشابين بالبحث عن ملفها الخاص.

قفز الشاب الثاني من مكانه في تلك اللحظة وجعل يفتش بين الأوراق المكدسة خلف ظهره.

ـ الجنسية؟

ـ سلوفاكية.

ـ سلوفاتسكايا؟ لا أظن ذلك ـ قال صاحب الغليون. ـ سلوفاكية بين الألمان والبولونيين؟

تخيلت "سوزانا" أن جملة الرجل ستمنحها الأمل لتشرح بأنها هنا بالخطأ.

ـ نعم، إني سلوفاكية! ولست ألمانية، ولا بولونية. لا بد أن هناك سوء تفاهم. إنني بريئة.

هز الرجل الأكبر سناً رأسه إشارة منه على عدم موافقته. أكد أنه لا يعرف حادثة واحدة ألقوا فيها القبض على إنسان بريء. أخبره الشاب أثناء ذلك بأنه لم يتمكن من الوصول إلى الملف.

سحب الرجل الأكبر سناَ الغليون من فمه، وألقى نظرة لطيفة على "سوزانا". شرح لها أنه بحاجة إلى معلومات حقيقية واعتراف صادق. يكفي حين تقول مع من كانت على اتصال، وفي الحال ستصبح إدانتها أخف. بقيت "سوزانا" صامتة.

ـ حسناً، أخبرينا ـ سألها أحد الشابين بانفعال.

ـ أرجوكم، اعطوني بلعة ماء - سعلت "سوزانا ".

ـ "خمسة وعشرون عاماً وكأس ماء! ـ قرر الرجل الأكبر سناً، وسحب نفساً من الغليون.

اقترب من "سوزانا" في تلك الأثناء الجندي الواقف من خلفها، وأشار إليها كي تنهض بحركة من ساموباله.

ـ "سوزانا لاوكوفا! ليتشنوي دلو! ـ لوح منتصراً الرجل الذي كان يبحث عن الأوراق بالمغلف الذي حمله في يده.

التفتت "سوزانا" ونظرت إليه شاكرة. أشار الرجل الأكبر سناً للحارس بحركة يصعب ملاحظتها كي يُخرج "سوزانا" من العربة. أرادت "سوزانا" قول شيء تدافع فيه عن نفسها، ولكنهما كانا قد وصلا إلى خارج المكتب. أعضاء تلك المحكمة الاستثنائية لم يكونوا مؤهلين لتفهم حالتها.

اكتشفت "سوزانا" أن الجندي يقودها مباشرة إلى قطار النقل الطويل الذي قاموا في تلك الأثناء بتحضيره.

ـ قالوا: خمسة وعشرون عاماً مع كأس ماء ـ ذكرته "سوزانا".

ـ تحركي! صرخ بها الجندي.

ـ كأس ماء ـ هذا ما قالوه، لم تتراجع "سوزانا".

ـ ألمانية وسخة ـ شتمها الجندي ودفعها بفوهة البندقية آمراً إياها بالتحرك باتجاه المبنى الذي أحضروا منه الماء في الليل.

# أورال هيستري

## (التاريخ الشفوي بالإنكليزية)

ـ ادخل! صرخ الأستاذ المساعد "فوكنار"، وقطّب حاجبيه وهو يتطلع باتجاه الباب.

أطل وجه صبية. سألته بلطف.

ـ هل يمكنني الدخول؟

ـ تفضلي ـ رد الأستاذ المساعد.

أغلقت الصبية الباب من خلفها، وبقيت واقفة بالقرب منه.

ـ ماسبب حضورك؟ ـ سألها "فوكنار"، وتنهد.

ـ الدبلوم.

انتعش وجه الأستاذ المساعد:

ـ هنا، أرى من واجبي أن أخذلك! جميع الأطروحات التي أعلنتُ عنها أصبحت محجوزة، وتم الموافقة عليها. عليك البحث عن مدرس آخر.

ـ إسمي "هرليانسكا" ـ طلبت الصبية منه السماح. ـ لقد اخترت إحدى اطروحاتكم في حزيران... وهي إحدى الأطروحات التي تمت الموافقة عليها.

ـ حسناً ـ شحب وجه "فوكنار" من جديد. ـ إذاً كنت تعرفين أن عليك إرسال النص بالبريد الإلكتروني.

ـ لقد أرسلته، ولكنكم لم تجيبوني.

ـ متى؟

ـ نعم، في... ـ تلعثمت الطالبة. ـ إنكم لم تجيبوني إطلاقاً.

دوّر المساعد عينيه بانزعاج وقال:

ـ متى أرسلته؟

ـ الإثنين الماضي.

ـ أنت متأكدة؟ ـ أحنى المساعد رأسه باتجاه الحاسوب. ـ المفروض أن يكون هنا... أخبريني من جديد ماذا قلت أن اسمك؟

ـ لوتسيا هرليانسكا.

ـ وجدتك ـ استسلم المساعد معترفاً. تفضلي واجلسي. سأقرأ العمل.

مشروع التخرج المحجوز

عنوان العمل: أنواع وخصائص تحقيق الأمومة في الأحوال الاجتماعية الاستثنائية.

اسم الطالبة: لوتسيا هرليانسكا

اسم المدرس المشرف: الأستاذ المساعد بيتر فوكنار، ماجستير، دكتور علوم.

القسم: الدراسات وسط أوروبية (كود التفويض 2012- 6/537)

درجة الدراسة: ماجستير.

هدف العمل: تعتبر الأمومة ومن ثم الأم، التي تشكل عماد المؤسسة الاجتماعية، الأساس في طرق العمل النظرية من نفسية، وثقافية، واجتماعية. تركز المؤلفة من خلال تسخيرها جميع معلوماتها التي حصلت عليها عن طريق الدراسة، على الطرق النوعية مثل تلك التي تتفق مع وظيفة مؤسسة الأمومة في الحالات الاستثنائية للأوضاع الاجتماعية، كالسجن أو معسكرات الاعتقال،أو أثناء الهروب، في المنفى الخ.

طريقة تكوين البحث: سيحتوي العمل على كيفية تطبيق الدراسة بمساعدة التاريخ المحكي.

التاريخ المحكي (علم المصطلحات. المرادف؛ الحكايات التاريخية، التاريخ الشفهي، الذكريات اللفظية) هو الطريقة النوعية في جمع وتفسير المعلومات المستخدمة في عدد من العلوم الاجتماعية، وبالتحديد في علم الأعراق (الأنطولوجيا)، وعلم التاريخ، وعلم الاجتماع. يعطي الباحث ـ العالم في تلك الطريقة ـ مساحة للمستجيب العادي respondent (علم المصطلحات. المرادف: الراوي، المُبلغ، الحكواتي، المشارك) كي يصف حياته أو يشرح أفكاره بطريقة المونولوج أو بالنقاش الحر (علم المصطلحات. المرادف: الرواية عن طريق المقابلة). هنا يجب التفريق بين من عاش الحكاية وبين من سمعها.

بما أن التاريخ المحكي يعطي مساحة للتعبير عن الأفكار الذاتية لمن يُطلق عليهم الناس البسطاء (بليبزاتسيا، لايسزاتسيا)، فإن ذلك يتطلب إمكانات أكبر من الباحث العلمي كي يقوم بنقد تلك المعلومات وجعلها موضوعية. المهم هو المقارنة مع مصادر أخرى تم تدوينها بشكل شخصي (مثبتة، منشورة). بهذه الطريقة فحسب يمكن للتاريخ المحكي أن يساهم في نقل

الحوادث اليومية التي تعتبر من جهة غائبة عن منظور الأدب الإجتماعي، وتبقى من جهة أخرى الطريقة المضبوطة (الدقيقة).

استراتيجية الرواية (علم المصطلحات. المرادف: أسلوب الرواية) التي يختارها الراوي كي يتمكن من التأثير بأقل ما يمكن على الباحث العلمي، لأن ذلك في الحقيقة هو السبيل الوحيد والذاتي عند المتلقي لتسهيل طرح الأفكار والذكريات. إن عملية الانتقال من الذكريات إلى الكلام يجب أن تتم ببساطة، وبشكل طبيعي. من الضروري تصحيح تلك الخاصية الاستقلالية لدى المُستقبل أثناء الحكاية بطريقة منهجية. الراوي يقرر طريقة الحديث في حين يقرر الباحث العلمي الموضوع الذي يجب الحديث عنه.

إن الشيء المثالي هو نجاح الباحث العلمي في خلق علاقة تفاهم صادقة مع الراوي. تبدو الحاجة إلى التفاهم المتبادل هنا في غاية الأهمية إذا كان الموضوع أو (ما هو خلفه) يتطرق بشكل أو بآخر إلى القضايا الحميمية أو في نهاية الأمر إلى الأشياء الممنوعة، مثل الأمور الجنسية، العلاقات بين البشر، التدين، الأعمال الإجرامية، موت الأقرباء وماشابه.

لا يمثل كلام الراوي الجدول التاريخي الموضوعي للأحداث كما تجري في الحقيقة، لأن الأمر بمجمله لا يتعدى كونه مجرد إعادة ترتيب أفكاره وذكرياته الواقعية الخاصة بما يتلاءم مع إدراكه ومدى تجاوبه مع الأحداث الماضية. وهذا يوصل المستجيب (الراوي) إلى الازدواجية الذاتية subjectivismus: يشعر في بداية المرحلة وكأنه أحد المشتركين (ممثل)، ويتذكرها بعد ذلك من خلال الأحداث والأفعال. يجب على الباحث العلمي أن يأخذ بعين الاعتبار حقيقة تبدل أفكار المستجيب (الراوي) في مرحلة ما بعد إجراء البحث، وذلك أولاً بسبب تأثير نتائج الحدث، وثانياً بسبب تأثير الإعلام، والرأي العام، وإيديولوجيا المرحلة، والدعاية، وماشابه.

يُعتبر منهج التاريخ المحكي في غاية الأهمية أثناء البحث في مجموعة الأقليات والمسحوقين الذين لم يكن لديهم في الماضي، ويمكن القول ولا حتى في الحاضر (خطة) للتعبير عن مطالبهم، وبمعنى آخر، لا يوجد في صفوفهم ما يكفي من علماء الاجتماع الذين يبحثون في أمور الأقليات من داخلها (مثلاً مكانة الغجر من وجهة نظر الغجر، حياة السجناء من وجهة نظر السجناء، مشكلة الإدمان على المخدرات من وجهة نظر المدمنين)، وبذلك يمكن لطريقة السرد التاريخي المحكي أن تعطينا المعلومات التي لا توجد طريقة أخرى أو قنوات أخرى تمكننا من التقاطها في مراحل النشر التخصصي.

المعضلة الأساسية تتمثل في دراسة حياة مجموعة المضطهدين السياسيين في الأنظمة غير الديمقراطية. تلك المجموعات ـ وغالباً بسبب الخوف من

المؤسسة الأمنية والمؤسسات القضائية ـ تقوم بشكل منهجي "بمسح آثار الجريمة"، وهذا يعني أنهم لم يحافظوا على أي ذكرى تتعلق بحياتهم من نوع وثائق مكتوبة على شكل رسائل متبادلة، أو مذكرات خاصة.

توقف الأستاذ المساعد "فوكنار" عن القراءة وراح يتفحص ببطء وجه لوتسيا".

إذاً... بدأ الحديث بشكل غير محدد ـ أؤكد أنك فهمت بالضبط مغزى طريقة (أسلوب) التاريخ المحكي، ولكنني آخذ عليك من الناحية المنهجية ندرة الاستعانة بالأمثلة. إذا كنت تستندين في بحثك على المراجع الأدبية، وهذا ما يبدو جلياً للوهلة الأولى، فإنه يتعين عليك في المقابل أن تذكري المصدر. كنية المؤلف، سنة إصدار الكتاب، والصفحة. توجد لدي شكوك حول إمكان تطبيق الطريقة التي تتعاطين فيها في البحث. لقد أشرتِ ـ وكان ذلك صحيحاً ـ إلى إنشاء علاقة تفاهم صادقة بين الباحث والمستجيب. أنا شخصياً كنت سأستخدم كلمة الراوي، ولكن هذا أمر ثانوي. تظنين، يا "لوتسيا" أن عمرك واحد وعشرون...

ـ ثلاثة وعشرون ـ أكدت "لوتسيا"

ـ لا تقاطعيني أرجوك، وإلا سأفقد الخيط. هل تعتقدين أنك الصبية ابنة الواحد والعشرين عاماً ومن العاصمة ـ رسم المساعد بإصبعيه قوسين في الهواء، ولم تنه بعد دراستها في كلية الفلسفة، يمكنك إنشاء علاقة ثقة مع راويتك؟ تعرفين أن تلك النسوة إذا كن قد ولدن في "الكولاك" فإنهن الآن... سأحسب في الحال... على الأقل في سن الثمانين، وعلى الأغلب في التسعين...

ـ الخامسة والثمانون، ـ أكدت "لوتسيا"

ـ حسناً، تابعي، بما أنك قاطعتني في الحديث.

ـ إن متلقيتي لم تكمل الخامسة والثمانين.

- عفواً، إذاً ـ ارتفعت حواجب المساعد من الدهشة.

ـ إنك تخططين إذاً للعمل مع متلقية واحدة؟

ـ نعم.

ـ هذا مناف للعلم! صرخ المساعد متوعداً.

ـ السيدة لاوكوفا، إنسانة عاقلة، وتتذكر الكثير.

ـ وما هي ثقافتها؟

ـ لا شيء... ولكن لو أنها حصلت على ظروف مناسبة لكانت درست بالطبع في الجامعة.

قام المساعد "فوكنار" وهو في حالة من الاستغراب بمباعدة يديه:

ـ ولكن، أرجوك أيتها الزميلة! كيف لو أنها، لكانت، وبالطبع... ولا أعرف ماذا أيضاً؟! عليك الالتزام بالحقائق الموثقة. عليك طرد الفرضيات من جهازك الحسي.

ـ سأحاول قدر المستطاع ـ أومأت "لوتسيا" برأسها. ـ أريد أن أسأل عن الطريقة التي سأسجل فيها اعترافات المستجيبة. حتى الآن أستخدم الشخص الثالث...

ـ لا! ـ هدد المساعد ـ عليك استخدام الشخص الأول بشكل مؤكد وملزم. إننا هنا مجرد شهود...

نهض المساعد وألقى نظرة على رف الكتب. تناول أحدها، وراح يتصفح. حين وجد مبتغاه، تابع الحديث:

ـ هنا ما أريد! إننا شهود interadiegetic autodiegetic على أحداث يرويها من عاش الحدث في الرواية. الراوي هو بطل القصة وهو الذي يرويها لنا... لا تأخذي من تلك الرواية ما يقوله شخص من خارج الحدث extradiegetic ولا حتى ـ قام المساعد بتدوير عينيه منبهاً ـ غريباً عن الحدث heterodiegetic. إذا قالت لك تلك المرأة بأنها نظرت من النافذة، تكتبين في البروتوكول: نظرت من النافذة. على الدوام بصيغة هي من تنظر! وبالتأكيد ليس الشخص الثالث: هي من نظر من النافذة. ألا تعرفين ذلك؟ إنه ألف باء الأسلوب! إنك مستعدة للانزلاق من التركيز الداخلي إلى رواية من نوع آلة التصوير...

ـ هذا ما تخيلته... ـ دافعت "لوتسيا". بسبب القارىء واستمرارية الحدث....

ـ أي قارئ، من فضلك؟ القارئ هو أنا، فكر المساعد. ـ لقد أدركت الآن الحالة الروائية التي وجدت فيها نفسي. لديك مستجيب وحيد، وهو يمثل أيضاً الشخصية الرئيسية، وبعد ذلك أنا، القارئ الوحيد، وهو بذاته المشرف على البحث. السؤال المطروح: من أنت؟!

ـ أنا؟... إنني ربما...

ـ إنك الوسيط الذي يترجم المعلومات ـ صرخ المساعد، ولكنه انتبه بعد ذلك وكأنه أحس بالخجل من فعلته ـ إننا في الكلية نصنع علماً ولا نصنع حكايات.

ـ ولكنك أنت القائل بأن الراوي هو بطل القصة، وإن التاريخ المحكي هو في حقيقته قصة.

ـ لا أيتها الزميلة، لا تخلطي الرواية بالقصة ـ اعترض المساعد. ـ لا أسمح باستغلال التعابير التفسيرية.

لم تفهم "لوتسيا" ما يقصده مدرسها بكلامه ولهذا السبب طرحت سؤالاً آخر:

ـ وماذا لو استخدمت المستجيبة كلمات روسية؟

ـ اللغة الروسية مفهومة لدى غالبية أعضاء اللجنة المكلفة بالفحوص النهائية، ويمكنك أيضاً استخدام الشروحات المشار إليها بالخط... ولكن دعينا لا نتحدث عن التفاصيل التكنولوجية، ولنحل بدلاً عنها المشكلات الأساسية ـ قال بعصبية ـ هل تفكرين أثناء التفسير استخدام المنظور التاريخي أم البسيكولوجي ـ الاجتماعي؟

ـ المنظور؟ ـ تأتأت "لوتسيا" في الفراغ مثل السمكة حين تفشل في اصطياد طعامها.

ـ التزمي بالبسيكولوجية الاجتماعية حصرياً ـ قرر المساعد ـ المؤرخون يكونون في العادة خائفين حين يتبين عدم وجود تناغم بين مراحل تاريخ الشعوب والدول وبين مراحل حياة الرواة. مراحل حياة الرواة هي مثلاً ـ اعتبريني أتحدث بشكل عام ـ الطفولة، سن البلوغ، الشباب، الزواج، الأولاد، الوظيفة الأولى، الوظيفة الثانية، وهكذا دواليك. وهكذا أثناء ذلك، تجري من حولهم أحداث كبيرة، حرب مثلاً، ثورة، تطهير عرقي، وما شابه. إن التاريخ المحكي يؤكد أن الناس لا يقسمون حياتهم وفقاً للأحداث الكبيرة. بالطبع إذا حدث أن قتلوا أحدهم في معسكرات الاعتقال فإن الهلوكوست عنده ستشكل مرحلة تاريخية كبيرة، والموت بوصفه نقطة في تاريخه الخاص، سيشكل حلقة الوصل، ولكن ذلك حالة استثنائية.

ـ فهمت ـ أومأت "لوتسيا" برأسها.

ـ هل لديك صعوبات أساسية أخرى مع البحث، أيتها الزميلة؟

ـ إن صعوبات أساسية كتلك، تنشأ حسب رأيي في حال نسيان الراوية لبعض الأحداث.

فكر الأستاذ المساعد "فوكنار" لحظة ثم قال:

ـ إن مسألة الذاكرة حقاً هي المفتاح الرئيسي في التاريخ الشفهي. بوساطة تلك الطريقة تنتقل ذاكرة الفرد إلى ذاكرة الجماعة. لا يمكننا دراسة الماضي بشكل مباشر. يمكننا الاعتماد على ما نتذكره من أحداث فحسب. الذاكره الفردية يمكنها أن تُغير في رسم الحقائق لأن الإنسان يصاب بالنسيان، ويتذكر الأشياء بشكل انتقائي. تلك هي إحدى المشكلات القياسية.

المعلومات التي يمكن تذكرها لا تنتسب إلى مجموعة الأحداث الماضية، لأنها في حقيقتها انعكاس للماضي في مجموعة الحاضر، لهذا السبب يطلق عليها تعبير "الذكريات الحية" LIVING MEMORY. إن معلومات كتلك تعتبر في غالبيتها أسلوباً ذاتياً AUTOSTYL، ولا تكون حيادية في مضمونها، إذ تدخل في تركيبتها "الأنا" المركزية، EGOCENTRISMUS، والذاتية الخاصة، وعنصر الرقابة الذاتية للراوي. إلى هذا الحد يكون كل شيء ضمن المقبول، وهو رصد ذاتي للواقع الفعلي، وإحدى النسخ الشخصية لصور الحياة. بعضهم يطلق عليها تعبيراً لطيفاً: الذاكرة الإبداعية، ولكن حين يصل الأمر إلى العبث، أو في نهاية الأمر إلى التدخل البسيط في الرواية ككل، وهذا يعني أنه حين تدخل تلك المعلومات الخاطئة في الذاكرة الجماعية، ينتج عنها إشكالية تشويه الحقائق في المجتمع بأسره، وهذا يشكل خطراً على التاريخ الموضوعي للعالم بأسره.

ابتسم "فوكنار" بسخرية:

ـ كما ترين، أيتها الزميلة، إنك تقفين أمام امتحان صعب. سوف نفكر منذ الآن بالأمومة في "كولاك" سيبيريا من خلال ما ستكتبينه، وحسب ما قالته راويتك. إنها مهمة صعبة! إن رواية التفاصيل تقودك إلى رواية الحدث بأكمله.

ـ إن حديثك يذكرني بـ "ريكويرا" Ricoeur ـ قالت له "لوتسيا"بتأمل.

نظر المساعد إليها باندهاش وسألها:

ـ هل قرأته؟

ـ نعم.

ـ كان عليك ألا تفعلي! اقرأي ما أمليه عليك فحسب، ولا تشوشي أفكارك بمثل تلك... أذكرك أن مهمتك المنزلية التالية هي إعادة دراسة مصطلحات ومفاهيم استعادة الماضي في الروايات من داخلها، ومن منظور الأشخاص الذين عاشوها.

ـ سوف أحاول ـ تنهدت "لوتسيا" واستدارت باتجاه الباب.

يتلذذ "فوكنار"بالتلصص على تموج أوراك الطالبات وهن خارجات من غرفته. إن منظر الجسم الطري عنده يعادل الأجر الذي يحصل عليه لقاء حواراته مع مثقفين غير ناضجين.

لقد بدأ الآن في دراسة موقفه بشكل تحليلي. أدرك أن أطروحة الدراسة تتطرق إلى أشياء في غاية الأهمية، وربما ستكون مقالة جيدة لمجلة الدراسات الكندية "ترانس ـ جندر أند بوست ـ جندر للدراسات". إن جسد

المرأة هو بند أساسي في نظرية التمتع بالنظر والعلاقة مع الثقافة الذكورية، والثقافة التي تعتمد على روعة الكلام، وعليه أن يقرر إذا لم يكن من الأفضل له، إذا أكد بشكل شخصي لهيئة التحرير، أن المؤلف هو رجل، أم على العكس: من الأفضل أن يظل ذلك سراً؟

# بريفوزوفكا

# (الترحيل بالروسية)

... حين أصلي قائلة: الكلمة أصبحت جسداً، فمن واجبي أن أركع، ولكني الآن لا أقدر، ولا يمكنني، لا يمكنني الدوران، ولا أملك القوة. عددنا كبير، إننا ملتصقون. نحن جسد واحد، ولحم واحد، أصبح الجسد مجرد لحم، نحن لحم فحسب....

... أشعر بالمرارة في حلقي، وبالبرد يدق جسدي. إنك محمومة يا ابنتي، أنت بالقرب مني يا "آنا"؟ نعم، يا "سوزانا"، إنني هنا، وأنت تهذين، "آنا"، إنني لحم ساخن فوق المقلاة، الدهن يتطاير، أشعر بحرقة في فمي، إنه مر، أريد أن أشرب، كلنا نريد يا صغيرتي الحبيبة، لاتفكري في هذا الأمر، من الأفضل لو صليت، الكلمة تحولت إلى جسد، يقف بيننا، السلام على ماريا، الرحيمة، أم الرب، أين أمي؟ إنها هنا، أمي هنا، إنها تمسح جبيني، وهي تحبني حتى لو وقعت في الخطيئة، لا تبكي يا فتاتي، جميعنا أخطأنا، امسحي جبيني يا أمي الغالية...

... أين نحن يا أمي؟ في القطار، وإلى أين نحن ذاهبون؟ لا أحد يعلم سوى خالقنا الذي يعرف كل شيء، وهو سيساعدنا، صلي معي، هاك كتاب الصلوات، انظري، إنك أمي، وأنت تصلين بالألمانية؟ هذا شيء رائع، القادر على كل شيء، إنه يفهم الألمانية، ويفهم صلواتك، وأنا أيضاً أفهم الألمانية، حتى أني أصبحت أفهم الروسية، لقد علمني "ألكسي"، هل تعرفين معنى "ستاكان"؟ ماء.

... أشعر بالبرد، يا أمي، أنت أمي، ألست كذلك؟ وأنا سأصبح أماً، أماً سأصبح، ستصبحين أماً في يوم من الأيام، ولكن عليك الآن أن تتوقفي عن الصراخ. أنتظر طفلاً، تحول الجسد إلى جسد، أريد أن أركع، لا، ابقي مستلقية، انظري، تلك المرأة، كان معها زجاجة ماء، لقد تركت لك القليل، اشكريها، واشربي ببطء، حاولي الآن ألا تسعلي، لا تسعلي لأنك بحاجة إلى كل قطرة ماء، لا تسعلي يا طفلتي الغالية، غنِّ معي يا أمي، لا تغني يا طفلتي، وابقي مستلقية بهدوء، إنك بالتأكيد مصابة بالتهاب في الرئتين، وإذا سعلت فسوف تتعب رئتاك. إنك لا تزالين في ريعان شبابك، يجب أن تبقي على قيد الحياة، إنك مثل ابنتي، هل تتذكرينها؟ لقد هربت عبر النافذة، وأنت لم تخونيها، وهذا لن أنساه في حياتي، كنت شجاعة، يا أمي، إنني لست شجاعة، إنني خائفة، أخاف كثيراً، إننا هنا في الظلام، ظلام القبور، هذا ما

يراه "ألكسي"، الظلام، الظلام طوال الوقت، إنك تهذين، يا طفلتي، لا تخافي، نامي أو صلي لربك، إلهي، يامن أمرتنا باحترام الأم والأب، ارحم روح عبدك والد طفلي، إنك أمي، ألست كذلك؟ حتى طفلي أصبح يعرف الصلاة وإن يكن لم يولد بعد، تهذين، الأفضل أن تنامي...

... سوف أسميه "ألكسي"، وهذا ليس اسماً سلوفاكياً بل روسياً، فليباركه الرب، لا تمنحي الطفل اسماً روسياً، ألا ترين ما يفعله بنا الروس؟ إنني لم أخن والده، أقسم لك، أنا أعرف، ولكن لا تصرخي، أقسم، إنني أحببته، خذوا قميصي واتركوا طفلي. أعيدوا إليَّ "ألكسي"، أعطيكم جميع قمصاني، من أنت؟ إنك تتحدثين الألمانية، وأنتم من قتله، ولكني أسامحكم إذا أعدتموه لي. لنُصلِ على روح الميت الزوج "ألكسي"...

... أشعر بالبرد في ظهري، ظهري يتجمد، البردية ترجّ جسمي، أليس معكم ثياب زائدة؟ علينا أن نبدل لها ثيابها، لأنها ستموت إذا تركناها في ثيابها المبللة، تقولين إني سأموت؟ سألتقي "ألكسي"، لا تموتي يا طفلتي الصغيرة، يا أمي، هل ما زلت غاضبة مني، لأني أخطأت؟ لا أحد يغضب منك، ابقي مستلقية، ولا تتحركي، فليمسك أحدكم بيدها...

...الجميع نيام، وأنا وحدي مستيقظة، حتى تلك لا تنام، ما الذي تفعله؟ إنها تلعق تحت إبطها؟ تلعق كالحيوان، لا تلعق، إنها تقضم، إنها تقضم، أيتها النسوة، فلتستيقظ إحداكن، لا تتركنها تفعل ذلك، إنها حقيقة تعض، تعض مثل الحيوان، صوتي ضعيف، ولا أحد يسمعني، وتلك لا تزال تعض، أريد تحريك يدي من مكانها، ولكن لاحول لي ولا قوة. أريد رفعها، إنهن يتمددن على جسمي، وحتى على ساقي، لماذا تنمن إذا كانت تلك تعض تحت إبطها؟ تعض تحت إبطها مثل الحيوانات، لماذا تفعل ذلك؟ شيء ما ينفر هناك، أيتها النسوة، لقد فتحوا علينا الماء، مياه قاتمة مثل الدم، إنها جرح الرب، مياه مدماة في نهر النيل، جرح الرب علينا وعلى أولادنا لأننا وقعنا في الخطيئة، ولكني أريد أن أشرب، اعطوني القليل من ذلك الماء العكر، توقفت المياه عن التدفق، ولكن تلك توقفت عن القضم، إنها تستلقي نائمة، وأنا سأنام، ولكني أريد ماء، أريد أن شرب...

اقترب إصبع الأستاذ المساعد "فوكنار" فجأة من المسجلة، وكبس على زر "ستوب".

ـ ماالذي تقصدينه، يا "لوتسيا"؟

ـ إن متلقيتي في حالة من التنويم المغناطيسي، لقد حصلت منها على أشياء كثيرة لا يمكنها تذكرها في الحالة العادية. ما رأيك بذلك؟

ـ هل أصبت بالجنون؟! لقد تحدثتُ عن المنظور البسيكولوجي الاجتماعي، ولم أتحدث عن.. هذا الشيء.

بقي المساعد صامتاً لحظة، أنزل يديه بشكل لا إرادي بعد أن أراد التعبير بوساطتهما.

ـ لم أنومها مغناطيسياً ـ شرحت "لوتسيا" ـ ساعدتني إحدى صديقاتي. إخصائية، طبيبة نفسية. لديها خبرة نصف سنة في التنويم المغناطيسي.

ـ الأمر لا يتعلق هنا بالخبرة. لقد تصديت في المرة السابقة لنظرياتك التي يصعب تصديقها، والآن تأتيني بالتنويم المغناطيسي! ألا تفهمين بأن التاريخ المحكي هو أحد الطرق العلمية النوعية، وليس هذيان بائس قمت بتنويمه مغناطيسياً؟

ـ التنويم المغناطيسي ليس هذياناً، لأنه يعتبر في علم النفس طريقة كلينيكية ـ تجريبية يمكن بوساطتها الوصول إلى حقيقة الإنسان في حال فشل الوسائط الأخرى.

ـ دعينا ننهِ تلك المناقشة أيتها الزميلة. إن وقتي من ذهب. أُنبهك للمرة الأخيرة بأن مسؤوليتنا العلمية تحتم علينا تدريبك في قسم الدراسات وسط أوروبية. إذا كان طب النفس أقرب إليك، فلا بأس، يمكنك أن تنتهي هناك... الآن علينا أن نفترق، وإلى أن تتوضح أمامك الصورة، وتعرفين بالضبط ما تريدينه، وبأنك لا تريدين اختراع نظريات، ولا تنويم الناس، بعدها يمكنك مخاطبتي عن طريق البريد الإلكتروني. إلى ذلك الحين، وداعاً.

بدا "الأستاذ المساعد" "فوكنار" مضطرباً إلى درجة جعلته لا يعير انتباهاً يذكر لتموج وركي التلميذة المغادرة.

# أوجون

## (نار وبالروسية)

في صبيحة أحد الأيام، ولا أعرف ما إذا كان ذلك في اليوم الثالث أو الرابع أو العشرين، توقف القطار. حين سُحبت الأبواب أصيبت عيوننا بالعمى من أشعة الشمس التي لم تكن مرتفعة بعد. أعطونا سطل ماء رُبط في طرفه كأس مصنّع من القصدير للشرب. كاد الظمأ يقتلنا. ارتمينا على السطل مثل المجانين. يمكن القول إن الظمأ أفقدنا عقولنا. كنت لا أزال أشكو إضافة للعطش من ارتفاع في حرارة جسمي. كل واحدة منا أرادات أن تكون الأولى، ولم نفهم أن واحدة منا فحسب يمكنها أن تكون. دفعت الثانية الأولى، وانحنت الثالثة فوق الماء، أمسكت بها الرابعة من شعرها وجرتها. بدأنا نتشاجر، فجأة انقلب السطل بكل ما فيه.

ـ ماذا؟ ألم يحب الفاشيست طعم ماء السوفييت؟ ضحك الجنود.

ولكنهم سكبوا الماء لنا من جديد. شربنا وارتوينا، كان هناك وفرة منه. سلمناهم بعد ذلك جثة البولونية الشابة التي قضت نحبها بعد أن قضمت شريانها الموجود تحت إبطها. حتى العربات الأخرى لم تخلُ من الأموات.

قام الحراس، وكأنهم أرادوا تعويضنا عن الميتة، برمي خمس سمونات من خبز الجنود في العربات. صرخت إحدى السجينات بأنها لن تلمسه بيدها ما دام يوجد عليه دم المنتحرة، ولكن الأبواب كانت قد أغلقت، وعلقت الشناكل، وتحرك القطار.

جلست هذه المرة تحت الثقب الموجود في السقف وحصلت بذلك على كمية كافية من الضوء مما ساعدني في قراءة كتاب الصلوات. وجدت فيه أنشودة الحج التي تناغمت بالضبط مع رحلتنا. لم أكن أعرف النغمة، لهذا السبب قمت بترتيلها كما لوكانت إحدى الصلوات.

توقف القطار بعد الظهيرة من جديد. سُحبت الأبواب، وأمرنا الحراس بالقفز بسرعة من العربات. ولكن كيف لنا أن نقف بسرعة، ونقفز بسرعة، إذا كانت أجسامنا قد تيبست في تلك الزحمة، ومن الوضعية التي أجبرنا على الجلوس فيها طوال أيام؟ استشاط الحراس غضباً وفهموا أننا نرفض تنفيذ أوامرهم، ولكن الأمر كان على العكس من ذلك. رفضت أيدينا وأرجلنا الإصغاء إلى أوامرنا، ولكن دوي الرصاص في الهواء جعلنا نجبرها على التحرك. قفزنا من العربات، ولكن أقدامنا لم تتحملنا. يمكن القول إننا جميعاً

سقطنا وتدحرجنا على الأرض. حين وقفنا وجدنا الغبار الأبيض يغطي أجسادنا.

ـ أين نحن؟ سألت إحداهن.

ـ في روسيا ـ ردت الأخرى.

ـ هذه لا يمكن أن تكون روسيا، الطقس دافىء هنا، ـ أكدت الثالثة.

لم أول ما يدور حولي من حديث اهتماماً يذكر لأن نظري وفكري كانا لا يزالان تحت تأثير الحرارة، ومع ذلك أحسست حقاً أن جسمي الذي تجمد من برودة أرضية العربة، بدأت تدفئه أشعة الشمس التي أعمت عيوننا. كانت الشمس الآن تقف خفيضة، وقد شارفت على المغيب. نظرت حولي. لم أجد أمامي سوى أراض شاسعة صفراء مترامية الأطراف لا نهاية لها، حيث نبتت هنا وهناك كومات من العشب الكثيف. فجأة، وفي مكان واحد فحسب، ارتفعت غيمة من الغبار. حين حجبتُ أشعة الشمس عن عيني براحة يدي، عرفت أن سبب الغبار هو ركض مجموعة من الأطفال الذين ميزت صراخهم بين تنهيدات النساء وصراخ الحراس.

حاولت البحث عن "آنا" ولكن الحراس كانوا يدفعوننا، لقد أرادونا في هذه المرة أن نقف في أربعة صفوف. وجدت نفسي في الصف الأول وعلى بعد عشرين متراً من سكة القطار. بقيت أبواب العربات مشرعة، وبدا القطار وكأنه حيوان ميت تم تشريحه، باستثناء عربة المحرك السوداء التي كانت تنفث بين الحين والآخر غيمة سوداء من البخار. تألف القطار من خمس عشرة عربة لنقل الحيوانات إضافة إلى عربتين قصيرتين خاصتين، إحداهما في المقدمة والثانية في نهاية القطار.

اعتلى بعض الحراس ظهر العربات كي يتمكنوا من رؤيتنا بشكل جيد. غالبية السجناء كانت من الرجال في حين شكلت النسوة الثلث تقريباً. تم ترتيب صفوف المساجين بشكل جيد لأن الحراس توقفوا عن الصراخ. كانوا يقفون في مجموعات، ويدخنون، وكأنهم لا يعرفون ماذا سيحدث.

اقترب سرب الأطفال مع صراخهم من صفوفنا. نظرنا إليهم. شعرت بالأسى لحالهم. كان بياض عيونهم واضحاً في وجوههم السمراء القذرة، كما كانت أجسامهم الضعيفة غارقة في معاطفهم المبقعة الواسعة، بينما كانت أقدامهم تتحرك في خفافات تنقصها الأشرطة. لم يردعهم الحراس، ولم يولوهم أهمية تذكر حين اقتربوا كثيراً من عربات القطار، أي من الخط الموجود بين الحراس والمساجين.

أحد الصبية، وربما أكبرهم سناً، بدأ بإعطاء الأوامر للأطفال. أرسل بعضهم باتجاه عربة المحرك، وأوقف البعض الآخر بالقرب من العربات الأخيرة.

حين وجدهم يقفون بانتظام وقد توزعوا على طول القطار، أحاط فمه براحتي يديه وصرخ بأعلى صوته:

ـ زارياديت، (استعداد بالروسية)

انحنى الأطفال فور سماعهم الأمر وراحوا يدسون الحجارة الموجودة أكواماً على طرف السكة في جيوبهم.

ـ أوجون (نار- بالروسية)

بدأ الأطفال في تلك اللحظة برمي الحجارة علينا. اعترض السجناء وأطلقوا صيحات من غضب واستهجان. المرأة التي كانت تقف على يميني بدأت تئن وهي تمسك كتفها. تصرف الحراس طوال الوقت وكأن شيئاً لم يكن.

ـ هذا نيابة عن أبي ـ صرخ أحد الأطفال الذي كان بالقرب مني. حاول إصابتي، ولكن المسافة كانت كبيرة عليه. وبالكاد تمكنت قطعة الحجر من التدحرج باتجاه رؤوس أصابعي. لا أعرف ما حدث لي، وربما جاء رد فعلي هذا بسبب الحرارة التي أصابتني. شعرت باستياء كبير. أدركت أن هؤلاء الأطفال يتصرفون بغباء، ولا يعرفون أنهم مساكين مثلنا بالتمام. انحنيت لأتناول حجرة. صرخ الحارس الواقف بالقرب من عربة القطار بشيء لم أفهمه.

ـ وهذه نيابة عن والد طفلي! صرختُ ورميت الحجر على الصبي.

لحسن الحظ، لم أصبه لأنه تنحى جانباً.

أنزل الحارس سلاحه عن كتفه، وصوب ثم أطلق عياراً ناريا، مر فوق رأسي. يبدو أن بقية الحراس كانوا بانتظار تلك اللحظة لأنهم شاركوه في إطلاق النار. بنادق، رشاشات. لعلعت أصوات إطلاق النار في الساحة. نظرت حولي. اختبأ الأطفال تحت عربات القطار. نزل الحارس الذي أطلق عليَّ النار من ظهر العربة، وهرع باتجاهي وقد تورد وجهه. أدركت في تلك اللحظة حجم الخطأ الذي اقترفته. وقف أمامي. رأيت نبضات شرايين رقبته. كان يتنفس بسرعة ولكنه لم ينطق بكلمة، وكأنه يفكر بما عليه فعله. ساعدني أيها الرب! بيدين مرتجفتين، تحسست كتاب الصلوات، وأزحته من مكانه وجعلته يغطي أكبر قسم من أسفل بطني.

أنقذني تردد الحارس الذي سمع في تلك اللحظة أمراً صارماً مصدره العربة الأمامية. التفتُ، والتفتَ الحارس أيضاً باتجاه الصوت. أطل برأسه ضابط أشقر الشعر من إحدى نوافذ العربة، وأعطى الأوامر. استدار الجندي الواقف أمامي، وانطلق باتجاهه. ولكنه استدار بعد عدة خطوات وعاد باتجاهي، إلا أنه بدا لي أكثر هدوءاً. تغير لون وجهه من الوردي الذي كان عليه قِبل قليل. ضربني ببندقيته على قحفِ رأسي. أطاحني أرضاً، وعاد من

حيث أتى. النسوة الواقفات من حولي بدأن يشتمنني لأني حسب اعتقادهن تسببت في إطلاق النار عليهن جميعاً.

هرع الحراس وانتشروا بين المساجين وبدأت عملية الإحصاء. لم تتطابق نتيجة الحساب. تبين في النهاية أنهم لم يطرحوا عدد الأموات الذين أخرجناهم في الصباح من العربات. بدا كل شيء في النهاية على ما يرام. حين وقفنا في صفوفنا، جاءت اللحظة المواتية لأقول بأنني هنا بسبب خطأ، ولكني فقدت تلك الفرصة بعد الذنب الذي اقترفته.

لا أعرف من أين جاءوا بعربة خشبية مهترئة، تحمل على ظهرها حلة كبيرة يتصاعد منها البخار. بدأ جنديان بسكب الفول الساخن في راحات أيادي السجناء. ساخن ـ بارد لا يهم، بلعت الفول في ثوان تماماً كما فعل البقية.

لم يعطونا ما نشربه، وبدلاً من ذلك أحصوا عددنا من جديد، ودفعونا باتجاه عرباتنا، ثم تحرك القطار.

تسببت تلك الإقامة القصيرة في الهواء الطلق بإنعاش أحاسيسي، وفي اللحظة التي اشتممت فيها رائحة البول في العربة، بدأت عيناي تحرقاني. شعرت بعد ذلك مباشرة برغبة في الإقياء. تمكنت بصعوبة كبيرة من دس فمي في الثقب.

ـ أيتها الصبية، أنت حقيقة تنتظرين طفلاً، علينا أن نوليك اهتماماً أكبر.

مررت "آنا" يدها على وجهي وقالت:

ـ لا تزالين ساخنة.

تعرقت كثيراً في المساء بسبب ارتفاع درجة حرارتي.

توقف القطار مع إشراقة الصباح.

## شيرجي شاك!

## (طوِّل الخطوة! بالروسية)

لحسن الحظ انخفضت حرارتي قليلاً في القطار، وإلا لما كنت تمكنت من تنفيذ المسير الذي بدأنا به فور نزولنا من العربات. كنت سأسقط ميتة من الإجهاد مثل ذاك المسن الذي كان علينا المرور من فوق جسده. مشينا ربما نصف يوم، خمس أو ست ساعات من مكان توقف القطار. آلمتني قدماي فحسب. كان وزني يتنقل من اليسار إلى اليمين، ومن اليمين إلى اليسار، يسار، يمين، يمين، يسار. وبدت لي الخطوة الواحدة أصعب بكثير مما لو صعدت من بيتنا باتجاه قمة التل، وصولاً إلى قبر "ألكسي".

اخترعت فكرة رؤيتي لمكان بعيد عليّ أن أتحمل حتى أصل إليه. إلى ذلك السور اليابس حيث سأسقط حين أصل إليه وأسلم الروح. لم أفكر بشيء سوى أنهم سوف يدفنونني هنا في وسط ذلك السهل الروسي الذي لا نهاية له، وسيصبح قبر "ألكسي" مهجوراً عندنا، وقبري مهجوراً مثله هنا. توقف شعوري بالعطش، وبطعم المرارة المزعج، ولم يبق عندي شيء سوى ذلك الألم المستمر في عنق قدميّ. في اليمين وفي اليسار. يمين، يسار. متى سأسقط؟ متى سأصل إلى ذلك السور؟

تسلمت حراستنا مذ غادرنا القطار وردية جديدة من الحراس مع كلابهم التي لم تتوقف عن النباح. كنا نسير في أربعة صفوف، ونسترق النظر أحياناً من الحراس الذين بدوا لنا أقوياء أصحاء. كانوا تارة يتسلون بإشعال لفافات تبغهم، وحيناً يصرخون على السجناء، ولكنهم تابعوا السير بحيوية دون أي علامات تشير إلى إجهادهم. تأكدت أن حراسنا أقوياء، يصعب التغلب عليهم، أو تحطيمهم.

أخيراً، لمحنا من بعيد سقوف بيوت طابقية، وكلما كنا نقترب أكثر، كانت تبدو لنا المنطقة أوسع. كانت سطوح الأبنية الأمامية تخفي خلفها أبنية أخرى، وخلفها أخرى أيضاً. يمكن لأحدهم، نظراً لعدد ووساعة الأبنية، أن يظن بأننا اقتربنا من مدينة صغيرة، ولكننا تأكدنا في الحال أن الأمور ليست بهذا الشكل. كانت أبنية من طراز واحد، كما إن اللون الشاحب المقيت لا يدع مجالاً للشك بأننا اقتربنا من سجن كبير. حين ميزنا السور من أسلاكه الشائكة التي كانت متشابكة فيما بينها تشابك الحشرة في شبكة العنكبوت، بدأ بعضهم بالنحيب. أدركنا بأننا بعد وقت قصير سوف نعبر البوابة الموجودة بين برجي حراسة إلى داخل السجن، وأن آلامنا، وبالتحديد في قسمها، هذا

سوف تنتهي. لا بد أنهم سيسمحون لنا في الداخل بالجلوس وأخذ قسط من الراحة، ومع ذلك لم يكن أحد منا يتوق لذلك. كنا نخاف اللحظة التي سنصبح فيها داخل السجن، ونعرف أيضاً أن هذا المكان يمثل شيئاً في منتهى البعد عن كل ما له علاقة بالإنسان، وبالعالم العادي. كان من البعد عن الحياة الطبيعية بحيث يتعذر على إنسان موجود خلفه القول بأننا موجودون هنا.

ولكننا لم ندخل في الحال. أعطى الحراس الأمر، وكان على قافلتنا البائسة أن تتوقف على بعد عدة مئات الأمتار من البوابة. حين أحصوا عددنا من جديد، حرص هؤلاء الجنود أشد الحرص على التزامنا بالسير في أربعة صفوف مما سهل عليهم عملية الحساب وجعلها تمر بيسر. تهامسنا بأنهم الآن سوف يقسموننا إلى رجال ونساء. وما حدث في الحقيقة هو أن القسم الأمامي من الرتل المؤلف من الرجال، اتجه نحو البوابة في حين سمحوا للنساء بالجلوس لحظات على طرف الطريق. كانت أنياب الكلاب في مستوى أعيننا بالتمام.

تحركنا بعد عدة دقائق نحن أيضاً من أماكننا، ولكننا لم نسلك الطريق الذي مشى فيه الرجال نحو البوابة، بل اتجهنا نحو تقاطع طرق يلفه الغبار، ثم انعطفنا بعد ذلك نحو اليسار وتابعنا السير بمحاذاة السياج. توقعنا أننا ذاهبات إلى القسم القسم النسائي من المعسكر. استغرقنا ذلك ربع ساعة حتى وصلنا إلى هناك.

ـ دافاي، دافاي! شيريي شاك (بالروسية: هيا، هيا، طولوا الخطوة).

صرخ بنا الحراس حين اقتربنا من البوابة، وكأنهم أرادوا أن يعطوا لأحدهم انطباعاً جيداً على حسن قيادتهم للسجناء.

ولكننا لم نعد قادرات على تطويل خطواتنا، ومن ثم لم يتجاوب مع صراخ السادة إلا كلابهم التي أطلقت العنان لنباحها الشديد.

ـ ماهذا المكتوب هناك؟

سألت إحدى الألمانيات حين مررنا من تحت إحدى اللوحات الكبيرة الحمراء.

ـ العمل معيار الشرف والشجاعة ـ ترجمت إحدى الأوكرانيات.

ـ أربايت ماخت فري! (العمل يجعلك حراً) صرخت ألمانية ثانية، وراحت تضحك.

نعرها الحارس بطرف البندقية في ظهرها، ولكنها استمرت في الضحك.

لمحنا أثناء سيرنا بين الأبنية مجموعة من المسنين الهزيلين محدبي الظهور كانوا يسيرون بالقرب منا، وهم يدفعون العربات، ويكنسون، وينقلون الأقفاص. استغربت حين وجدتهم لا يرتدون ثياباً موحدة. كنت أظن حتى ذلك

الوقت أن السجناء يرتدون لباساَ موحداَ، ولكني رأيت بعضهم هنا بمعاطف شبيهة بتلك التي يرتديها الجنود الذين قاموا بحراستنا. وما أدهشني أكثر هو أنهم وضعونا بين الرجال. هل من المعقول ألا يفرقوا النساء عن الرجال؟

حين مررنا بالقرب من البيوت الأرضية التي كانوا يطلون جدرانها في تلك الأثناء، استدارت باتجاهنا إحدى تلك الخيالات الواقفة على السلم، وابتسمت بحزن، أدركت في حينها أن العجوز أحدب الظهر الذي رأيناه قبل لحظات هو امرأة. تمعنت بشكل أفضل في أشكال الآخرين الذين مررنا بالقرب منهم. كن نسوة حليقات الرؤوس يفتقرن إلى القوام الأنثوي، وبلا حياة.

# سانيتارنايا أوبرابوتكا

# (الفحص الطبي)

ساقونا إلى ساحة فارغة تتوسط الأبنية حيث توجد منصة صغيرة مسقوفة، نُصبتْ في طرفها سارية يخفق عليها علمان سوفيتيان. انتشر الحراس الذين حافظوا على نشاطهم بيننا وأعادوا ترتيبنا في أربعة صفوف. انضمت إليهم بعد ذلك حارسات مسلحات في لباسهن العسكري، وجعلن يحصين عددنا. الأرقام كانت صحيحة، وبذلك نكون قد انتقلنا إلى عهدتهن، وأصبح بإمكان الحراس المغادرة مع كلابهم بشكل نظامي. الرجلان الوحيدان اللذان بقيا معنا كانا ضابطين. صعدا إلى المنصة برفقة مجندتين.

تحدث أحدهما، وقدم نفسه بوصفه العقيد "جورافين" قائد المعسكر. كانت كلماته تنتشر عبر مكبرات الصوت الضخمة بشكل غير مفهوم يشبه الصدى، حتى إن الروس أنفسهم فهموها بصعوبة كبيرة، وهنا لا أتحدث عن الألمانيات، أو البولونيات، والسلوفاكيات. لاحظت أنه يكرر كلمة "فاسبرشتشايتسيا" التي أشار بها إلى قائمة المحظورات. استلم الضابط الثاني الميكروفون من بعده. كان شاباً طويل القامة ينبض بالرجولة، وبدا من الصرامة بحيث لم يتمكن شارباه، ولا حتى شعره الأشقر، من تخفيف حدة كلامه. فهمت بأننا هنا بسبب ارتكابنا جرائم فظيعة أثناء الحرب، والآن، لم يحن دور الرد عليها فحسب، بل يجب إعادة تأهيلنا. كنا في تلك الأثناء نموت من شدة العطش والجوع والتعب، ومع ذلك لم يكن لخطابه نهاية. تسبب الوقوف الطويل بإجهادنا وإيلامنا أكثر بكثير من السير. سقطت إحداهن في الصفوف الأمامية مغشياً عليها مباشرة أمام الخطيب. النسوة اللاتي اقتربن منها تم تفريقهن باستخدام مؤخرات بنادق الحرس. سكبوا سطل ماء على المغشية عليها، وهذا ما جعلها تعود إلى وعيها، وتنتصب على قدميها من جديد.... وهو لا يزال يخطب ويخطب، وكأنه فقد بصره، ولم يلاحظ سقوط ثانية، وثالثة من بعدها.

كنت أجهز نفسي للكلام، وإخبارهم أني وصلت إلى هنا بطريق الخطأ مباشرة بعد انتهاء الخطاب، ولكن حين توقف الضابط الشاب أخيراً عن الكلام، تقدمت إحدى المجندات من الميكروفون، ولكنها لحسن الحظ لم تخطب فينا، بل قرأت علينا بعض التعليمات. قالت إنهن سيرافقننا بالتسلسل إلى الفحص الطبي، وبعد ذلك سوف يقسمننا في مجموعات.

حين اقتادونا في مجموعات، كلّ منها من عشر سجينات. تبين لهم أن وجودنا في أربعة صفوف سوف يتسبب في مشكلات، ومن ثم يفترض أن يقسم الصف الثالث إلى قسمين. الحارسات كن يتناقشن فيما بينهن، ويصرخن أثناء ذلك على السجينات ويدفعنهن إلى أن جاءت الجندية الثانية من الواقفات على المنصة. كانت "باريشنا"(4) ضخمة عبوساً، بشفاه غليظة مغلقة بإحكام، وجديلتين طويلتين تتدليان من خلف أذنيها. تمكنت بعد إصدارها عدة أوامر، أو بالأحرى عدة صيحات، من إعادة الأمور إلى نصابها.

دخلنا إلى بناء من طابق واحد حيث أُمرنا مباشرة بخلع ملابسنا. تأسفت كثيراً لأني بذلك سوف أفقد كتاب الصلوات. كان من المستحيل تخيل عصيان الأوامر، أو انتظار من يعفيني من ذلك.

تسلمت كل واحدة منا قطعة صابون، أُمرنا بعدها بالذهاب إلى تحت الدش. استدارت فجأة إحدى الألمانيات، وبعيون خائفة هرعت هاربة من المعبر إلى الخارج. لحقت بها إحدى الحارسات وبيدها قبضة الفأس.

لم نبدأ بالطبع في الحال باستخدام الصابون والاستحمام. كان علينا في بادىء الأمر إطفاء عطشنا بشرب الماء الفاتر، وبالرغم من ذلك كنا بين الفينة والأخرى أثناء الاستحمام نرشف بعضاً منه لأننا لم نكن نعرف متى سنتمكن من الوصول إليه من جديد. حين خرجنا من مكان الاستحمام رأيناهم يدفعون الألمانية التي حاولت الفرار إلى الداخل. كان وجهها مصبوغاً بالدم، كما ظهرت بقع حمراء على ساقيها وظهرها.

لم يعطونا مناشف، لذا حين انتقلنا إلى غرفة أخرى كان الماء يقطر من أجسادنا. وقفت هناك مجموعة من النساء اللاتي بدا عليهن شكل سجينات قديمات "زتشكي"(5)، وقد أمسكن بإيديهن مقصات، وشفرات حلاقة. قمن من خلال حركات سريعة بقص شعر السجينات، وحلق ما تحت إبطهن، وأسفل بطونهن. خرجت كل واحدة منهن من هناك والدم ينقط منها. خفت ألا تتسبب إحداهن أثناء عملها في إيذاء طفلي.

حين جاء دوري، أمسكت بأسفل بطني، وهمست:

ـ بحذر، أرجوك، إنني أنتظر طفلاً.

ابتسمت الحلاقة العابسة، وقالت بالروسية:

ـ لا تخافي أيتها الأم.

وللحقيقة، انتبهت، وتصرفت معي بحذر على عكس مافعلته مع باقي السجينات.

إن فقدان الشعر يشبه فقدان جزء من الذات. لقد أصبحت إحدانا تشبه الأخرى، وهذا ما أدركته حلاقاتنا لأن إحداهن قالت لنا بسخرية مفرطة: لقد أصبحتن مثلنا "زتشكي".

أرسلونا، ونحن لا نزال عاريات إلى غرفة أخرى، حيث توجد طاولة وامرأتان بلباسهما العسكري. أمرتني إحداهن أن أحني ظهري وأتمسك بالطاولة. نفذت الأمر. تم فحص الشرج، والمهبل بسرعة كبيرة حتى أني لم أتمكن من طلب توخي الحذر. تجمدت من شدة خوفي، ولكن حين أصبح كل شيء ورائي.

دفعوني بعد ذلك إلى قاعة كبيرة، حيث جلست بعض النسوة والرجال بمعاطفهم البيضاء خلف طاولة طويلة. كانت برفقتهم الآمرة الضخمة التي سبق أن رأيتها حين أعادت الأمور إلى نصابها أثناء توزيعنا إلى مجموعات، وكانت الوحيدة بينهم بلباسها العسكري. أمرتني إحداهن من اللاتي يرتدين معطفاً أبيض بالبقاء واقفة بالقرب من الباب، بينما وقفت سجينة كانت قد دخلت قبلي في منتصف الغرفة. كانت "آنا".

ـ إيميا؟! (الإسم بالروسية) صرخوا عليها.

ـ آنا شنايدر.

بدأوا يفتشون في الأوراق إلى أن وجدوا ملفها.

بدأ الرجل ذو النظارات بتقليب الصفحات لحظة ثم قال:

ـ واحد وخمسون سنة، لديها من القوة ما يكفي، ستلتحقين بالسادسة.

ـ ما رأيك يا إيفان بافلوفتش؟ قالت الآمرة التي بدت منزعجة من القرار. ـ إنها معاقة! ولا تحتمل العمل بدوام كامل!

ـ ستلتحق بالسادسة ـ كرر الرجل كلامه.

همهمت الآمرة شيئاً، وبدا الأمر وكأنها وافقت على قراره.

فهمت من خلال الحديث أنهم في هذه الغرفة يقومون بتشكيل مجموعات، وأهم كلمة سمعتها كانت: الأهلية للعمل. لم أفهم السبب الذي جعلهم يوزعوننا في مجموعات، وأن كل شيء يعتمد على هذا التوزيع. وصلت تماماً كما وصلت الألمانية العجوز إلى السادسة. هذا ما اقترحته بصرامة الجندية ذات اللباس العسكري.

عبرنا إلى الغرفة التالية. كان هناك صف من الطاولات التي وضعت عليها البياضات الداخلية إضافة إلى ملابس السجن، وغير ذلك من الأشياء. معطف قطني طويل، قفازات صوفية ـ تسمح بحركة الإبهام فحسب ـ سوداء، وبنية مصنوعة من اللباد، خرق سميكة للساقين، كأس ماءٍ، صحن، وملعقة. حملنا

كل هذه الأشياء بين ذراعينا. كان من المفروض أن أتسلم من الطاولة قبل الأخيرة سروالاً قطنياً أو تنورة سميكة، ولكنهم أنهوا توزيع ما لديهم قبل قليل. ثلاث نساء قبلي لم يتسلمن أيضاً. انتظرنا حتى أحضرت سجينتان كومة من التنانير، كانت هي ذاتها التي خلعناها في الغرفة الأولى، حتى إن قلبي قفز من مكانه حين تعرفت بين تلك الأشياء على تنورة والدتي الزرقاء الغامقة. كنت أعرف أنها الآن ستكون وسخة من الغبار والطين، ولكنني أملتُ استعادة كتاب الصلوات من جيبها الداخلي. وضعت السجينة كومة الثياب على الطاولة. كان واضحاً أن أملي ضعيف في الوصول إلى تنورتي حسب التسلسل، كما إن تعابير وجه المرأة التي كانت توزع التنانير، لم يوح بأنها ستنفذ رغبتي. اضطررت إلى التحايل للوصول إلى مرادي. حين جاء دوري تقدمت بجرأة نحو الطاولة ويداي مليئتان بالأشياء التي تسلمتها من قبل. قمت بحركة سريعة جعلتني أتعثر وأقع فوق كومة التنانير التي سقطت كمية كبيرة منها على الأرض. بدأت بالاعتذار. صرخت المرأة، ولكني كنت قد ركعت تحت الطاولة وجعلت أرفع التنانير بأدب، وأكدسها على الطاولة. حين وصلت تنورتي الزرقاء الغامقة إلى يدي، دسستها بين المعطف والقفازات، وأحسست في الحال أن كتاب الصلوات لا يزال في داخلها. نهضت من مكاني ولكن المرأة الغاضبة وضعت فوق كومة أشيائي التي كنت أحملها تنورة ثانية.

ـ لقد أخذت واحدة ـ اعترفت لها.

لحسن الحظ لم تفهم ما قلته، وصرخت في وجهي:

ـ تحركي!

همست السجينة التي كانت بعدي في أذني وهي تبتسم:

ـ تنّورتان، أيتها المحظوظة!

وصلنا بعد ذلك إلى طاولة الأحذية حيث تسلمتُ حذاء مطاطياً كبيراً. حين رجوت منحي نمرة أصغر، لم يستجبن لرغبتي مما أثار قهقهة بين السجينات القديمات.

# لاكبونكت

# (القسم المنعزل من المعسكر)

"لاكبونكت" السادس كان بعيداً عن المعسكر الرئيسي. أمضت سيارة النقل ساعة ونصف لحين الوصول إليه. شعرنا أن الناقلة تتحرك صعوداً طوال الوقت في طريق مليء بالمنعطفات والمطبات. تسرب إلينا هواء جبلي قارص محملاً برائحة رطوبة أشجار الصنوبر وعبير عشب ربيعي من تحت الغطاء. كنا خمس عشرة امرأة، في حين بقيت الأخريات من المُرحلات في المعسكر الرئيسي.

ـ الشيء المؤكد والوحيد هو أنهم لا يريدون إطلاق النار علينا ـ قالت "آنا".

ـ إنهم على الأغلب لا يقتلونا بإطلاق الرصاص علينا لأنهم يستمتعون أكثر برؤيتنا ونحن نموت في العمل ـ أكدت الأوكرانية الضخمة التي جلست بجوارنا.

أطلقت السيارة زموراً قوياً ودارت بسرعة، ثم توقفت. رفع الحراس عنا الغطاء الخلفي، وفكوا السلاسل عن حاجز السيارة الجانبي.

ـ انزلن، انزلن ـ صرخوا بنا.

ها قد وصلنا. ما الذي ينتظرنا هنا؟ نظرنا حولنا باستغراب، ولكننا لم نشاهد الكثير بسبب الظلام الدامس الذي أحاط بنا. توقفت الناقلة أمام بوابة حديدية مثبتة على سياج من الأسلاك الشائكة ودوائر خشبية، كما انتصب في كل جهة منها برج حراسة فارغ. انتشرت من هناك أضواء عاكسة قوية، كما ثبتت فوق البوابة لوحة كتب عليها ذات الشعارات الموجودة في المعسكر الرئيسي. حين عبرنا البوابة الأولى وجدنا أنفسنا في ممر ضيق مسيج يؤدي إلى الطرف الثاني، حيث توجد بوابة أخرى تتوسط برجين محروسين، على عكس البوابة الأولى. كان الثلج الأبيض القديم ينتشر في كومات مخروطية على أرض واسعة.

وجدنا خلف البوابة الثانية عدة أبنية من طابق واحد تطل على باحة صغيرة، حيث أمرنا بالوقوف هناك في صفين. وبسبب التكرار المستمر للأوامر تعلمت أن كلمة "رازفوز" الروسية تعني الانتظام في صفوف. وقفت أمامنا جندية ضخمة بجديلتين طويلتين، وهي ذاتها التي تذكرنا صرامتها من المعسكر الرئيسي. أخبرتنا بأن "لاكبونكت" السادس يعمل طبقاً للمعايير والخطط التي قامت هي نفسها بترتيبها، وإنها تحظى بالدعم الكامل من

قيادة المعسكر الرئيسي لتنفيذ تجربتها العملية ـ التأهيلية، ومن ثم فإنها لن تسمح لأحد بإجهاض مشروعها، وأضافت بأننا سوف نتأكد مباشرة في الغد بأن من يعمل بجد، يمكنه أن يأكل بشكل جيد، وربما سيعيش اللحظة التي ستخفض فيها محكوميته. بدا لي أنها ركزت بشكل ساخر على كلمة سيعيش.

ساقونا بعد ذلك وهم يصرخون بنا إلى أحد البيوت الخشبية الأرضية التي شعرنا فور دخولنا إليها بصعوبة في التنفس. هواء ثقيل خانق، معبأ بالبخار، غلبت عليه رائحة عفونة البطاطا والملفوف الحامض. جُهزت هناك طاولتان ضيقتان طويلتان وضعت حولهما مقاعد أضيق بكثير، ربما تستوعب ثمانين شخصاً دفعة واحدة، بينما عُزلت طاولة الحُراس بستارة قماشية.

تضرعت إلى الرب ورجوته أن يعطونا شيئاً نأكله، كما تمنت بقية النسوة الشيء ذاته لأنهن كن يتطلعن باحثات عن المكان الذي سيحضرون لنا منه الطعام. أمرتنا المشرفات أن نضع على إحدى الطاولتين المناشف التي صررنا فيها الأشياء التي وزعوها علينا في المعسكر الرئيسي، والاكتفاء بأخذ الملعقة والكأس، ومطبقية الأكل. اكتشفت أني فقدت ملعقتي. حدث ذلك على الأغلب حين سقطت تنورتي على الأرض.

فُتحت أخيراً نافذة صغيرة من أحد الجدران، أطل منها طبق يتصاعد منه البخار.

ـ هيا، هيا ـ أمرتنا المشرفات بالتحرك نحو النافذة.

لم يكنَّ مضطرات لدفعنا إلى هناك، لأننا هرعنا وحدنا.

سكبوا لنا من ملعقة كبيرة حساء رمادياً في المطبقية، وشاياً خفيفاً في الكأس. كلاهما كانا يغليان.

طلبت من "آنا" إعارتي ملعقتها فور انتهائها من الأكل، وجعلت أرشف الشاي الساخن من الكأس. بلعت "آنا" بسرعة كبيرة القطع الكثيفة التي كانت تسبح فوق سطح الحساء، وهيأت نفسها لشرب ما تبقى منه كي تتمكن من إعارتي ملعقتها، وبالرغم من ذلك لم يسعفنا الوقت.

ـ وقوف، سنذهب! صرخت الحارسات.

النسوة اللاتي حاولن إنهاء وجبتهن بسرعة، تلقين ضربات على أكتافهن. فضلُت الوقوف. حملت أشيائي بيد، وشوربتي باليد الثانية، وهرعت خارجة، ولكن الحارسة الواقفة بمحاذاة الباب، ضربت مطبقيتي بعصاها الخشبية مما تسبب في انسكاب الأكل على الثلج.

انتظمت السجينات الأقدم منا في صفوف أمام المطعم بانتظار "رازفوز" (الانتظام)، المسائي بينما وقفنا نحن المستجدات في طرف الساحة. حين انتهوا من العد، صعدت الرئيسة الصارمة على المنصة، وأعلنت عن انضمام سجينات جديدات إلى المجموعة. بدأت في قراءة الأسماء من ورقة أمسكتها في يدها.

اسمي كان الأول:

ـ سوزانا لافكوفنا، المجموعة الرابعة!

عبرت رأسي فكرة استغلال تلك اللحظة المناسبة. سرت باتجاه الآمرة، وقلت بسرعة:

ـ أنا سوزانا لاوكوفا، أريد أخباركم بأني هنا بالخطأ، لأني...

لم أتمكن من إكمال الجملة لأني تأوهت من الألم الذي أصابني من ضربة على كتفي. بعض السجينات ضحكن من المشهد. دفعتني السجانة بطرف بندقيتها باتجاه إحدى الصفوف المنتظمة. مشيت أمامها، ولكني لم أعرف الصف الذي عليّ الانضمام إليه إلى أن قامت سجانة أخرى بدفعي وركلي وهي تشتمني إلى أن وصلت إلى الصف الأخير. لحسن الحظ، فرزوا "آنا شنايدر" من بين المستجدات إلى المجموعة الرابعة.

تم تقسيم السجينات في "اللاكبونكت" السادس إلى أربع مجموعات، بحيث تسكن كل مجموعة في بناء منعزل يحتوي على أسرّة خشبية طابقية. كان بانتظاري مع "آنا" عارضتان خشبيتان موجودتان أمام الباب بالقرب من "الباراشي"، وهذا يعني بالقرب من الطبق الذي يستخدم في الليل كمرحاض وقد انتشرت منه رائحة كريهة تجبر الإنسان على التقيؤ. ولكني لم أتقيأ لأن معدتي كانت فارغة ولا يوجد فيها ما أتقيؤه. أصرت "آنا" على النوم في القسم العلوي لأني حامل، والصعود والنزول حسب زعمها يضر بصحتي. وافقت على اقتراحها لأني لم أكن أملك القوة ولا حتى الرغبة بالرفض. كان لدى بعض السجينات وسادات عادية أو وسادات من القش، بينما لم يكن لدينا سوى ما يمكننا تغطية أجسامنا به. كانت بانتظارنا بطانيات ثقيلة تنشر رائحة عفنة معلقة على العوارض الخشبية.

انطفأ الضوء بعد سماعنا صوت صفارة النوم، وبالرغم من وجود برميلين كبيرين بعيدين يحترق فيهما الخشب إلا أن الجو في المهجع كان بارداً. استلقيت في معطفي أسوة ببقية النسوة. لم أشعر على الأقل بخشونة سطح اللوح الخشبي، كما أني لم أشعر أيضاً بالحاجة إلى وسادة حقيقية لأني وضعت القفازات والأربطة تحت رأسي. الأمر الأسوأ كان التعاطي مع مشكلة الجوع. بدأ بطني بإطلاق صرخات قوية متوحشة جعلتني أشعر

يتقلب أمعائي. ظننت في البداية أني سوف "أسقطَ" الجنين، ولكني تأكدت أن مصدر أوجاعي يكمن في القسم الأعلى من بطني، من معدتي، وأن الجنين لا علاقة له بالأمر.

انقلبت على بطني، وطويت ركبتي تحتي. حين كنت أصلي في البيت بهذه الطريقة كانت والدتي تغضب مني، وتقول لي: المسلمون يركعون بهذه الطريقة، ولكن المسيحيين الكاثوليك يصلون بطريقة أخرى.

لم أجد سبباً يدعوني إلى فتح كتاب الصلوات لأني لن أتمكن من رؤية أي شيء بسبب الظلام الحالك، وبالرغم من ذلك وضعته بين كفيَّ بدلاً من السبحة، ورحت أتلو الصلوات التي أعرفها عن ظهر قلب ـ أبانا الذي، إضافة إلى الصلاة على روح والدي. تلك كانت عندي في غاية الأهمية، لأنها مكنتني من تذكر "ألكسي"، وتخيل والدي المرحوم الذي لم أعرفه، والأهم من هذا وذاك طفلي الذي أحمله وهو ينمو في داخلي.

ـ "آنا" هل أنت نائمة؟ وشوشت.

ـ لا.

ـ كيف كانت الشوربة؟ سألتها.

ـ ساخنة.

ـ وماذا عن مذاقها؟

ـ ابتسمت "آنا" وقالت:

ـ لا أعرف، كنت جائعة، ولم أتذوق طعمها.

نهضت من بين إحدى الألواح الخشبية امرأة لم نتمكن التعرف عليها في العتمة وسارت باتجاهنا. ضربتني بقبضة يدها على وجهي في البداية، وضربت " آنا" بعد ذلك. لم تنطق بكلمة واحدة، وعادت إلى مكانها. أدركت هنا أن من واجبي التزام الصمت بعد إطفاء النور.

# فور فزاكوني

# (لص حسب القانون بالروسية)

لم أتمكن من النوم في الليلة الأولى إلا قليلاً بالرغم من تعبي الشديد. أزعجتني في البداية تشنجات الجوع، ومن ثم تيار الهواء الذي كان يمر فوق رأسي مما اضطرني لارتداء قبعتي، وحين غفون في نهاية الأمر، أيقظني من جديد صوت تبول النسوة الذي تبعه صوت جرس الاستيقاظ. فُتح الباب في تلك اللحظة واندفعت المشرفة بسرعة إلى الداخل وبيدها قضيب.

ـ باديوم! باديوم! (هيا بنا) ـ صرخت بنا وهي تضربنا على أقدامنا.

دبت الحركة في المهجع. قامت سجينتان بحمل "الباراشي"، وغيرهما أفرغن الرماد من برميل التدفئة. لم أعرف ماذا أفعل بكتاب الصلوات. لاحظت أن السجينات القديمات "زتشكي" ينقلن معهن حوائجهن الخاصة إلى الخارج، ولا يتركن شيئاً على دفوف الخشب. جمعت أغراضي في المنشفة ولحقت بهن برفقة "آنا". اكتشفنا أن المسكينات يخفين خلال النهار ممتلكاتهن في أكياس كبيرة موجودة في مستودع الحاجيات الخاصة، ويسترجعنها في المساء بعد فتح المستودع. نحن أيضاً تسلمنا كيسين ولكن أحدهما وهو كيس "آنا" كان مثقوباً، لذا قامت بوضع أملاكها في كيسي.

فشلت في إيجاد مخبأ آمن لكتاب الصلوات. إن أشياء كتلك تعتبر هنا بالتأكيد من الممنوعات. كان بإمكاني الاحتفاظ به في جيبي، ولكن ماذا لو قاموا بتفتيشنا؟ لذا قررت إخفاءه في مكان آمن ومجرب من قبل، في تنورتي. كانت "آنا" أثناء ذلك تراقبني.

ـ احذري، حتى أولئك النسوة الموجودات معنا من المفروض ألا يعرفن كل شيء ـ همست.

أسرعت غالبية النسوة إلى المراحيض حيث تشكل هناك طابور طويل، وقفت مع "آنا" في نهايته. جاءتنا بعد لحظات سجينة قديمة وأخبرتنا أن وقوفنا لا معنى له لأننا بذلك لن نجد مكاناً في طابور الفطور.

ـ بسبب الخراء سوف تضيعان فرصة الحصول على الخبز.

وهذا ما حصل، إذ قامت المشرفة بصف مجموعتنا، وإحصاء عددنا ثم ساقتنا بعد ذلك لتناول الفطور. كان توزيع الطعام يتم بالتسلسل. مجموعتان في البداية وبعد ذلك: مجموعتان.

لم أكن بحاجة إلى ملعقة لأنهم سكبوا لنا في الكؤوس سائلاً أصفر اللون مائلاً إلى الخضرة، وفي المطبقيات شوربة شاحبة اللون تطفو على سطحها قطعة من الخبز الأسود. الشوربة كانت شديدة مالحة، وهذا هو الطعم الوحيد الذي يمكن تذوقه فيها، ولكني حين غمست قطعة الخبز في المطبقية بعد جوع استمر أياماً، شعرت بلذة كبيرة. غالبيتهن كن يبلعن الشوربة وحدها، ويخفين قطعة الخبز في معاطفهن.

اصطادت "آنا" من مطبقيتها قطعة سمك، أعطتني إياها:

ـ لا أعرف ماذا تسمونه بالسلوفاكية، قالت، ولكنه "هارينك" في لغتنا.

لم أرغب في قبولها، ولكن "آنا" رمتها في مطبقيتي، وغطت مطبقيتها بيدها.

أطلقت السجينات على السائل الموجود في الكأس اسم "خفويا". لم أشرب سوى نصف الكمية لأني وجدته مقرفاً، شديد المرار، ولكني انتبهت إلى أن بعض السجينات كن يخفين السكر في جيوبهن، ويضيفنه إلى كؤوسهن.

جاء بعد الفطور مباشرة وقت الاجتماع الصباحي. انتظمنا في صفوف حيث قاموا بإحصاء عددنا. حصل أثناء ذلك صدام ومشادة بين السجينات المحكومات من المجموعة الثانية. تم تزويدنا مباشرة بعد إنتهاء الاجتماع بالفؤوس والمناشير.

خرجنا إلى الغابة في صفين عبر طريق تغطيه الثلوج، ولكن الأشجار اختفت بعد دقائق. تابعنا السير في طريق الأحزان، حيث امتلأت الأرض أمامنا بما تبقى من سيقان الأشجار المقطوعة التي صُفت واحدة تلو الأخرى بالقرب من الرصيف مثل غنائم الصيد، وكُوّم ما تبقى من أغصانها الكبيرة على مسافة قريبة منها، وَرُميتْ خلفها بقية الأغصان الرفيعة. حين وصلنا إلى الأشجار التي لم تمتد إليها الفؤوس من قبل، وزعتنا المشرفات: كل سجينتن على شجرة.

كان نصيبي مع أوكرانية طويلة القامة، اسمها "ناتاشا". لم أتمكن من تقدير عمرها لأن غالبية النسوة هنا متشابهات، ويصعب تقدير أعمارهن من وجوههن التي كانت تغطيها التجاعيد، إضافة إلى هبوط زوايا أفواههن، وتبقع بشرتهن تحت عيونهن.

ـ اشكري ربك لأنك وصلت إلى هنا ـ قالت لي أثناء الاستراحة بعد نشرنا أول شجرة.

نظرت إليها دون أن أفهم ما تقصده.

ـ لو أنك بقيت في الأسفل في "زونا" لاغتصبك الرجال مباشرة من الليلة الأولى، ولسرقت الـ " زتشكي" كل ما تملكينه. الوضع عندنا في "أرتك" أفضل، وكل ذلك بفضل "إرينا".

ـ من منهن "إرينا"؟ ـ نظرت إلى جميع السجينات.

وقع نظري على الرئيسة الضخمة التي انتبهت لتوقفنا عن العمل. رأيتها تتحرك بخطوات سريعة باتجاهنا وجديلتاها الطويلتان تتراقصان فوق مؤخرتها مثل ذيل الفرس.

ـ هي، الملازم "إرينا ميخايلوفنا" ـ همست "ناتاشا".

لم تبرح الرئيسة مكانها بعد ذلك، وبقيت واقفة بالقرب منا، وهذا ما جعلنا نعمل ساعتين كاملتين دون توقف. نبهتنا بعد فترة لنعمل بشكل أسرع. أحسسنا بالدفء مع ارتفاع قرص الشمس مما جعلني أفُك أزرار معطفي، ولكن فعلتي تلك جعلتني أتلقى ضربة قوية من الرئيسة على ظهري. حين تركتنا في نهاية الأمر، ركعت "ناتاشا" على ركبتيها من شدة الإعياء.

ـ أنت السبب في مجيئها إلينا. عليك توخي الحذر في المرة القادمة حين تتوقفين عن العمل، كي لا يروك، ـ نبهتني. ـ لو كانت "سوكا" في مكاني لكانت ضربتك وكسرت فكك.

ـ من هن الـ "سوكي"؟

ـ "سوكي"، ألا تعرفين، كلبات، أوكري... مجرمات.

بدأنا بنشر أكبر غصن من الشجرة التي أوقعناها.

ـ من منهن "سوكا"؟

ـ مثلاً، الاثنتان الواقفتان هناك، "تانيا" و"يلينا" ـ أشارت "ناتاشا" إليهما برأسها.- وكذلك "بسنكا". تلك، حين تغضب، لا تتورع عن ضرب كل من حولها إلى أن تتمكن الحراسة من ضربها بشيء على رأسها.

شعرت بالنمل يسري في ظهري. وبالرغم من أن وجوه بعض الألمانيات أثناء نقلنا كانت تفضح شيئاً من ماضيهن، إلا أن فكرة جنونية عبرت مخيلتي حين تصورتهن واقفات هنا بالقرب منا، وبأيديهن فؤوسهن مثل مجرمات حقيقيات. كانت فكرتي عن "تانيا" مختلفة نوعاً ما لأني انتبهت إلى أنها تضع في المهجع صليباً كبيراً من التنك حول رقبتها. جهزت نفسي لأقترح عليها ما إذا كانت ترغب في مشاركتي الصلاة، ولكني لم أتمكن من إبعاد نظري عن "بسنكا". تخيلتها كيف تقطع الشجر بشهية، برغبة قوية في الأذى والكسر دون أن تغيب تكشيرتها المجنونة عن تعابير وجهها.

ـ وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا؟ سألت بعد لحظات.

طوت "ناتاشا" كمَّ معطفها وأرتني وشماً لصليب كبير. لم أعرف قراءة كلمات الوشم بالأحرف الأزبوكية.

ـ "جريمة حسب القانون ـ قالت لي بفخر، وأضافت: لو أني رفضت العمل فإن "إرينا" على استعداد لتركي أموت جوعاً. إنها قاسية، ولا ترحم في هذا الشأن.

لم أفهم كلام "ناتاشا" ولكن شيئاً واحداً بدا لي في غاية الوضوح، وهو أن الوشم الموجود على ساعدها لا يعني بالضرورة أنها ستوافق على مشاركتي الصلاة.

ـ وماذا عن الاثنتين هناك؟ أشرت إلى امرأتين متقدمتين في السن كانتا تتعاملان مع المنشار بصعوبة كبيرة.

ـ "كونتريكس"، مجرمتان بحق الشعب، ـ لوحت "ناتاشا" بيدها ساخرة.

ـ مجرمات؟ ـ سألتها مندهشة. ـ وهل قتلن أحد؟

ـ وكيف لهن! "ليزافيتا" وهي تلك في القبعة التي تغطي أذنيها، إرهابية محسوبة على التروتسكيين. وتلك في القبعة البنية، واسمها "أكافيا"، كانت متزوجة من قس، أطلقوا عليه النار، وأرسلوها إلى هنا.

وبالرغم من احتواء مجموعتنا على العديد من السارقات والمحتالات والمومسات، إلا أني بدأت أفهم من حديث "ناتاشا" أن غالبية النسوة هنا لسن سجينات بسبب جرائم محددة، ولكن بسبب قومياتهن. أوكرانيات، تاتاريات، بولونيات، جنديات في الجيش الأحمر، وقعن في الأسر عند الألمان وتم تحريرهن، وبالطبع إضافة إلى أسيرات حرب المانيات. لم أكن أنتمي إلى أي أقلية عرقية أو إلى الأعداء، لأن تشيكوسلوفاكيا لم تحارب الاتحاد السوفيتي، وهذا الأمر زاد من أملي في إطلاق سراحي فيما لو وجد ذلك الإنسان الذي سيرأف لحالي ويراجع قراءة ملفي.

نزعنا معاطفنا بعد الظهيرة بسبب الحرارة التي شعرنا بها من أشعة الشمس. حين سحبت "ناتاشا" من جيب معطفها قطعة الخبز، سألتها عن موعد طعام الغداء. ابتسمت وقالت: في "أرتك"، وهذا اسم معسكرنا الصغير، يوجد فطور وعشاء فحسب، وبدلاً من طعام الغذاء يقدمون لنا قطعة الخبز تلك. بدأت أشعر مع اقتراب المساء بتشنجات في معدتي جعلتني أكور ظهري وأمسك بطني. رأتني الحارسة في إحدى المرات، وكان نصيبي ضربة من طرف البندقية. كنت بحاجة لآكل عن شخصين، ولكني لم أحصل على الأكل حتى لأحدهما.

اكتشفت في ذلك المساء السبب الذي جعلهم يطلقون على إحدى المجرمات لقب "بسنكا"، وذلك حين جاءت إلى "آنا" بعد إطفاء النور

وسحبتها إلى مكان ما. حين حاولت منعها، تلقيت ضربة على وجهي وإلى أن أفقت من الضربة كانت قد أوصلت "آنا" إلى مكان نومها فوق اللوح الخشبي.

ـ هيا أيتها العجوز، أسمعي بسنكا أغنية! أمرتها.

ـ بسنكا؟ ـ لم تفهم "آنا".

ـ نعم، بسنكا!

ولتؤكد "بسنكا" رغبتها في سماع أغنية، رفست "آنا" بقدمها على فخذها بلطف.

بدأت "آنا" بالغناء. صمتنا جميعاً وأنصتنا بانتباه. كانت أغنيتها البطيئة الألمانية، شديدة الشبه بما تغنيه الأمهات قبل نوم الأطفال. لم أصدق أن تلك المرأة البسيطة التي لا تثير انتباه أحد، تملك صوتاً ملائكياً شبيهاً بذاك الآتي من عالم آخر، من بلد الحكايات البريئة حيث الدفء والوداعة والحميمية. هذا على الأقل ما شعرت به. ربما جاء ذلك من حبي لـ "آنا" ولبساطتها. نساء أخريات كان لديهن شعور مختلف لأننا سمعنا من الجهة المعاكسة، حيث تستلقي جنديات سابقات، صرخات إدانة واعتراض. كن يشتمن قائلات بأنهن لم يشاركن أربع سنوات في الحرب كي يسمعن الآن أغنيات ألمانية.

# بوتشتوفي ياشتشيك

# (علبة البريد بالروسية)

وصلت سيارة بعد عدة أيام إلى "لاكبونكت" السادس. نزل منها الضابط الذي تذكرته من الـ "زونا" (المعسكر الرئيسي) حين وقف على المنصة بجانب "جورافين". تلازم وصوله مع وقت التجمع المسائي.

ـ انتباه: أمرت "إرينا" وهرعت مسرعة باتجاه السيارة كي تقدم التحية.

حدث همس في صفوف السجينات يشير إلى حدوث شيء مزعج. تبوأ الكابتن "بيوتر بافلوفيتش ليبديف ـ رانكوف "منصب "بوليتروك"(6) المعسكر بأكمله.إن مجيئه في ذلك الوقت، لا يبشر بالخير حسب قول السجينات، ويؤكد في أفضل الاحتمالات إلى أن الإجتماع المسائي سوف يُمدد ربع ساعة إضافية، لأن "ليبديف ـ رانكوف" سوف يتحفنا بخطبة، وهذا بالتحديد سبب حضوره الآن. لقد جاء بسبب السجينات المعاقبات الجديدات، وكي يخبرنا في الحال وفي بداية خطابه أن إنسانية الأفكار الشيوعية هي الضمانة للتصرف بطريقة إنسانية.

الشاربان الشقراوان جعلا "ليبديف ـ رانكوف" يبدو شاباً صغيراً. حين وقف بجوار"إرينا" ظهرا وكأنهما إبن مع والدته. بالطبع كانت الرئيسة تتطلع إليه بكثير من الاحترام والإعجاب اللذين لا يتناسبان مع علاقة الرئيس بالمرؤوس بل يفضحان غراماً خفياً. وللحقيقة يجب القول إن الكابتن بدا بالرغم من كل شيء رجلاً جميلاً بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معنى.

أنهى "بوليتروك" خطبته بالقول: باستطاعة أية سجينة أن تتحدث، وتعبر عن رأيها إذا اعتبرت ذلك ضرورياً، أو إذا كانت تعاني من مشكلة لم يتم حلها. ارتفعت بالقرب مني إحدى الأيدي.

ـ كوليكوفا، إذا كنت تريدين إقناعي بأنك غير مذنبة، وبأنك لم تساهمي في النشاط التروتسكي الإرهابي المضاد للثورة، فمن الأفضل لك ألا تبدأي الكلام ـ قال لها "ليبديف ـ رانكوف" في الحال، وهو يتبادل النظرات اللطيفة مع "إرينا".

أنزلت "كوليكوفا" يدها ببطء. طلبت امرأة أخرى الكلام. سألت الـ "بوليتروك" أن يخصصوا الصحف لكل مجموعة على حدة كي يتم تعريف السجينات بالانتصارات التي يحققها الجيش الأحمر. وافق "بوليتروك" على

الفكرة، ولكنه سأل عن الشخص الذي سيدفع ثمن الجرائد. لم يجبه أحد على سؤاله.

تجرأت ورفعت يدي. ناداني "ليبيديف ـ رانكوف" لأمثل أمامه وأخبره بما أريد. أخبرته بأني وصلت إلى هنا بسبب حدوث سوء تفاهم، كوني لم أقترف أي ذنب، حتى إنهم لم يعرفوا إسمي حين جرت محاكمتي. رد "ليبيديف" بأني أشرت بكلامي إلى المشكلة التي تعاني منها غالبية المحكومات، وأضاف: إن التأكيد على عدم ارتكاب الخطأ يعني بأننا لا ندرك على الدوام ما هو سيء وما هو جيد خلال فترة التحول التاريخي، مما يهيء الظروف لحدوث الثورة المضادة. رغبت المتابعة في الشرح ولكنه صرخ وأجبرني على السكوت. وعد بمراجعة إضبارتي، وكدليل على حسن نيته، دوّن اسمي في دفتره الصغير الذي سحبه من جيب معطفه الداخلي. طلبت "إرينا" الكلمة من الـ "بوليتروك". اقترحت أن يوافق الكابتن على سجني في الـ "كارتسير"(7) إذا ثبت عدم صحة أقوالي، إذ لا يمكن لأحد إضاعة وقت الكابتن ويبقى دون عقاب، وأضافت: حتى المحكومات يرغبن في الراحة.

شعرت أن كلامي لقي استحساناً عند بعض السجينات القديمات.

ـ سوف تذهبين في صندوق الرسائل ـ قالت لي "ناتاشا" في المساء ونقرت على جبهتها وأضافت: اعملي حسابك بأنهم سوف يفحصونك شخصياً قبل أن يسجنوك!

حتى "آنا" كانت متأكدة من معاقبتي بدلاً من إطلاق سراحي، لأنها في نهاية الأمر كانت مثلي غير مذنبة، ولكنها على عكسي، لم تطلب أي نوع من العدالة. لذلك قمنا للمزيد من الخيطة بتبديل تنورتينا، وبذلك أكون قد أعطيت "آنا" مهمة الاعتناء بكتاب الصلوات.

لم يكلف "ليبيديف ـ رانكوف" نفسه عناء الحضور في الأيام القليلة اللاحقة، لاسيما وأن مصير إنسانة سجينة لم يكن يعنيه في شيء. وهل يهتم إذا أرسلوني إلى البيت أو إلى الـ "كارتسير"؟، وهكذا قمت من جديد مع "آنا" بتبديل تنورتينا.

اقترب الربيع، وبدأ الثلج بالذوبان، وجعل يمر من تحت أقدامنا في الجداول. كان الثلج يذوب علىالرصيف الذي تسير عليه مجموعتنا في الغابة في النهار، ولكنه يعود ليتجلد مع إشراقة الصباح بالرغم من العشب الذي نرميه على الأرض ونحن في طريق عودتنا في المساء. كنا نسقط على الثلج كما يسقط الإجاص العفن من أغصان الشجر. كنت أمسك أسفل بطني بكلتا يدي أثناء سيري كي لا أتسبب في إيذاء الطفل.

## بِريمنايا

## (حامل بالروسية)

أول أيار، عيد العمال، احتفلنا به أثناء وردية مسائية. عدنا أدراجنا بعد العشاء إلى الغابة حيث توجب علينا العمل تماماً كما عملنا خلال النهار، وبالرغم من مضاعفة الحراسة إلا أن مراقبتنا في عتمة الليل كانت في منتهى الصعوبة. قالت البولونية "جوفكا" التي وصلت إلى المعسكر وهي في سن السابعة عشرة من عام ألف وتسعماية تسعة وثلاثين: إن تلك الورديات الليلية في الأسفل في "زونا" تعتبر أمراً عادياً. إنهم يعلقون مصابيح الإنارة القوية على الأشجار ومن ثم تصبح الرؤيا ممكنة كما في النهار. العمل في الليل كان له حسنات ـ زادت حصة الطعام قبله وبعده أيضاً.

حضر الـ "بوليتروك" بعد عشرة أيام تقريباً من أول أيار وشارك في الإجتماع المسائي. حين رأيته، أحسست بخفقات قلبي. لا أعرف ما إذا كان ذلك بسبب الخوف أم من الأمل. حاولت ما بوسعي التركيز على كل كلمة يقولها. "آنا" أيضاً كانت تفكر عوضاً عني، وهمست طالبة كتاب الصلوات.

بدأ "ليبديف ـ رانكوف" حديثه بالقول، إن الجيش الأحمر رفع قبل عدة أيام العلم الأحمر مع المنجل والمطرقة فوق برلين. لقد استسلمت ألمانيا الفاشية، ولكن هذا لا يعني أن العالم سينسى جرائم الفاشيين، تابع الـ "بوليتروك" حديثه: سوق تتذكر شعوب العالم الضحايا التي قدمتها قوميات الاتحاد السوفيتي. لقد قتل الجنود وقتل معهم الأنصار الذين حاربوا في مؤخرة الجيوش الفاشية، ووجدت لسوء الحظ حالات قام فيها السكان المحليون بخيانتهم.

شعرت بقشعريرة ونمل غريبين في بطني. لم يسبق أن حدث لي ذلك من قبل، وفي اللحظة التي لفظ فيها "ليبيديف ـ رانكوف" اسمي، تحرك الطفل وكأنه سمع أحداً يناديه. هذا ما شعرت به وأنا أتقدم باتجاه المنصة أمام سجينات الـ "لاكبونكت" السادس. قال "بوليتروك" إنه قرأ ملفي، وعرف منه سبب تجريمي. لقد وشيت للألمان بمُوَرد الطعام للأنصار، ثم سألني بكثير من التهكم ما إذا كان عندي ما أقوله بهذا الصدد.

لم أعرف كيف أبدأ.

ـ تسكتين الآن، أيتها المتعاونة، قال "ليبديف ـ رانكوف" وهو يومي برأسه.

اضطررت إلى قول شيء:

ـ إن ذلك المورد يدعى "ألكسي الكسيفيتش أورلوف"، وأنا أحببته...

ـ اخرسي! قاطعتني "إرينا"، وأعطت الأمر باقتيادي.

ـ أحببته، وأنتظر طفله! صرخت.

دفعتني الحارسة بمؤخرة بندقيتها إلى الـ "كارتسير" (السجن الانفرادي).

ـ إنها حامل؟ سمعت الـ "بوليتروك" يسأل، ولكني لم أسمع جواب آمرتنا.

يقع الـ "كارتسير" بالقرب من الحظيرة، حيث نربي الخيول التي تنقل الخشب من الغابة. وبالرغم من أني قضيت هناك ليلة واحدة إلا أن المكان كان صغيراً إلى درجة يتعذر معها الوقوف أو الاستلقاء. ارتجفت هناك من شدة البرد ومجدتُ "آنا" لأنها أخذت مني كتاب الصلوات.

الطفل يتحرك في بطني طوال الليل. ربتُ عليه بكلتا يدي، ولكني لم أتمكن من إرضائه. حاولت تخيل حجمه، وكيف سيبدو بعد ولادته، ولكن الأفكار كانت تهرب مني باتجاه أمي. أقلقتني الصور الغريبة التي رأيتها فيها تحت الحمل الذي وضعته على كتفيها، وسقوطها خلف المحراث اليدوي في الأرض الجدباء، وتعثرها بالسُلم حين سحب شيئاً ثقيلاً إلى السقيفة.

لم أتذكر أمي خلال الشهرين اللذين قضيتهما في روسيا على الإطلاق، ولم يكن ذلك بسبب الطفل الذي بدأ يرفسني الآن، ولكن بسبب تلك المصيبة اللعينة التي وجدت نفسي فيها، ولم تسمح لي بالتفكير حتى في أمي. إنها وحيدة الآن، تأكلها الهموم والريبة لأنها لا تعرف ما إذا كانت ابنتها لا تزال على قيد الحياة.

حين فُتح الباب في صبيحة اليوم التالي، ارتميت مثل شجرة مقطوعة عند قدمي رجل، تذكرته من مكان تجميع السجناء. كان طبيب المعسكر الرئيسي، وقد أرسله "بوليتروك" ليتأكد مما إنْ إذا كنت حامل بحق. جرى الفحص في العراء، مباشرة أمام الـ "كارتسير". كان المعسكر فارغاً لأن النسوة كن في الغابة.

سلم الطبيب "إرينا" ورقة دونت فيها الزيادات في الأكل التي يجب أن تحصل عليها النساء الحوامل، ونوعية الراحة عن العمل التي يجب أن يتمتعن بها. صرخت بي "إرينا" بعد مغادرته بحقد، وكراهية:

ـ أيتها العاهرة، لقد حملتِ كي تتمكني من الحصول على مزيد من الطعام. أنا من اكتشف خططك. سوف أرسلك في أقرب مناسبة إلى المعسكر السفلي حيث ستفطسين هناك.

# الستاخانوفيات

# (بطلات العمل تيمناً بعامل المناجم أ.ج.ستاخانوف)

كنت أقف بين الأوائل في الطابور بوصفي حاملاً من المجموعة لاستلام الطعام، ولم يكن أمامي سوى "الستاخانوفيات"، الكلبات. كن مجرمات وكانت لهن الكلمة الأولى في المعسكر، وإن حدث وتمردت عليهن إحداهن، كن يستخدمن معها العنف لتنفيذ رغباتهن. أهم ما في الأمر أنهن مجرمات متحدات فيما بينهن، إذ تمنح العضوية في مجموعة "الستاخانوفيات" على أساس الأداء في العمل، وباستثناء الأيام التي رافقتنا فيها إلى الغابة الملازم "إرينا"، لم أنتبه إلى أن الجنديات كن يحسبن كمية الأشجار التي يتم نشرها من قبل كل سجينة على حدة، وكل ذلك بسبب خوفهن من "الستاخانوفيات". ربما كن يشعرن أيضاً بنوع من القرابة مع المجرمات لأنهن مثلهن مجرد قاتلات، بينما اعتبرن الأخريات ـ ونحن معهن ـ مجرمات بحق الشعب، وأعداء للأمة. كن يعتبرننا نحن الجائعات المنهكات اللاتي كان القمل والجرب رفيقينا الأساسيين، نمثل الخطر الأكبر الذي يهدد الدولة البولشفية.

بعض السجينات كن يخفن من "الكلبات" إلى الحد الذي يجعلهن يقدمن لهن قسماً من حصصهن من الطعام، وبالتحديد السكر والسجائر. حين جاء دوري للمرة الأولى في استلام السجائر، رفضتها لأني لا أدخن. شتمتني "ناتاشا" ووصفتني بالغبية لأن باستطاعتي مبادلة السجائر بالقليل من السكر. من أجل الطفل كما أكدت لي. كنا نتسلم مرة في الأسبوع فنجاناً من السكر.

كانت المجرمات (الكلبات) في الأسابيع الأولى من وصولي يأمرن جميع السجينات في المجموعات الأربع من "أرتك". وشوشت النسوة بعد ذلك بأن الأوضاع تغلي في المجموعة الثانية حيث توجد ست مجندات سابقات من الجيش الأحمر بين الخمس عشرة سجينة اللاتي قدمن معي في نهاية آذار، وكما علمت بعد ذلك فقد تم اعتقالهن مباشرة بعد تحريرهن من المعتقلات الألمانية. حين وضعتهم "إرينا" في المجموعة الثانية، رفضن الانصياع إلى أوامر المجرمات الستاخانوفيات، ومن ثم كان الاقتتال يحدث يومياً في مكان سكنهن.

استيقظنا من نومنا في إحدى أمسيات أيار على صوت إطلاق عيارات نارية. ظننت أن إحدى السجينات حاولت الهرب. عرفنا في اليوم التالي حقيقة ما حدث بالضبط من النسوة. الكراهية المتبادلة بين الستاخانوفيات

المجرمات، والمجندات السابقات وصلت في حدتها إلى حدود الصراع على الحياة أو الموت. كانت القوى في البداية متعادلة ـ ست مجرمات (كلبات) مقابل ست جنديات سابقات، ولكن انضمام ثلاث أسيرات إلى المجندات رجح الكفة، وعدل النتيجة لصالحهن. أبرحوا إحدى المجرمات ضرباً إلى أن فارقت الحياة، وكسروا أيادي الأخريات وأضلاعهن، وربما أخرجن لهن عيونهن. عدد القتيلات كان يمكن أن يكون أكثر، لولا أن قامت إحدى السجينات السياسيات بكسر النافذة مما أثار انتباه الحارسات اللاتي أنهين المعركة بإطلاق أعيرة نارية في الهواء.

لم نحصل في اليوم التالي على وجبة الفطور المعتادة. تم استدعاؤنا مباشرة بعد جرس الاستيقاظ إلى الاجتماع الصباحي الذي غابت عنه المجرمات (الكلبات) الجريحات من المجموعة الثانية. تركتهم "إرينا" في المبنى بينما تمدد الجسد المدمى للقتيلة أمامنا على الأرض كي نراه بأم أعيننا، وكي نعرف أيضاً سبب وقوفنا هنا وعدم تسلمنا طعام الفطور. حاولت جهدي ألا أتطلع لأن ذلك المنظر كان يحثني على الإقياء. لقد تعلمت أن كل لقمة أستفرغها ستكون خسارة لطفلي.

أرادت "إرينا" من السجينات الاعتراف عن قاتلة الـ "ستاخانوفكا" في الليل. كانت تعرف الفاعل بالتأكيد من المجرمات (الكلبات) الجريحات، ولكنها أرادت إذلال الجانيات، والحصول على اعترافهن المباشر أمام بقية السجينات، أو ربما أرادت الضغط على إحداهن كي تجعلها تعترف وتكون بذلك قد خانت بقية زميلاتها. بدأت باستجواب سجينات المجموعة الثانية كل واحدة منهن على حدة. سألت كل واحدة منهن عن التي ارتكبت جريمة القتل في الليل. ردت النسوة بنفس الجواب:

ـ استيقظت لدى سماعي إطلاق نار، وبالرغم من ذلك لم أشاهد أحداً لأن الظلام كان يخيم على الغرفة.

حين لم تعترف السجينة الأخيرة، غيرت"إرينا" أسلوبها. قالت إنها تتفهم سبب امتناعهن عن الاعتراف بإسم القاتلة خوفاً من الثأر، ثم عادت إلى مكتبها. قامت الحارسات بإحضار كل سجينة من المجموعة الثانية إليها على انفراد. بقينا واقفات طوال تلك المدة في حالة الاستعداد. استغرق الأمر على ما أظن حتى حلول الظهيرة. لم يسمحوا لنا أثناء ذلك بالذهاب إلى المرحاض. بعضهن لم يتحملن، وفعلوها في سراويلهن. كنت إحداهن لأن الطفل كان يضغط على مثانتي.

عادت "إرينا" إلينا في النهاية. قامت دون تردد بتسمية ست جنديات سوفيتيات سابقات، وثلاث ألمانيات أسيرات، بعضهن كانت لاتزال على وجوههن آثار الضرب من الليلة السابقة.

ـ انظروا، جنديات سوفيتيات! ـ ضحكت "إرينا". لقد حصل اتحاد جديد بين خائنات الجيش الأحمر والفاشيات المنحرفات!

كانت "إرينا" تخطط لقول الكثير، ولكنها لم تكن خطيبة بارعة. لم تعرف الآن كيف تكمل كلامها، وما أنقذها كانت سيارة النقل التي أطلقت زمورها أمام البوابة.

جلس الطبيب في كابينة القيادة إلى جانب السائق، في حين جلس أربعة جنود على ظهر الناقلة، قامت "إرينا" في الحال بتسليمهم الجنديات السوفيتيات السابقات، وكان عليهم أيضاً الدخول إلى مهجع المجموعة الثانية وحمل الجريحات المجرمات (الكلبات)، ووضعهن على ظهر الناقلة. جرت مشادة كلامية بين "إرينا" وآمر الحرس بسبب جثة القتيلة. أكد الجندي أنه لم يتلق أمراً بنقل الجثة. نادته "إرينا" إلى مكتبها حيث اتصلا من هناك بوساطة جهاز اللاسلكي بقائدة في المعسكر الرئيسي. أثناء وجودهما في المكتب، اقترب مني الطبيب وسألني عن المدة اليي أمضيتها واقفة هنا في مكاني. أخبرته أني أقف هنا منذ الصباح الباكر. دور رأسه منزعجاً.

حين عاد آمر الحرس برفقة "إرينا"، وقفت رئيستنا مسندة يديها على خاصرتيها وجعلت تراقبه بسعادة المنتصر وهو يوعز بحمل الجثة إلى المركبة. اقترب منها الطبيب في تلك اللحظة، ووشوشها. لمحتُ "إرينا" فجأة وهي ترمقني بنظرتها المتجمدة. بدا لي الأمر وكأنه نوع من إعلان الحرب من طرف الطبيب. حرباً خاصة على "إرينا" أراد من خلالها تسجيل نقطة، لأنه ضبطها وهي تتعامل سلباً مع القوانين المرعية. لقد استغل حالتي، وكنت عنده مجرد عذر مرحب به، ولم يكن لتصرفه أي علاقة برعاية الطفل. كانت النتيجة أن الرئيسة كرهتني مع مرور الوقت أكثر فأكثر، وبالرغم من أنها حتى الساعة لم تتخذ أي إجراء ضدي، إلا أني مع ذلك بقيت خائفة من الآتي، حين يتفجر غضبها بكل طاقاته.

قامت "إرينا" بعد مغادرة الناقلة بتوزيع بقية الألمانيات على المجموعات. كانت "ريتا" ذات الشعر الأحمر التي بقي رأسها يشع مثل الجزر المفروم، بالرغم من أنها كانت حليقة، من نصيب مجموعتنا، وترتب عن ذلك انتقال إحدى المجريات من مهجعنا لتحل مكانها. أوسعت المجرمات (الكلبات) الألمانية ضرباً مباشرة من الليلة الأولى لرغبتهن في استباق الأمور، والسيطرة عليها منذ البداية كي لا تسولها نفسها وتقف ضدهن كما فعلت ألمانيات المجموعة الثانية، ولكنهن تركنها بعد ذلك وشأنها وتحاشينها.

منحني وصول تلك الألمانية إلى مجموعتنا الكثير من الراحة لأن المجرمات (الكلبات) قررن إيواء الفاشية على لوح الخشب الموجود بالقرب من المرحاض، وهذا يعني انتقال الحامل للنوم على الدفة التي كانت تشغلها

المجرية. المجريات كن في منتهى العصبية في تلك الأيام، لا سيما حين وصلهن خبر انتهاء الحرب في أوروبا، ما جعلهن باستمرار في حالة من التوتر على أمل أن يرسلوهنّ إلى أوطانهن، لأنهن أسيرات حرب ولسن محكومات.

أخبرتنا "إرينا" في اليوم التالي أثناء الاجتماع المسائي عن تنفيذ حكم الإعدام بحق السجينات اللاتي أرسلتهن إلى المعتقل السفلي (زونا). تحدثت النسوة بعد عدة أيام مع سائق الشاحنة المكلف ينقل التموين الذي أكد لهن بأنهم أطلقوا النار على واحدة فحسب، يقال إنها اعترفت بارتكابها الجريمة.

# ساموروب

## (إيذاء النفس من قبل المحكوم بالروسية)

نَمَتْ في أعماق الغابة أشجار أكثر قساوة وسماكة، لذا كان قطع إحداها يعتبر عملاً في غاية الصعوبة. كان الفأس يرتد عن سطحها مثل الشرارات المنبعثة من لهب النار. بدأ بطني بالبروز وعشت في خوف دائم كوني سأتسبب بالأذى للطفل الذي ينمو في داخلي، إذ حدث عدة مرات أن انتهى رأس الفأس الحديدي عند ركبتي، ومع ذلك شكرت ربي بالرغم من ألمي الشدد لأن فأسنا كانت مُثلمة. الشيء المزعج الآخر تمثل في دخول نثرات الخشب في عيني، والتي ساعدتني سجينة قديمة في نزعها. حدث ذلك في الوقت الذي لم تنتبه إلينا الحارسات لأن إيقاف العمل بمبادرة شخصية كان من المحظورات، وبالتالي سيعرضنا إلى إنقاص حصتينا من الطعام. جُرح فخذي مرة بالفأس، وبقي الجرح ينزف عدة أيام، ومع ذلك لم يخطر ببالي التبليغ عن الإصابة. كان يمكن أن يلقوا بي في الـ "كارتسير" بوصفي متمارضة، وكان عقل "إرينا" سيطير من الفرح بإرسالي إلى هناك ضاربة بعرض الحائط كل ملاحظات الطبيب المتعلقة بالمرأة الحامل، حتى إنها نكاية به كانت ترسلني أحياناً لأقف في نهاية الطابور أثناء تقديم الطعام، و لم تكن بحاجة لتبرير افعالها.

ـ لن تكون هناك زيادة ـ قالت لي، وكان لها ما أرادت.

الأيام التي رافقتنا فيها الآمرة إلى الغابة كانت الأسوأ، لأن الحارسات حاولن أثناء وجودها إظهار سلطتهن وقسوتهن. كن يخفن "إرينا" أكثر من خوفنا منها. كانت العلاقة بين "إرينا" والسجينات محكومة بمزيج من الخوف والكراهية على حد سواء، مع بعض العرفان بالجميل. كنت أسمع كل يوم تقريباً من إحدى السجينات وصفاً للمعاناة الرهيبة التي عاشتها في "زونا"، أو في سجن آخر قضت فيه قسماً من محكوميتها، حتى إن إحداهن اعتبرت "أرتك" فردوساً إذا ما قورن بـ "زونا".

ـ اقتادوني حين احتل الروس جمهوريات "البلطيق" ـ همست في أذني "كايسا" الأستونية التي فرزتني "إرينا" للعمل معها في ذلك اليوم ـ وصلتُ في البداية إلى "كوليما" في "إلغن". اغتصبني الجنود بداية حين توقف القطار في إحدى المحطات، وفي اليوم الأول لوصولنا إلى السجن، اغتصبني حارسان. أسرعا كي ينتهيا قبل وصولي إلى الحلاق. بالطبع

يفضلون فعل فعلتهم مع امرأة لها شعر طويل على فعلها مع امرأة حليقة الرأس تشبه الشبح.

ابتسمت "كايسا"، ولكنها سكتت في الحال لأن الحارسة استدارت نحونا. كنت دائماً أقيس "كايسا" خلسة بنظراتي حين أضرب بفأسي. لم أفهم كيف يمكنها أن تتحدث عن تلك الأشياء بكل هذه البساطة. كنت لأشعر بالخجل والاحتقار وأفضل الموت على التحدث في تلك الأمور، وهي هنا تتذكر التفاصيل بتكشيرتها الغريبة، وكأنها تسخر من أحدهم أو من نفسها.

ـ جاء في الليلة الأولى "الأوركوفيون" ـ تابعت "كايسا" حين استدارت الحارسة. ـ مجانين، وحوش. وهل يمكنني الدفاع عن نفسي؟ لن يخطر ببالك ذلك وأنت تلقين نظرة على تلك العصابة. فعلها معي هناك، من الخلف، ولأن يديه كانتا طليقتين. ضربني حتى فقدت الوعي. لا أعرف حتى عدد الذين تعاقبوا على اغتصابي، ومع ذلك لم تكن حالتي الأسوأ لأنهم قتلوا بدم بارد إحدى الفتيات من قريتنا، وكل ذلك لإشباع غريزتهم... لم يكن الحال أفضل في "إلغن". كان هناك سوران من الأسلاك الشائكة يحيطان بالسجن تماماً كما في "أرتك". كنا نجفف ما نغسله من الثياب على السور الأول كما نفعل هنا. حدث مرة أن وقف حارس جديد على البرج. أراد إظهار انضباطه في أول يوم من تسلمه العمل. فجأة يلمح إحدى المحكومات وهي تتمشى باتجاه السياج رافعة يديها، وحين وصلت إلى الأسلاك. أطلق عليها النار وأرداها قتيلة. تم توضيح الأمر، وفُسر سوء التفاهم الحاصل، ومنذ ذلك الحين أخذ الحارس علماً بأنهن يعلقن هناك ثيابهن المبللة.

فتشت عينا "كايسا" عن "إرينا".

ـ يجب أن نكون ممتنات لها. قاسية، ولكنها عادلة. نفذي أوامرها، ولا تضيعي وقتك في التفكير. إنك حتى لا تفكرين في أوامر والدتك... ابتعدي الآن كي لا تطيح بك الشجرة.

شارفت الشجرة على السقوط، وكانت بحاجة إلى عدة ضربات فحسب، حتى إن ساقها بدأ يزعق، وكأنه يُودع الحياة، ولكنه لم يسقط بعد.

ـ سوف أُريك! ـ صرخت "كايسا" بغضب، وراحت تضرب بقوة من جديد: صدقيني، كنت سترتجفين في "زونا" في الليل والنهار. هنا، لا يزال لديك أمل بالحصول على عفو. كما أخبرتك، كل ذلك بفضل "إرينا"...

بدا الأمر في تلك اللحظة وكأن الشجرة قفزت إلى الطرف وانزلقت فوق ما تبقى من الجذع، ثم هوت بسرعة غير متوقعة مطلقة صفيراً قوياً على الأرض. لم يكن صفيراً عادياً بل طيراناً لنثرات الخشب مترافقاً مع صخب شديد. قفزت "كايسا" من مكانها، ولكن الأمر بدا وكأن الشجرة تلاحقها.

شعرتُ أنها بدلت اتجاهها من جديد وهي تهوي الآن فوقها بشكل مباشر. حين ضربها الجذع في رأسها، سُمع صوت طقطقة خفيفة شبيه بطقطقة الخشب بسبب انزلاق رأسها بين كتفيها. بقيت واقفة على قدميها ثوان معدودات، ولكنّ ركبتيها انثنتا ببطء لتسقط في الحال بجانب جذع الشجرة المقطوع. بقي شالها معقوداً في مكانه تحت ذقنها.

لم أجد القوة كي أصرخ. تجمدت في مكاني وكأني غرقت في حُلم وأنا أسمع دوي سقوط الشجرة الذي لحقه صدى لا نهاية له في دماغي.

ـ يا إلهي لا تتركها تموت، يا إلهي لا تتركها تموت، ـ كنت أصرخ، ولم أكن أفكر بالمرأة المستلقية أمامي على الأرض، ولكن بالطفل الذي أخذ برفس بطني بقوة من الرعب الذي أحدثه سقوط الشجرة.

أجبرت نفسي بعد ذلك على الركوع بجانب "كايسا". لم أعرف ما عليّ فعله. دسست يدي تحت بلوزتها كي أتحسس ضربات قلبها. حين لم أشعر بشيء، قربتُ أذني من وجهها علني أسمع صوت تنفسها، ولكني رأيت بدلاً من ذلك خيطاً رفيعاً من الدم يسيل من فتحتي أنفها. دفعتني بعد ذلك يدٌ قوية من مكاني. كانت "إرينا". انحنت فوق "كايسا" وهزتها، ومدت يدها بعد ذلك لتفك الشال عن رقبتها.

ـ لا أتوقع إمكان مساعدتها ـ قالت مؤكدة.

اجتمعت بعض السجينات القديمات والمراقبات من حولنا. نظرن متسائلات في وجه "إرينا" التي نهضت على قدميها، وهزت رأسها، ثم لوحت بكلتا يديها دون أن تنبس بكلمة. كانت لحظة من تلك اللحظات التي أرادت فيها قول شيء، ولكنها لم تجد الكلمات المناسبة.

صممت بيني وبين نفسي ألا أنظر من جديد إلى "كايسا"، وكان ذلك في اللحظات التي كنت أحدق فيها من جديد. تمكن جذع الشجرة فجأة من تغيير كامل أوصافها وتشويهها بغرابة. بدا رأسها مهشماً في طرفه ورقبتها أقصر. توقف سيلان الدم من أنفها ولكنه جعل ينساب من مكان ما في قحف رأسها. قامت امرأتان بنزع بلوزتها ووضعتاها فوق وجهها. راقبتهما "إرينا" بصمت وحين أدركت أنهما قامتا بعمل دون أن تتلقيا أمراً منها، وجدت الوقت مناسباً للتذكير بمكانتها بوصفها الآمرة الوحيدة التي يحق لها الأخذ بزمام المبادرة.

ـ ماذا أرى؟ تتصرفن كما تردن ـ أعلنت.

أمرتنا بالعودة إلى العمل. تحركت السجينات القديمات ببطء إلى مكان عملهن ولحقت بهن الحارسات بحذر شديد.

حين بقيت وحدي مع "إرينا"، سألتها عما عليّ فعله. تطلعت في وجهي وكأنها لم تفهم قصدي، ولكن عدم فهمها تحول بسرعة إلى ثورة من الغضب الشديد:

ـ بالطبع، تتابعين عملك! خذي الفأس، ولن تخرجي من الغابة قبل أن تجردي الشجرة من جميع أغصانها!

كيف يمكنني العمل وأنا في تلك الحالة؟! كان جسد المرأة لا يزال ممدداً بالقرب مني، وهي المرأة ذاتها التي أخبرتني قبل قليل بأن جهنم تلك يمكن تحملها. شعرت بضعف شديد في يدي، وتمكنت بصعوبة من الإمساك بالفأس الذي لم أعرف كيف يمكنني استخدامه. سالت دموعي. بدأت أصلي، ولكن صلواتي تلاشت بعد بضع كلمات، وبدلاً من ذلك تاهت عيناي في جسد "كايسا" الذي لم يفارقني حتى بعد أن أدرت رأسي. بقي منظرها الأخير مثبتاً في رأسي، ولا سيما تلك النظرات التي رمقتني بها وهي في لحظاتها الأخيرة. كأنها فهمت أخيراً حقيقة "إرينا " و"أرتك" ومن ثم أرادت تحذيري.

نَسيَتْ "إرينا" تهديدها لأني تمكنت بعد ذلك من مغادرة الغابة برفقة الآخريات، وحدث ذلك في وقت متأخر مقارنة مع الأيام السابقة. كنا في اليوم الأخير من حزيران. تركتنا "إرينا" نعمل حتى ننفذ الخطة الشهرية المقررة. حين تجمعنا من أجل العودة إلى المعسكر سألتنا عما إذا كانت بيننا من لا تشعر بالتعب. بالطبع لم ترفع واحدة منا يدها، وهذا ما توقعته، لذا أعلنت أن علينا في تلك الحالة ترك "كايسا" في مكانها حتى الصباح.

فكرنا قبل النوم بالسبب الذي جعل "إرينا" تتصرف بهذه الطريقة ولكننا لم نتوصل إلى جواب. ربما كانت ستنقل الجثة لو كانت مجموعتنا مزودة بحصان. صليتُ في تلك الليلة أكثر بكثير من النوم. كنت أفيق من نومي كل لحظة لأصلي. كان عندي من أصلي لأجله ـ الطفل، وألكسي، وكايسا أيضاً. وحتى أمي التي لابد أنها فقدت الأمل برؤيتي في المستقبل.

# أوني كرافت

## (بلا قوة بالألمانية)

حين كنا في طريقنا في اليوم التالي إلى الغابة، أمضيت الطريق وأنا أتضرع إلى ربي طالبة منه المساعدة كي لا يتم فرزي إلى نفس المكان الذي عملت فيه البارحة. خفت من رؤية جسد "كاسيا". لحسن الحظ، قررت "إرينا" عدم إرسال أي منا للعمل نفس المكان، ولكنها أمرت سجينتين بتصنيع حمالة من أغصان الشجر.

أحضرت سيارة النقل في حوالي الظهيرة الطبيب لمعاينة الجثة، وبوصفي شاهد عيان أمرتني "إرينا" بالحضور في الحال. ذهبت إليهما سالكة طريقاً متعرجاً، لأني أردت الوقوف بحيث لا يمكنني رؤية الجثة من خلال ساق الشجرة. السجينتان اللتان صنعتا الحمالة كانتا هناك وحاولتا إدارة رأسيهما كي لا تريا الجثة أيضاً. أمرتني "إرينا" أن أشرح للطبيب مجريات الحدث. كان من الصعب الحديث عن الأمر بشكل مفصل، لا سيما وأن ما جرى كان في منتهى الوضوح والبساطة. أرادت "كايسا" أن تقفز ولكن الشجرة غيرت اتجاهها. ماتت في الحال. كان الطبيب يومئ برأسه بملل واضح وهو يسجل ملاحظاته في الورقة التي أمسكها أمامه. أمرتني "إرينا" من جديد إخبار الطبيب عن المكان الذي كانت تقف فيه أقرب مشرفة. لم أكن أعرف في الحقيقة. سألتني عما إذا كانت تقف في مكان بعيد. حين أكدت صحة كلامها، تطلعت "إرينا" بسعادة المنتصر في وجه الطبيب الذي لم يعرها ولم يعرني معها أهمية تذكر. كان الموضوع عنده بحكم المنتهي. أمرتني "إرينا" مساعدة السجينتين في رفع الجثة ووضعها فوق الحمالة ومن ثم نقلها إلى السيارة.

يا إلهي، يا إلهي، لماذا تخليت عني؟ عبرت مخيلتي آيات من الإنجيل. حين تجاوزت ساق الشجرة الممدد على الأرض وجدت نفسي أمام جثة القتيلة. كان منظراً رهيباً. الثياب ممزقة إلى قطع، الوجه مشوه يصعب التعرف عليه، ولم يبق منه سوى بعض العظام الوردية، بينما تناثرت بقايا أحشاء البطن حول الجثة. أسندت جسمي إلى ساق الشجرة وتقيأت. كنت أعرف أني أحرم طفلي من السوائل كلما تقيأت، ولكني فشلت في تلك الحالة، ولم أتمكن من إيقاف ما يحدث معي، حتى أني أجبرت نفسي على التقيؤ كي أبعد نظري دقيقة أو دقيقتين عن ذلك المشهد المرعب. كان عليّ أن أحمل ما تبقى من أحشاء "كايسا" وأضعها فوق الحمالة.

حين تمكنت من إجتياز الصدمة الأولى وبدأت أشعر بما يجري من حولي، لاحظت كيف كان الطبيب يخاطب "إرينا" بصوت مرتفع قائلاً: المفروض ألا تقوم سجينة في وضعي بأعمال التحطيب. طلب منها نقلي لأقوم بنوع آخر من الأعمال. لم تجبه الآمرة في الحال، ولكنها بدلاً من ذلك نادت على سجينتين وأمرتهما بالمساعدة في نقل الجثة.

بدا الأمر وكأن "إرينا" والطبيب أيضا لم ينتبها إلى وجودي، لذا حاولت من جديد تصنع التقيؤ كي أتمكن من سماع ما سيتفقان عليه بشأني. طلبت " إرينا" من الطبيب أن يقترح نقلي إلى "الراددوم". رد عليها الطبيب أنهم ألغوا "راددوم" في المعسكر بشكل مؤقت بسبب حضور عدد كبير من الأسيرات الألمانيا، ولم يجدوا مكاناً آخر يضعونهن فيه. سألته "إرينا" عن المكان الذي سألد فيه. أخبرها الطبيب أن العقيد "جورافين" قرر بشكل تقريبي عدم إزعاج "جلافنوي أوبرافلينيا"، وتركنا نحل المسألة بإمكاناتنا الذاتية. لم تفهم "إرينا" معنى كلامه. شرح لها الطبيب ـ بدا لي أنه بصوت يوحي بالشماتة ـ بأني سوف ألد في الـ "لاكبونكت" السادس. لم تصدق "إرينا" ما سمعته. إن ذلك سوف يُفسد أخلاق سجينات"لاكبونكت" بأكمله، ويضعف من روح العمل. قال لها الطبيب بطريقة لا تخلو من السخرية بأنها لهذا السبب آمرة في المعسكر، ومن واجبها منع حدوث أي إفساد للأخلاق، وأضاف: الحمل ليس من الأمور التي تنتشر بالعدوى. ردت عليه "إرينا" بأنها بالرغم من ذلك تطالبه بأمر خطي كي تقوم بنقل جميع النسوة اللاتي لا يمكنهن العمل بشكل كامل، أي"أوكاشي" كما أسمتنا، إلى المعسكر الرئيسي. ربما تكون "إرينا" قد انتبهت في تلك اللحظة بأني لا أزال جالسة بالقرب منهما على الصخرة وأتصنع التقيؤ. رفستني على مؤخرتي وأمرتني بالعودة إلى مكان عملي.

أعلنت "إرينا" في الإجتماع المسائي بأن السجينة "سوزانا لافكوفنا" قد نُقلت إلى أجل غير مسمى للعمل في الخدمات اليومية. هذا يعني بأنني سوف أبقى في "أرتك" وأقوم بأعمال الخدمة تنفيذاً لأوامر المشرفات. ابتسمت "آنا" في وجهي في حين تلقت المجرمات "الكلبات" النبأ بكثير من الحسد والكراهية، لأن هذا الامتياز كان حتى الساعة من نصيبهن ونصيب خادماتهن.

تحدثنا في ذات المساء عن "كايسا". أكدت المجرمتان اللتان حملتا جثتها بأنها نُهشت من قبل الذئاب، لأن قطعاً كبيرة كتلك من اللحم يصعب على الثعالب اقتلاعها. كما اتفقن على أن "إرينا" تركت الجثة في مكانها كدليل يثبت أن "كايسا" ماتت نتيجة حادث، وإن الوفاة لم تكن نتيجة لتعذيب الحرس أو قتال نشأ في أكواخ السجينات.

كلمة "أوكاش" سبق أن سمعتها أكثر من مرة من "إرينا" ومن المشرفات والسجينات أيضاً، ولكني عرفت ما تعنيه في تلك الأمسية. حين أخبرت النسوة عما دار من حديث بين الطبيب و"إرينا"، قالت لي إحداهن بأن "أوكاش" O.K هو اختصار بدأت تستخدمه المشرفات والآمرات منذ مدة قريبة، ويقصدن به السجينات غير الصالحات للعمل. التفتت إلينا في تلك اللحظة الألمانية "لورا" وقالت:

ـO.K تعني بلا قوة! ـ شرحت، وراحت تضحك بشكل جنوني.

تذكرت أنها ضحكت بتلك الطريقة حين اكتشفت اليافطة الموجودة فوق مدخل المعسكر. عملت "لورا" قبل ذلك مشرفة في أحد معسكرات الاعتقال وعرفت ذلك الاختصار من هناك.

# موجيكي

## (الرجال، الفلاحون بالروسية)

كنا ثلاث سجينات في الخدمة اليومية. كنت الثابته بينهن والأخريات تتبدلان. أمضيت أول يوم خدمة مع الستاخنوفكا "يلينا"، وهي كلبة من مجموعتنا، ومع "بتيتشكا" من المجموعة الثالثة التي تقضي محكوميتها بسبب الدعارة. أمرتنا المشرفة في البداية بتنظيف الألواح الخشبية التي تغطي أرضية غرفة الطعام، وسلمتنا لهذا الغرض سكاكين مُثلمة بقبضة خشبية بدلاً عن القبضة العادية. كانت ريب صناعة محلية. سكبت لنا النسوة العاملات في المطبخ ماء مغلياً على الألواح الخشبية، وبذلك كان بإمكاننا البدء في العمل. كان الخشب مغطى بطبقة سميكة ربما تبلغ بضع سنتيمترات من الوسخ، والوحل، وعيدان شجر الصنوبر التي كان من السهل إزالتها. حين نُجمع كومة كبيرة، كنا نرميها في السطل. لم يكن العمل شاقاً بالمقارنة مع أشهر قضيناها مع الفؤوس والمناشير، ويمكن القول إنه عمل مريح نسبياً لأيادينا، ولكنه بالرغم من ذلك كان يضايق بطني الكبير، لاسيما أننا كنا نمضي معظم وقتنا راكعين أو مقرفصين.

استغلت "يلينا" أول فرصة وجدت فيها نفسها بعيدة عن مراقبة المشرفة كي تريني مديتها، وتهددني بأنها سوف تبقر بطني إذا لم أقم بالعمل المطلوب عوضاً عنها. قبل ذلك، وفي الأيام الأولى كنت ربما سأرتعب، ولكن بعد ثلاثة شهور أمضيتها في "أرتك" عرفت أن "يلينا" تقوم بذلك بفعل العادة فحسب. حين تكون المشرفة قريبة منا كنا نقشط الوسخ بالتساوي، وحين تتركنا لتثرثر مع المشرفات الأخريات كنت أعمل وحدي وكانت "يلينا" مع "بتيتشكا" تتسليان بمراقبتي.

ربما كانت "يلينا"، حسب تقديري في الخمسين من عمرها، إذ بدأت علامات الكبر بالظهور على جسمها، وبالتحديد في حركتها التي أصبحت بطيئة وحذرة، ولكنها حافظت بالرغم من ذلك على سلطتها من خلال تأثيرها القوي والكبير على "تانيا" الضخمة التي كانت تدعوها أحياناً "ماموتشكا"(8)، سوى ذلك كانت يلينا سجينة قاسية ومجنونة توزع ضرباتها أينما حلت دون تفريق. المجرمة الثالثة في مجموعتنا كانت "بسنكا"، المرأة التي يصعب السيطرة عليها لأنها تفتعل القتال مع الجميع دون استثناء، حتى مع "تانيا" و"يلينا".

وصلت الناقلة في حوالي الظهيرة من المعسكر الرئيسي مع التموين. أمرتنا المشرفة بالذهاب إلى هناك لتنزيل محتوياتها. هرعت "يلينا" مع "بتيتشكا" باتجاه السيارة برغبة، ولكنهما حين اقتربتا منها، توشوشتا فيما بينهما وقد خاب ظنهما. جررت نفسي خلفهما بصعوبة وقد تقوس ظهري إضافة إلى ألمي الشديد في أسفله.

أنزلنا البطاطا والجزر والخبز. كانت المشرفة تولي انتباهاً كبيراً للخبز ولهذا لم يكن بوسعها أن تنتبه إلى كمية الجزر والبطاطا التي ملأت الصندوق. نقلنا المؤونة إلى سلال كبيرة وحملناها إلى القبو الذي حُفر في الأرض بالقرب من الـ "كارتسير". حين فتحت المشرفة باب القبو، أطلقت "يلينا" عدداً من الصرخات القوية كي تبعد الجرذان. أخفيت أثناء تنزيل السلال قطعتي جزر في جيب تنورتي السرية التي توقفت عن حمل كتاب الصلوات فيها مذ قامت "آنا" بتوسيعها من طرفيها بقطعتي قماش. وبالمقابل أخفت "بتيتشكا" تحت بلوزتها كمية كبيرة من البطاطا والجزر بحيث بدت وكأنها حامل. انتبهت المشرفة، وكان على "بتيتشكا" أن تخلع ثيابها حتى العري، ليتساقط الجزر منها مثل تساقط الفواكه من الشجرة. أرسلت إلى الـ "كارتسير" نصف عارية.

نقلت إلينا السيارة بعد عدة أيام إضافة إلى التموين مجرمة جديدة، ولأن الوقت كان قد تأخر ولم يكن هناك سوى ساعة واحدة لإنهاء العمل، قررت "إرينا" فرز هذه المجرمة للعمل في الخدمة اليومية. كنت أخدم في ذلك اليوم مع مومستين روسيتين،"كسينيا" و"لاريسا". تصادقت معهما السجينة الجديدة بسرعة البرق بالرغم من أنها ألمانية.

تطلعت من حولها وسألت:

ـ أين الرجال؟

ضحكت الروسيتان، وجعلتا تشرحان لها الإمكانات الموجودة: لا يوجد في المعسكر رجال، ولكن يصدف أحياناً أن ينقلوا في سيارة التموين بعض السجناء من المعسكر الرئيسي، بدأت "كسينيا" الشرح، كما حذرتها "لاريسا" من مغبة تسليم نفسها بالمجان لأنها بذلك تنقص من قيمتها، ولن يدفع لها أحد بعد ذلك، ولكن حين سألت الألمانية عن المبلغ الذي يمكنها طلبه، لم تتفق الروسيتان على الجواب. أكدت عليها "كسينيا" ألا تذهب معهم مقابل الأكل، والأفضل لها أن تطلب مواد غذائية سوف تحتاجها. إنها تفضل الحصول على مرآة لأن الثياب الجيدة والجزمة يمكنها مبادلتهما بالطعام حتى في "أرتك".

لوحت "لاريسا" بيدها:

ـ وهل بإمكانك أن تختاري؟ دعيه يريك ما بحوزته، وإذا وجدتيه كافياَ، تتم الصفقة.

ـ ولكن حذار أن تذهبي معه إلى مكان بعيد ـ نبهتها "كسينيا" وأضافت: لأنه يمكن أن يضربك على رأسك ولا يعطيك شيئاً. عليك البقاء قريبة كي تتمكني من الصراخ، والاستعانة بالحرس فيما لو ساءت الأحوال.

أحاطت "لاريسا" كتفي بذراعها بلطف وقالت:

ـ وأنت أيضاً يمكنك استغلال انتظارك للطفل. إنك "كربوجة"، وثدياك ممتلئان مثل البطيخة، بعض الرجال يفقدون عقولهم من أمثالك.

# بولوفوي جوسبيتال

# (المشفى الميداني بالروسية)

أحسست فجأة مرة أثناء الاجتماع الصباحي كيف يهتز الطفل في داخلي. لم تكن حركات معتادة لليدين والقدمين، ولكنها شيئ شبيهاً بقرع مستمر ومنتظم لأحشائي، كما لو رُكب جهاز ساعة في بطني. خفت أن يكون قلب الطفل يخفق بعنف، وأن مكروهاً قد أصابه. كنت أعرفه، وأعرف ضرباته القوية حين يتذمر إذا حدث ما يزعجني، لكني كنت هادئة في تلك اللحظة، ولم يحدث ما يمكنه إزعاجي، غير أن شيئاً ما أزعجه بالتأكيد. مررت يدي بلطف على بطني ومسدته، ولكنه لم يهدأ. تحولت الاهتزازات إلى إيقاع منتظم. لا يمكن للطفل تحمل ما يجري فترة طويلة.

عند انتهاء الاجتماع، أمسكت في الحال يد "آنا" وكبستها على بطني.

ـ هل تشعرين؟ شيء ما قد حدث! ـ قلت لها.

وضعت "آنا" يدها الثانية على بطني ثم ركزت انتباهها.

ـ ماهذا؟ سألتها بإصرار.

أومأت "آنا" برأسها وقالت:

ـ إنه... إنه.. در شلوكاوف، كيف يسمونه في لغتكم؟

تعلقت بشفتيها، كأن مصير الطفل يعتمد على ما ستقوله.

ـ إنه "تشيكوت"... "شكيكوت "... يسعل

ـ يسعل؟ سألتها غير مصدقة. ـ لا أعتقد أنك تظنين بأنه يُحزق في الداخل؟

ـ ولكن، نعم!

ابتسمت "آنا". وكتأكيد على فكرتها، بدأت تُقلد التحذيق في إيقاعاته، تماماً مثل الهزات الحادثة في أحشائي.

ـ لكنه لا يأكل، ولا يشرب، ـ لم أصدق.

ـ بل يفعل! يشرب من الماء الذي يسبح فيه، ـ مررت "آنا" راحة يدها على شعري بحنان، وهرعت مسرعة لتلحق بالمجموعة. لقد غادرن إلى الغابة.

انتقل قلقي الصباحي إلى "آنا" التي تمكنت في ذات اليوم من إقناع عدة مجرمات قديمات "زتشكي" ـ ولا سيما الأمهات منهن اللاتي كان أولادهن

في الوطن ـ بضرورة مساعدة المرأة الحامل. أخذن يحضرن لي منذ ذلك الحين ثمار توت العليق الأسود والأحمر من الغابة. أكدت لي "آنا" أن التوت الأسود يعالج فقر الدم. بعضهن كن يفعلن ذلك دون مقابل وبعضهن يبادلن معي التوت بمخصصات "آنا" ومخصصاتي من التبغ وأوراق السجائر، أو بأشياء أخرى كنت أحصل عليها بفضل فرزي للعمل في الخدمة اليومية.

أصيبت السجينات في الأيام الأولى من شهر آب بتشنجات وإسهالات. وصفتهن "إرينا" في البداية بالمتمارضات، ودفعت بهن إلى الـ "كارتسير"، ولكنها حين وجدت الجميع في اليوم التالي في حالة مزرية عند مغادرتهن الغابة، طلبت من المركز إرسال الطبيب الذي حضر في صباح اليوم التالي قبل بدء الإجتماع الصباحي. رأيناه يحمل إلى مكتب "إرينا" زجاجة ملأى بالكبسولات. لم يتأخر هناك طويلاً، فقط بالقدر الذي يسمح له بإعطاء تعليماته. حين خرج بعد عدة دقائق، هرعت "آنا" نحوه. تجمدت في مكاني. إن مفاجأة الطبيب ومخاطبته بهذا الشكل في غياب "إرينا" يعتبر مخاطرة كبيرة. لم أعرف ما أرادته "آنا"، ولا ماذا قالت له أيضاً، ولكن الطبيب استدار بعد كلامها وعاد أدراجه إلى مكتب "إرينا". رمقتني "آنا" بابتسامة وغمزتني، لكنها لم تشرح شيئاً.

أصبحت غالبية النسوة من مجموعتنا في ذلك اليوم عاطلات عن العمل، بمن فيهن بعض اللاتي خرجن في الصباح للعمل إلى الغابة، مما أجبر المشرفات على إنهاء عملهن، واقتيادهن في الظهيرة إلى مكان سكنهن. ظهر المرض على شكل وهن شديد جعل بعضهن عاجزات عن تحريك أرجلهن. تمددن على الألواح وجعلن يتلوين من المغص، ويهرعن مسرعات من حين لآخر إلى المراحيض التي لم تكن كافية لهذا العدد من المريضات. أمرت "إرينا" بإحضار "الباراشي" ووضعه أمام بوابة الكوخ وقضاء الحاجة فيه حتى في ساعات النهار إذا كانت المراحيض مشغولة، كما تم تبديل نوعية حصص الطعام لغرض الوقاية. كنا نتسلم في الصباح والمساء قطعة خبز وبطاطا مسلوقة. لحسن الحظ كنا في فصل الصيف ولهذا لم تكن معفنة كما في الأشهر السابقة. كن يضعن الخبز تحت أشعة الشمس ويتركنه ليجف، ويأكلنه حين يصبح قاسياً مثل الكعك. أجبرتنا المشرفات بناء على أوامر الطبيب على شرب نقيع قشر البلوط المغلي المقرف. يقال إنه يوقف الإسهال، كما أمرتنا تحضير حب الفحم من حرق البطاطا. الغريب في الأمر أن الكبسولات التي أحضرها الطبيب في الزجاجة الكبيرة بقيت في مكتب الرئيسة. ربما كانت مخصصة للجنديات.

خَيَمتْ سحابة ثقيلة من رائحة الحمض القوي على أجواء المعسكر بأكمله، وبدا الهواء في الأكواخ وفي أماكن أخرى ثقيلاً من شدة الحرارة، حيث امتزج العرق والطعام الفاسد الآن مع رائحة الفضلات السائلة. كان الذباب

الكبير اللامع يتجول بحرية على وجوه وأطراف النسوة المتعبات وكأنه تسلم زمام السلطة في (أرتك)، وينتظر بفخر واعتزاز سقوط أول ضحية، وتلك كانت من المجموعة الثالثة، ثم لحقت بها اثنتان من مجموعتنا الرابعة. توجب على الأخريات اللاتي بقين سليمان حتى الساعة، تجهيز حفرة عميقة في طرف الغابة حيث جعلنا ندفن فيها أجساد موتانا بالتدريج.

تلوثت أقدام النسوة وثيابهن وحتى ألواح الخشب بالفضلات، وقليلات منهن ملكن القوة والقدرة على غسل أنفسهن وسراويلهن أو تنوراتهن. وكتعويض على وعودهن لي بإحضار فواكه الغابة بعد تعافيهن من المرض، قمت بغسل ملابس بعضهن، وبمعجزة كبيرة، لم ينتقل المرض إلى جسمي.

انتقلت العدوى حين شارفت الجائحة على نهايتها إلى الحارسات، مما جعل الآمرة تطلب الدعم من المركز بوساطة جهاز اللاسلكي، حتى إنها نقلت حارستان إلى مشفى المركز.

وقفت "إرينا" مسندة يديها إلى خصرها أمام باب مكتبها وجعلت تدير رأسها:

ـ المشفى، المشفى الميداني ـ أطلقت تنهيدة من بين شفتيها المغلقتين.

# كوليبل

# (المهد بالروسية)

أصدرت "إرينا" أثناء الجائحة أمراً يوجب علينا تنظيف المرافق الصحية مرتين في الأسبوع، على الرغم من أن ذلك كان يحدث، وعلى مدى سنوات، مرة كل أحدين، وبفضل ذلك كنت أعرف بشكل مؤكد أننا في يوم الأحد. تحدثوا في الاجتماع المسائي عن تاريخ اليوم، دون ذكر اسمه. تمكنت من خلال مرآة معلقة في الغرفة التي كانت تحتوي على عدد من الصنابير الرشاشة من مراقبة تطور حملي. كنت في نهاية تموز قد تغيرت كثيراً. كانت يداي وساقاي، إذا لم أحسب تورم قدميّ، مخيفة، عنكبوتية، بينما برز بطني بقوة إلى الأمام، وكأني زرعت فيه خوخة كبيرة. اكتسب وجهي لوناً أصفراً، وبدا لي مفرطاً في البشاعة إضافة إلى تورمه، كما ارتسمت حول عينيّ دائرتان سوداويتان. كان منظري الخارجي يشير إلى توعك صحتي، وكأن الجائحة الماضية عشعشت في داخلي دون أن تظهر، وهذا ما أقلقني، وجعلني أشعر بالخوف على طفلي. كانت "آنا" تخفف من معاناتي، وتقول لي إن هذا بالضبط ما يحدث للمرأة الحامل. إذا زاد جمالها أثناء الحمل فإنها ستضع صبياً، وإذا زادت بشاعتها فإنها ستضع طفلة جميلة لأنها تأخذ من جمال والدتها. كانت "آنا" تتنهد حين يرفس بطني، وتقول بأنه سيكون لاعب كرة قدم. تمنت أن أُرزق ببنت، ولم تتفهم إصراري على إعطاء الطفل اسماً روسياً، ربما تذكرت ابنتها التي هربت من الروس في تلك الليلة، ولكن ذلك لا يعني أن الروس لم يعتقلوها في اليوم التالي، وأرسلوها مع دفعة الترحيل التالية إلى سيبيريا. "آنا" تعرف الصلاة بالألمانية فحسب، ومع ذلك يمكنها قراءة الصلوات بالسلوفاكية، لذا كنا أحياناً نصلي سوية من كتابي. هي عن ابنتها، وأنا عن أمي، بينما كنت أصلي دائماً عن الطفل وعن "ألكسي" حين أكون وحدي.

لم تتوقف "آنا" عن التفكير بحملي. كانت تجبرني في الأيام الحارة على الإكثار من شرب الماء، وحسب زعمها كي لا تزيد كثافة سائل الرحم الذي يمكن أن يتسبب في تسمم الطفل. حين اكتشفت بأن "خفويا" هو مغلي من نقيع خشب الصنوبر، ويعطونه لنا لمنع مرض "الأسكربوت"، أجبرتني على شربه، ولكنها لم تنجح تماماً، لأني كنت أشرب القليل من ذلك النقيع الأصفر الأخضر المقرف، وأشعر بعد قليل برغبة في التقيؤ.

كلفتني "إرينا" في تلك الأيام بعمل غريب إذ توجب عليّ تصنيع "المَهد" من بقايا الألواح الخشبية الجافة التي كانت مرمية خلف الأكواخ. أخبرتني "آنا" أن ذلك هو الشيء الذي ركضت بسببه قبل عدة أيام وتحدثت عنه مع الطبيب. كانت"آنا" تفهم ما يدور في داخل "إرينا" أكثر مني بكثير، وتعرف أيضاً أن "إرينا" لا يمكنها مخالفة أوامر الطبيب تحت أي ظرف بما في ذلك موضوع التحضير لولادتي.

وبالرغم من أني فعلت ما بوسعي، إلا أنني لم أتمكن من تصنيع (مهد) للطفل، بل صنعت بدلاً عنه معلف حيوانات.

ـ حتى يسوع المسيح الصغير نام في المعلف ـ هدأت "آنا" من روعي، وبقية النسوة نظرن إلى إنتاجي بكثير من الريبة.

ـ مهدْ؟ ولماذا؟ قالت "بسنكا" وهي تزم شفتيها بقرف، وأضافت: إن الطفل في كل الأحوال لن يتمكن من العيش أكثر من نصف يوم.

لم يتمكن أي شيء من منع "آنا" من المساهمة في التحضيرات الجارية للولادة. استخدمت الصابون الذي كنت قد سرقته أثناء تنزيل التموين من السيارة في غسل المنشفتين ونشرهما في الشمس، لأن أشعة الشمس تقتل جميع المكروبات الضارة. تحدثتْ مع العديد من النسوة من مجموعات أخرى اللاتي عرضن المساعدة في عملية الولادة. أعطتهن إحدى المشرفات تنكة فارغة كي يصنعن منها أدوات حادة لقطع حبل السرة. حين أخبرتني "آنا" وكادت تطير من فرحها، أدركت في الحال حجم ما ينتظرني من مخاطر، لاسيما أن الأوساخ تحيط بي من كل حدب وصوب إضافة إلى الفاقة والخطر. كانت "بسنكا" محقة في كلامها. إذا تمكن الوليد وأمه من العيش في تلك الظروف نصف يوم فإن ذلك سيكون نوعاً من الإعجاز.

أفقت في الليل على حلم مروع، كنت خلاله أكبس أثناء الولادة. أرتني "آنا" البائسة طفلاً مشوهاً له وجه امرأة بالغة تشبه "كايسا" الميتة، وقد لُف بالشال الذي كان حول رقبتها. حين فكرت في وقت لاحق من جديد بما ينتظرني، أدركت السبب الذي جعل الآمرة في الأيام الأخيرة تُحسن من تصرفاتها معي، وتتوقف عن إزعاجي. كأنها توقعت موتي أثناء الولادة. إذا صبرت عدة أسابيع فإن هدفها سيتحقق وحده دون حاجة إلى مشاحنات مع الطبيب. سيتقلص عدد سجيناتها من جديد تماماً كما حصل وتخلصت من بعضهن بفضل الجائحة.

# دوبافكا

## (ضربت بقدمها بالروسية)

أخبرتنا الملازم "إرينا" في التاسع من آب أثناء الاجتماع المسائي، أن الاتحاد السوفيتي، والتزاماً منه بواجباته إزاء الحلفاء، والحركة الثورية العالمية، أصدر قبل يوم مرسوماً بإنهاء الحرب ضد اليابان من طرف واحد، وإن الـ "لاكبونكت" السادس سوف يدعم قرار الجيش الأحمر من خلال نشاط مسائي. كان لهذا القرار وقع سيئ بين النساء المنهكات اللاتي انتهين قبل وقت قصير من جائحة الديزنتريا، مما جعل إحداهن تجد في نفسها الشجاعة لرفع يدها والسؤال عن سبب عدم توزيع الحصة المقررة من الخبز قبل بدء النشاط المسائي.

ـ الحصة ستصلكن ـ ردت الآمرة. ستنقلها الخدمة اليومية مباشرة إلى أماكن العمل.

تطلعت علينا بعد ذلك وقاستنا ثم أعلنت:

ـ إذا كنت قد تركتكن تتضورن جوعاً فإني فعلت أمراً نافعاً يصب في صالح ومستقبل البشرية الشيوعي.

العمل في الخدمة اليومية يعني الالتزام عند الضرورة بالخدمة المسائية أيضاً. تركتني "إرينا" وحدي أضطلع بتلك المهمة في "لاكبونكت". أمرتني بداية بتعليق لوحة جدارية جديدة على جدران أحد الأكواخ، وكتبت لي بعد ذلك بالأزبوكية نص شعار "ستاخانوفسكي" الذي توجب عليّ نقله، وكتابته من جديد بأحرف كبيرة على ورق أحمر، وقصه وتعليقه على اللوحة الجدارية.

كان الوقت يقارب منتصف الليل على ما أظن حين نادتني "إرينا" إلى بوابة المطبخ، حيث كانت هناك عربة خشبية متداعية وعلى ظهرها حلة كبيرة مغطاة. أخبرتني "إرينا" أن الحلّة تحتوي على ذرة مسلوقة، ونبهتني أيضاً إلى أن عدد أكواز الذرة يعادل تماماً عدد السجينات العاملات. سألتها عما إذا كان بوسعي أكل إحداها. ردت عليّ بـ نعم. ذكرتها بحقي في حصة إضافية، ولكن "إرينا" بدلاً من الاستجابة لطلبي، أشارت لي باتجاه البوابة. سألتها عما إذا كنت سأذهب دون حراسة. نظرت بقرف إلى بطني وقالت:

ـ وهل يمكنك الهرب؟ جَرِّبي! حتى إني لن أُتعب نفسي في البحث عنك.

حين دفعت العربة، فاحت منها رائحة ذكية يصعب تجاهلها. لم آكل الذرة هنا من قبل، وعرفت من خلال أحاديث النسوة أن لها منافع أخرى ـ يمكن استخدام الأشبرة المتبقية بعد أكل حبات الذرة في غسيل الملابس، والتخلص من البقع التي يحدثها الطعام.

لم أشعر بالتعب في البداية من دفع العربة لأن الطريق كان مسطحاً وجافاً بسبب مرور سيارات النقل، ولكن حين انعطفت إلى الرصيف الذي تسير عليه المجموعة في طريقها إلى الغابة، كان الوضع أصعب. تلمست طريقي بصعوبة بسبب انزلاق عجلات العربة في بعض الحفر، ولأني وجدت أيضاً صعوبة في دفعها فوق بعض المطبات، بالرغم من أنها كانت ليلة مقمرة تسمح بالرؤيا لخلو المنطقة من الأشجار التي تم قطعها في جميع الاتجاهات. كنت في البداية أدفعها ولكني شعرت بعد ذلك أن سحبها سيكون أسهل، وبالرغم من ذلك، تقدمت ببطء شديد، وما زاد الطين بلة وتسبب في تشتيت أفكاري كانت الرائحة الطيبة وكمية الطعام الكبيرة التي أنقلها.

قررت خلال إحدى استراحاتي العديدة عدم الانتظار أكثر من ذلك، وأن آكل نصف كوزي من الذرة. بحثت في الحلة عن أكبرها، واخترته مستعينة بقليل من النظر وقليل من اللمس. كسرته إلى قسمين وبدأت أقضم حبات القسم الأكبر التي وجدتها قاسية ونصف ناشفه ومتوسطة الحلاوة، ولكني مع ذلك تلذذت بأكلها، إذ لم يحدث أن تلذذت بشيء مماثل خلال نصف السنة التي قضيتها في معسكر "أرتك". دسست القسم الأصغر من الكوز في الجيب السري لتنورتي، ولكني لم أتحمل أثناء استراحتي التالية، فالتهمته أيضاً. إذا توضح أثناء التوزيع وجود عدد أكبر من أكواز الذرة، فسوف سأخبرهم أني لم آخذ نصيبي بعد، ولكن إذا حدث نقص فمن البديهي أن تقوم الحارسة بتفتيشي لتتأكد من عدم إخفائي أحدها. يكفي عدة شهور ليتمكن ذلك العالم من ابتلاعي وجعلي أعترف بقوانينه الشبيهة بشريعة الغاب، حيث يبقى هدف الحياة واحداً: الحصول على أكبر قطعة من الطعام.

نهضت وعدت لدفع العربة من جديد. شعرت كيف تسيل قطرات العرق على جبيني، وتحرق في طريقها عيني وتتابع نزولاً لتحرق الشقوق الموجودة على شفتي. تبللت بلوزني فوق الكتفين وتحت الإبطين بالعرق حتى أصبح بالإمكان عصرها. خلعتها وخلعت القميص الداخلي بعد لحظات أيضاً. بقيت عارية حتى الخصر. ربما أكون قد تعريت للبعوض، ولكني بذلك خففت من حرارة جسمي. بدأ العطش بإزعاجي. شتمت نفسي لأني قبل بدء الرحلة لم أشرب كمية كبيرة من الماء.

كنت في منتصف الطريق حين سمعت حفيفاً آتياً من مكان ما بين ما تبقى من سيقان الأشجار التي تم قطعها. توقفت في الحال وأصغيت بانتباه وتوتر.

كان صوت تكسر الأغصان الجافة يفضح دهسات شيء ثقيل. إذا كانت دهسات دب أو سجين مجرمٍ هارب فالخطورة واحدة في كلا الحالتين. وجدت في طريقي غصناً ثخيناً، وضعته فوق العربة بجانب حلة الذرة. حين تحركت من مكاني أطلقت عجلات العربة صريراً مزعجاً.

# لوبا

## (تعني الذئبة أو العاهرة باللاتينية)

تابعتها مذ غادرت بوابة المعسكر. أرادت إفهام صغيرها، بأن تلك هي رائحة المخلوقات الخطرة التي تقتل في الشتاء غالبية أبناء جنسها.لقد بقيت الآن وحيدة مع ولدها الصغير.

رافقته إلى الصيد في القسم الثاني من الصيف. نجح مرة في صيد أرنب بري صغير، ووصل في مرات أخرى إلى وكر للفئران، حيث مزق بأسنانة عدداً من صغارها. إنها الآن لا تجهز نفسها للهجوم، وكل ما في الأمر أنها أرادت تعليمه كيف يسمع صوت الفريسة إذا لم يرها، وكيف يشمّ رائحتها إذا لم يسمعها أيضاً. اختارت لابنها طرقاً آمنة في الغابة، تم قطع أشجارها. كانت تدرك جيداً أن أي إصابة يمكنها أن تضعف من لياقته، ومن ثم تعني موته. كانت تلتفت وتتطلع بين الفينة والأخرى إلى ابنها لتعرف إذا لم يكن قد أضناه التعب لأن التعب، يمكن أن يتسبب أيضاً في ارتكاب العديد من الأخطاء التي تؤدي في النهاية إلى الإصابة.

رائحة البشر التي اشتمتها الآن تختلف عن تلك التي تعرفها. إنها تحتوي إضافة إلى رائحة العرق شيئاً مختلفاً أكثر رطوبة وملوحة، مما جعلها تشك بحقيقة ما تشعر به، وفيما إذا كانت تلك الرائحة تخص إنساناً أو حيواناً كبيراً، لم يصدف أن التقته خلال مسيرة حياتها.

دأبت الذئبة على الاقتراب من فريستها على الدوام بعكس اتجاه الريح. الأمر لا علاقة له برغبتها في إخفاء رائحتها لأنها في الأصل لم تُقرر الهجوم. كل ما في الأمر أنها كانت فضولية، ومن ثم أرادت اكتشاف صاحب تلك الرائحة والتأكد مما إذا كان إنساناً حقيقياً، سوى ذلك، كانت تعرف استناداً إلى خبرتها أن الإنسان مخلوق مجرد من حاسة الشم.

كان إنساناً، ولكنها حين اقتربت أكثر وتطلعت إليه من الجنب، اكتشفت فيه شيئاً مختلفاً. كان له بطن كبير، وهذا يبطىء في حقيقة الأمر من حركته، استمعت الذئبه الآن إلى صوت لهاثه الذي كشف عن تعبه وانهيار قواه. لم يسبق أن وجدت الشجاعة ـ وحدها أو برفقة أترابها ـ لمهاجمة إنسان، كما أنها لم تلتق في حياتها إنساناً متعباً، لاحول له ولا قوة بهذا الشكل. يمكنها أن تحاول الآن، ما هو الشي المجهول في الإنسان الذي يجعل الذئاب تخافه؟ كانت رائحة ذلك المخلوق مسكرة وشبيهة برائحة الدم الطازج.

تحققت الذئبه من وجود مسافة أمان بين ولدها والفريسة، ولكنها أحست ببريق خوف يلوح في عيني ولدها، مما قلل من ثقتها بنفسها إلى أن جاءت بعد ذلك لحظة الخوف الحقيقي. وقف الإنسان والذئب أحدهما في مواجهة الآخر. كلاهما يشعر بالتوتر وكل منهما ينتظر حركة الآخر. كشرت الذئبة عن أسنانها، وقاست فريستها. عليها أن تغرز أسنانها القاطعة في ساقها، ومن ثم تطرح عدوها الطويل أرضاً، ولكن هناك أيضاً ذلك البطن الكبير. ترددت الذئبة، هل يمكنها عضه، ألن تنزلق أنيابها فوق سطحه المكور.

أحدهما الآن يتطلع في عيني الآخر. فهمت الذئبة أن من يقف أمامها هي أنثى من البشر، كما أدركت أن حساباتها الآن لم تكن في محلها، لأنها ليست بالفريسة السهلة التي يمكن رميها من أول هجمة على الأرض، ومن ثم سوف تنتظرها حتى تغرز أنيابها بهدوء وحتى الموت في رقبتها. لقد عقدت تلك الأنثى البشرية العزم على الدفاع عن بطنها.

أطلقت الذئبة صيحة توعد، ثم تراجعت باتجاه ولدها. أدركت "سوزانا " في تلك اللحظة أنها نسيت إمساك العصا الغليظة التي كانت قد جهزتها فوق العربة.

السيد الأستاذ المساعد فوكنار المحترم،

أعترف أني خرجت بتلك المداخلة من جديد عن تعليماتكم الموقرة المتعلقة باطروحتي. اسمحوا لي أن أشرح لكم كل شيء. لقد أقحمت في عملي وصفاً قصيراً لحياة الذئبة وشعورها على طريقة ما يسمى بـ "الاستعارة العلمية". لقد سبق أن نبهتنا خلال محاضراتك المتعلقة بطرق كتابة المشروع العلمي في السمستر الماضي إلى وجود هذه الطريقة في شرح النصوص. أريد أن أضيف بأني لم أتصرف بهذه الطريقة انطلاقاً من مصلحة شخصية، بل لأن ذلك يصب بشكل مباشر في صلب موضوع أطروحة العمل التي تشير إلى خصوصية الأمومة وتطبيقاتها في أكثر الحالات حساسية وصعوبة، حيث يكون الحد الفاصل بين الحياة والموت في منتهى الدقة، ووجوده يتعلق بشيئين: تأمين الطعام والوصول إلى حالة الأمان (في كلتا الحالتين يكون الحل دائماً مؤقتاً)، وفي تلك الأوضاع بالذات عاشت الأمهات في "الكولاك"، حيث اتسمت حياتهن بالبقاء المؤقت. إن مستوى العلاقات المتبادلة بين السجينات بما في ذلك العنف، وتردي القيم الحضارية، كل ذلك، قَرّبَ الإنسان في "الكولاك" من الذئبة (أو من الحيوانات بشكل عام). حيث تُطبق شريعة الغاب homo homini lupus – الإنسان ذئب على أخيه الإنسان! وكما قال ز. فرويد s Freud: الثقافة هي ما يبعدنا عن الطبيعة، ومن ثم انهيار الثقافة يقربنا من التوحش.

إني على يقين بأنك سوف تقبل شروحاتي.

أريد في ذات الوقت أن أعتذر منكم لأني لم أحضر في هذا الأسبوع ساعات الاستشارة. عندي مشكلات صحية (سوف أحضر لك وثيقة تثبت عدم جاهزيتي للعمل)، وللتوضيح. إن ما أعاني منه لا يدخل في سياق العجز الصحي، لأن الحمل ليس مرضاً في حد ذاته. أريد الانتهاء من دبلوم التخرج في الوقت المحدد، وأنا على ثقة كبيرة بالنجاح، وكل ذلك بفضل ملاحظاتك القيمة، حتى إن المتلقية بدأت تهتم كثيراً بالبحث، وهي تسجل ذكرياتها في الدفتر، وحين سألتقيها ستقرؤها لي كي أسجلها في آلة التسجيل، وهذا يُسرع كثيراً من وتيرة عملي.

مع فائق الإحترام والثقة

لوتسيا هرليانسكا

الزميلة المحترمة هرليانسكا،

إذا لم تتخلصي من الحمل عليك إيقاف الدراسة! الحمل يعتبر سبباً وجيهاً لإيقاف الدراسة، كما إن عميد الكلية يقبل دائماً ذلك العذر. لهذا السبب أنصحك باستغلال تلك الفرصة. تابعي الآن بهدوء عملية الحمل والوضع، وأرضعي الطفل، وحين تنتهين من تلك الواجبات، يمكنك التفكير ملياً وبهدوء فيما إذا كان بوسعك العودة إلى المدرسة والانتهاء من دبلوم التخرج.

بالنسبة إلى قرارك، وإذا كنت تأخذين كلامي على محمل الجد: سأقول ذلك بشكل مباشر ـ إن دفاعك عن دبلوم التخرج في تلك الأوضاع سيكون مصيره الفشل. لقد لاحظت منذ زمن بعيد عدم استقرارك النفسي (لم أبحث حتى الآن عن السبب)، وللأسف كان لهذا تأثيره السلبي الواضح في قسم من دبلوم التخرج. لقد سبق أن تشكل عندي انطباع في السابق يشير إلى أنك تعطين الكثير لعملك، ولكني فهمت الآن أن المشكلة تكمن في مكان آخر. السبب عاطفي، وأخاف أيضاً ألا يكون إلى حد ما بسبب تشوش أفكارك التي سببها التغيرات الهرمونية التي ترافق عملية الحمل بشكل أساسي.

إن ما ترسلينه لي بشكل متقطع هو نموذج مأخوذ من أسلوب نصوص الرويات، وليس تسجيلاً لأحداث منفردة، تجري كل واحدة منها على حدة في سياق أسلوب التاريخ الشفوي. إن النص الذي أراه أمامي على الطاولة لا يمكن أن يكون كلام امرأة مسنة غير مثقفة، وفي هذا السياق أرى من واجبي التأكيد على الخطأ الذي ارتكبتُه حين سمحت لنفسي بمدحك منذ زمن قصير، وحين عبرت أيضاً عن فهمك الصحيح لمنهج وأسلوب التاريخ الشفوي. أنت لم تفهمي شيئاً! تقولين إن راويتك بدأت الكتابة على شكل مذكرات، ومن تلك أخذت تقرأ لك. إن هذا من الناحية المنهجية مرفوض جملة وتفصيلاً. أؤكد بشكل مبدئي أنك لست باحثة ـ علمية!

حمل هادیء، وولادة دون اختلاطات يتمنى لك بصدق
الأستاذ المساعد بيتر فونكار، دكتور علوم

# سفيدتلستفو أو روجدينيا

# (شهادة ميلاد بالروسية)

وُلد ابني ألكسي ألكسيفيتش لاوكو في السادس عشر من أيلول 1945. أتذكر بعض الأشياء فحسب. تملكني في المساء شعور غريب، حيث طغت على تفكيري في تلك الأيام مخاوف سوداوية مختلفة جعلتني أخاف على حياة الطفل أكثر من انتظاري ولادته. وبالرغم من تسرب دم كثيف داكن اللون في الليل، إلا أني بكيت ظناً مني بأن ما يحدث هو إجهاض وليس ولادة. حين بدأ بعد ذلك السائل الأمنوسي بالخروج اضطررت لإيقاظ "آنا".

لا زلت أرى وجوه النساء المتوترات الواقفات من حولي واللاتي كن مرة يأمرنني بالكبس، وحيناً بالتوقف، ومرة يطلبن مني أن أتنفس بسرعة وحيناً أن حبس نفسي. لا أذكر بوضوح ما إذا كن قد تجادلن في اللحظات المناسبة حول قطع حبل السرة.

ـ هل هو على قيد الحياة؟

وبدلاً من الرد، سمعت بكاءً شبيهاً بصفير طويل، وبعد ذلك جاء صوت "آنا" بالألمانية:

ـ "ألكسي". أُعمدك باسم الآب والإبن والروح القدس، آمين.

قالت إحدى السجينات المجرمات بعد سماعها بكاء الطفل المستمر، إنه يبكي بسبب رؤيته المكان الذي ولد فيه.

حين وضعوه بالقرب من ثديي، شعرت أنه بالكاد يمص حلمتي، ولكني كنت ضعيفة، ولم أتمكن من رفع رأسي لرؤيته.

ماذا يمكنني معرفته في تلك الأوقات عن الأطفال حديثي الولادة؟

بدا لي "ألكسي" الصغير ضعيفاً جداً، وهذا أول شيء أدركته. حين رفعته "آنا" ووضعته أمام عيني بعد أن قمن بتحميمه وتنشيفه، وكان جسمه لا يزال مغطى بطبقة بيضاء، وكأنه رُش بالطحين. قالت، إن ذلك لا شيء، وهذا يحدث دائماً، وإنهن سوف يحممنه من جديد حتى يتخلص من البياض العالق، وحسب قولها يجب ألا أهتم لأن بشرته حمراء داكنة.

ـ هل يشبه والده؟ ـ سألت "آنا".

لم يكن يشبهه. ركزت نظري على كل تقاطيع وجهه، على أنفه الصغير، وفمه الضيق، وجبينه المقطب، ورأسه المغطى بريش أسود كثيف على عكس خصلات شعر "ألكسي" الشقراء المجعدة. لا، لم أجد على ولدي أي شيء يمكنه أن يذكرني بأبيه. توقعت "آنا" أني لم أجده شبيهاً بوالده لأنها أومأت برأسها بسعادة:

ـ "ألكسي" هذا لن يكون بلشفياً.

أصبحت والدته من اللحظة التي بدأتُ فيها بتفحصه. تملكني إحساس جديد مختلف جمع بين الفرح والشجاعة. فتح ولدي في تلك اللحظة إحدى عينيه. كانت زرقاء فاتحة، مثل أبيه.

أخبرت المشرفات "إرينا" بالحدث في الحال، وتلك أبلغت المعسكر المركزي لأن الطبيب حضر في صباح اليوم التالي لكتابة شهادة الميلاد. دخل إلى الكوخ برفقة آمرتنا التي رمتني بنظرة ملأى بالحقد. لم تلتفت إلى الطفل على الإطلاق.

فحص الطبيب الطفل، وفحصني أيضاً، وأكد أن كل شيء سيكون على مايرام بما أننا بقينا ثلاث ساعات بعد الولادة على قيد الحياة. استغلت "إرينا" الظرف حين أصبح الكوخ خالياً ولم يعد هناك شهود لافتعال نزاع مع الطبيب. طلبت منه نقلي في الحال مع الطفل إلى "سانشاست". لم يرغب الطبيب حتى سماع ذلك لأن "سانشاست" مليء عن بكرة أبيه، والمرضى ينامون فيه على الأرض بين الأسرة. اقترحت "إرينا" بعد ذلك إرسال الطفل إلى دار الأيتام، ولكن الطبيب أجابها بأن ذلك غير ممكن في الوقت الحاضر. كرر عليها من جديد قرار العقيد "جورافين" القاضي بولادتي في "لاكبونكت" السادس حيث بإمكاني البقاء لرعاية الطفل. قال لها الطبيب أيضاً إن العقيد ربما لديه الأسباب الموجبة، وربما يتطلع من وراء ذلك إلى هدف يريد تحقيقه. ولكن "إرينا" لم تقتنع بأن العقيد يهتم بتلك السجينة، ومع ذلك أصر الطبيب على رأيه، وأخبرها أنه درس حالتي حقاً مع العقيد. كررت "إرينا" معارضتها قائلة: إن "لاكبونكت" السادس لا يمكنه بوجود طفل تنفيذ خطة إنتاج الخشب، ولكن الطبيب رفض اعتراضها بسرعة وقال لها: إن تأمين الانضباط هو من اختصاص الآمرة والحارسات. أمر بوضع "المهد" الذي منعت "إرينا" إحضاره إلى الكوخ بمحاذاة الجدار. بسبب الشروط الصحية، والصخب. سألته "إرينا" عن المخصصات. رد عليها الطبيب: للمرضعة لها الحق بنفس الزيادة التي تتلقاها المرأة الحامل. ورداً على سؤالها عن الوقت الذي يمكنني فيه العودة إلى العمل، أجابها الطبيب بضرورة إعفائي من العمل سبعة أيام كاملة، وبعد ذلك يمكنني العودة إلى الخدمة اليومية. أدارت "إرينا" رأسها تعبيراً عن عدم موافقتها. أضاف الطبيب حين وصل إلى

الباب بأنه سوف يرسل الشراشف كي يكون عندي ما ألف به الطفل، وأحفضه أيضاً.

لم أملك الشجاعة كي أنتقل وحدي دون إذن للنوم على اللوح الخشبي الموجود في زاوية الكوخ، ولكن "إرينا" لحسن الحظ أمرت بذلك أثناء الاجتماع المسائي. وبالرغم من أني لم أتمكن حتى من الجلوس، أجبرت على المشاركة في الاجتماع. كنت خائفة طوال الوقت من حدوث شيء لـ "ألكسي"، خفت ألا يبدأ البكاء علماً أنه في أول يوم من حياته كان هادئاً جداً، ولم أسمع سوى أنينه الضعيف. المشكلة كانت معي، ومع جسمي، لأني لم أشعر أثناء الاجتماع الصباحي وحتى لحظاته الأخيرة بحاجة للتبول، ولكني حين عدت إلى الكوخ وجدت سروالي رطباً.

أحضرت المركبة التي تنقل المؤونة كيساً مليئاً بأشياء تخص "ألكسي" في صبيحة اليوم التالي. لم تكن شراشف كما أخبرني الطبيب، بل ولكن ثياب أطفال مستعملة. اخترت بعضها ومزقتها لأستعملها خُرقاً للصغير. رغبت في غسلها أيضاً ولكني كنت لا أزال ضعيفة على حمل الماء. حتى الصابون الذي كان بحوزتي لم يعد موجوداً. حين رأت "آنا" الكيس عند المساء أدركت في الحال ما عليها فعله. قامت في البداية بغسل القطع التي يمكن استعمالها في خياطة قمصان لـ "ألكسي" أو يمكن استخدامها كحفاضات.. أعلنت بأن الطفل يملك ما يحتاجه الآن ونادت على بعض النسوة اللاتي ساعدنها أثناء عملية الولادة كي يخترن من الكيس ما يحتجنه لتصنيع اللفحات، والقبعات، أوالقفازات. كان لا يزال حتى الآن ثلث الكيس مليئاً بالثياب. وضعت "آنا" ما تبقى من الأشياء فوق دف نومها، ودعت بقية السجينات للمجيء وشراء ما يحتجنه، وبذلك نكون قد كسبنا على الأقل كومة تعادل كيلو سكر، وقطعتي صابون.

جاءت "لورا" بين الأخيرات.

ـ إنها من بقايا الأطفال الأموات ـ رمت جملتها وابتعدت.

بكيت كثيراً. لا بد أن تكون الألمانية المجنونة محقة في كلامها. إنها ثياب أطفال موتى وسوف يرثها "ألكسي" من بعدهم، وفي أقرب وقت سوف يرثها طفل آخر من بعد "ألكسي"... بهذا الشكل تدور الحياة القصيرة في السجن.

عرفت "آنا" في الحال ما ستفعله بي كلمات "لورا". جلست بالقرب مني على اللوح، ومررت يدها على خدي وقالت:

ـ إنه هراء، لا يمكن أن تقوله سوى سجينة مجنونة. الأطفال يكبرون، وفي يوم من الأيام لا يمكن لهذه الثياب أن تناسبهم، لذا يضعونها جانباً. أو... ربما

تتذكرين كيف كان الجنود الروس ينهبون أينما حلوا. تلك الثياب على الأغلب مسروقة، ولكنها بالتأكيد ليست من.... أموات.

ولكني تابعت بكائي، وبعد لحظات شاركني "ألكسي"، وكأنه لا يزال متصلاً بي بحبل سرة غير مرئي، تعبُر مخاوفي من خلاله كما كان يحدث حين كنت أحمله تحت قلبي. رغبت في تهدئته لذا قربت حلمتي من فمه، لكنه رفضها، وتابع البكاء. دسستها أعمق في فمه ولكن طفلي زاد من وتيرة بكائه إلى أن احمر وجهه وبدأ يختنق، وكأنه لم يتمكن من التنفس. أخذته "آنا"، وجعلت تهزه بين ذراعيها وتغني له. بدأ بكاء "ألكسي"، أو زعيقه في حقيقة الأمر بالتراجع وراح يخف أكثر فأكثر، وحين غفا وضعناه في المهد، عاد ليبكي بعد لحظات من جديد مما اضطرنا لتكرار العملية. حاولت إرضاعه في البداية، لكنه حوّل بكاءه إلى زعيق. أخذته "آنا" مني وبدأت تغني له.

لم تتمكن "بسنكا" قبل ذلكِ من إجبار "آنا" على الغناء بهذه البساطة. أدركت أن الغناء من الآن فصاعداً سوف يكون في الطرف الثاني من الكوخ مما أغضبها، وجعلها عاجزة عن التأقلم معه. لملمت حوائجها وهي تهمهم إضافة إلى مخدة القش مثل مثيلاتها من المجرمات، وعبرت الممر الموجود بين العوارض الخشبية، وتوقفت عند السجينة التتارية الصامتة التي كانت تنام مقابلي. قالت "بسنكا" شيئاً غير مفهوم من جديد، ورمت أشياءها على لوح الخشب الذي تنام عليه التترية، ثم رفعتها بيديها الكبيرتين من قبة بلوزتها. لم تفهم التترية المسكينة بالطبع ما يجري، وما الذي تريده منها المجرمة التي يخافها الجميع، لذا تسمرت مرتعبة في مكانها. رمت لها "بسنكا" لحافها على الأرض واستلقت مباشرة على لوحها الخشبي الفارغ. حين اكتشفت أن التتارية لا تزال واقفة بالقرب منها دون أن تفهم ما يحدث، أومأت لها برأسها باتجاه لوحها السابق. رفعت التتارية لحافها عن الأرض وذهبت إلى هناك دون إحداث ضجيج. ولكنها مع ذلك لم تجد الشجاعة لتستلقي مباشرة في مكان المجرمة الخطرة إلا حين تأكدت من أن "بسنكا" لم تعد تعيرها أي اهتمام. لفت جسمها بالبطانية وارتمت على الخشبة تاركة ثقباً صغيراً ظهرت منه عيناها السوداوان، وجعلت تراقب من خلالهما "بسنكا" التي كانت مستلقية في الطرف الثاني من الكوخ.

حتي "آنا" تابعت بحذر شديد تصرفات "بسنكا"، وبالرغم من نوم "ألكسي" إلا أنها أضافت أغنية جديدة ألمانية تساعد على النوم. بكى"ألكسي" أربع مرات في الليل، وكان على "آنا" في كل مرة تهدئته بأغانيها.

اعتقدت النسوة أن "ألكسي" يبكي لأن أحشاءه تنتفخ بسبب حليبي، فالعلف المطبوخ الذي آكله يتألف بشكل أساسي من الملفوف العفن والبقول. علموني كيف أمسد بطنه، وأطوي ركبتيه الصغيرتين إلى جسمه كي يتخلص

من الغازات. حتى تلك الطرق لم تساعد، لأن "ألكسي" تابع البكاء بصوت مرتفع ومرات عديدة. لم يزعج بكاؤه أحداً في أوقات النهار لأننا كنا وحيدين، وغالباً ما كنت أنجح في تهدئته، لكن الوضع كان أسوأ في الليل. كانت المجرمات يتأففن، وكنت أتفهم تصرفاتهن. استحقت النسوة بعد يوم كامل من العمل الشاق في الغابة نوماً هادئاً في الليل، وليس من العدل أن يقوم "ألكسي" بإيقاظهن ثلاث أو أربع مرات. قالت لي "بسنكا" بعد أسبوع تقريباً بأن الطفل يمكنه البكاء في الصباح وفي المساء، ولكن في الليل: لا. قالت ذلك بنبرة هادئة، وكأنها أرادت أن تتحدث معي كصديقة. لم تفهم على الإطلاق أن الطفل يبكي حين يكون مجبراً على ذلك ولا علاقة لي بالأمر.

انتشرت في الكوخ مع وصول "ألكسي" رائحة جديدة نفاذة أكثر بكثير من الرائحة التي تطلقها الأجساد المتعرقة، أو لفافات الأقدام، والخرق الملأى بالخراء أو الضراط الذي كان يزعجنا. نشرت حفاضات "ألكسي" رائحة غريبة قارصة لم أعرفها من قبل، والغريب في الأمر أن المجرمات لم ينزعجن حتى الآن منها.

صرخت "بسنكا" في الليلة التالية وأمرتني أن أهدىء الطفل، لأنها إذا نهضت من مكانها فإن الأمر لن ينتهي على خير. لحسن الحظ هدأ "ألكسي" فترة قصيرة. أجبرت نفسي، على أن أبقى صاحية. حملته مع إطلالة الفجر بين ذراعي قبل أن يبدأ في البكاء. تمكنت بعد ذلك في فترة الصباح من أخذ غفوة صغيرة، لكن الحارسة جاءت وأيقظتني بصراخها القوي. أعلنت "إرينا" أثناء الاجتماع المسائي أنهم وجدوني نائمة في الوقت الذي تعمل فيه سجينات أخريات من أجل رفعة وتقدم شعوب الاتحاد السوفيتي. نبهتني إلى أنني إذا كررت فعلتي وتكاسلت أثناء اليوم مرة أخرى فسيكون مصيري "الكارتسير" بغض النظر عما إذا كنت مرضعه أم لا. قررت "إرينا" منعي من أستغلال قوانين الاتحاد السوفيتي الرحيمة أكثر، وإعادتي في الحال إلى مكان عملي في الخدمة اليومية.

كانت الأيام في نهاية شهر أيلول مروعة. توقعت زيادة وزن "ألكسي"، ولكني وجدته أصغر مما كان عليه عند ولادته. برزت عظام حنكيه من تحت بشرة وجهه الصفراء، كما تشكل قيح أخضر في عينيه. حاولت النسوة تهدئتي، وقلن إن هذا أمر عادي عند الأطفال حديثي الولادة، ولكني كنت على يقين بأن الوضع يتطور نحو الأسوأ. كان يبكي بعد الرضاعة وبعد أن يسحب مني آخر نقطة حليب، لأنه لا يزال يعاني من الجوع. المجرمات القديمات اللاتي كن يعملن في المطبخ قمن بوزنه عدة مرات. كان وزنه ثابتاً ـ ثلاثة كيلوغرامات.

كانت "آنا" تجلب لي من الغابة مع بقية النساء توت العليق الذي تعلمت تحضير مربى حامض وكثيف منه، حتى هذا لم يمنح جسمي ما يكفي من الغذاء ليتمكن من إنتاج كمية أكبر من الحليب. أذعنت لنصيحة "آنا" وسمحت لها ببيع بضع صفحات من كتاب الصلوات لأنهم توقفوا في تلك الأثناء عن تقديم أوراق لف التبغ. إن استخدام بعض صفحات كتاب الصلوات كوسيلة مساعدة للتدخين لا بد أن يكون نوعاً من الكفر، ولكن "آنا" طمأنتني قائلة بأنها تنزع الصفحات التي لا حاجة لي بها هنا فحسب. كانت الصفحات الأولى التي كتبت عليها أناشيد عقد القران، وتلك التي تستخدم عند مباركة الكنائس والمدارس الجديدة، وبعد ذلك تلك التي تبارك البيض والدهن الذي يُبدل بأناشيد القديسين.

كل هذا لم يساعدني في شيء لأن حليبي بقي على ماهو عليه، ومن ثم استمر "ألكسي" في البكاء. نصحوني بعلك الخبز وخلطه بقليل من السكر ولفه بخرقة رقيقة، أضعها في فم ابني كي يتمكن ولو قليلاً من مصها، لكنه رفضها. كان بحاجة إلى حليب.

لم أتجرأ على أن أطلب حضور الطبيب من الآمرة لأنها بالتأكيد لن تفعل. كان ابني يشكل عندها حجر عثرة تعيق طريق سير العمل في "أرتك"، وفي الوقت الذي سيموت فيه ستتحقق مقولتها بأن الـ "لاكبونكت" السادس غير مهيأ لاحتواء الأمهات مع أطفالهن.

إن قلة حليبي حسب "آنا" تكمن في كوني متعبة، وبحاجة إلى النوم ليلة كل ليلتين على أقل تقدير. أرادت تشكيل فريق من النساء اللاتي سوف يتبادلن العناية بـ "ألكسي" وتهدئته حين يبدأ بالبكاء، ولكن ذلك بدا غير مقنع. إن كان هذا أو ذاك فعليهن إيقاظي كي أرضعه. لم أصدق وجود نسوة غير "آنا" كن على استعداد للتضحية بعدة ساعات نوم، حتى لو كان ذلك لليلة واحدة. جربت "آنا" ذلك. تمكنت بوساطة الغناء من تهدئة "ألكسي" وجعلته ينام ساعة على الأقل، مما سمح لي بالاستراحة كما لم أعرف منذ زمن طويل، ولكن "آنا" بدت في اليوم التالي وكأنها تصارع الموت. اهتزت يداها وازرقَّ ما تحت عينيها.

أنا والدة "ألكسي"، وأنا من عليها تحمّل كل ما تعنيه هذه الكلمة. هذا هو الواقع، وهذا هو الشيء الطبيعي. حاولت أحياناً أثناء عملي في السخرة اليومية أن أختبىء في مكان ما كي أغمض عيني لحظة وأتنعم بنوم قصير، ولكن هذا أيضاً لم يكن ممكناً. حين استلقيت مرة فوق العشب الموجود خلف الكوخ، جاءت السجينة التي تشاركني الخدمة بعد لحظات وأخبرتني أن الحراسة تبحث عني لأن "ألكسي" يبكي من جديد.

كان عليّ البقاء ليلة بعد ليلة على أهبة الاستعداد كي أضع "ألكسي" على ثديي مباشرة بعد أول تنهيدة لأني كنت أخاف من "بسنكا". لقد سبق أن كررت مرات عديدة تهديدها بخنق الطفل إذا أيقظها. رجوتها بأن تعود إلى سريرها الخشبي الموجود في الطرف المعاكس من الكوخ حيث لن يقطع بكاء الطفل عليها نومها، لكن كلامي أغاظها أكثر. تذمرت بقية النسوة، وأجبرن إحدى المجرمات القديمات على الطلب من "إرينا" أثناء الاجتماع بوضع الطفل في مكان آخر. صرخت فيها "إرينا" وسألتها أن تعتني بنفسها، لأن قرار بقاء الأم مع ابنها في "لاكبونكت السادس جاء من القيادة، والأوامر لا نقاش فيها.

أيقظتني في ذات الليلة ضربات على وجهي. وقفت فوقي "بسنكا" وبدأت بالصراخ. أخبرتني أنه الإنذار الأخير. بكى "ألكسي" من جديد ولكني كنت تعبة إلى درجة جعلتني لا أشعر بذلك. أطبقت "بسنكا" يدها حول رقبتي وبدأت بخنقي. صرخت بأنها ستقتله إذا أيقظها من نومها مرة أخرى. رفعتني بعد ذلك ودفعتني باتجاه "المهد" كي أنتبه إليه أكثر، ولكن حنقها بقي مستمراً لأنها راحت تزرع الكوخ جيئة وذهاباً، وترفس الألواح الخشبية، وتضرب كل سجينة تمر بالقرب منها. اغتاظت لأن بعضهن نائمات في حين بكاء الطفل يوقظها.

فضلتُ في الليلة التالية عدم وضع "ألكسي" في "المهد" وتركه بقربي كي أتمكن من حمايته. سمعتُ الصفارة التي تعلن عن حلول المساء كنذير بالموت. لم أتجرأ بالطبع على غلق عيني. ركعت على اللوح الخشبي وحاولت الصلاة، ولكن الذكريات بدأت تهاجمني. رأيت مرة أمامي "ألكسي" وهو يقفز من نافذة غرفتي، وبعد ذلك أمي واقفة أمام البيت، وهي تتطلع إلى السيارة التي نقلتني فيها الجنود السوفييت. استيقظت في ذاكرتي صورة وجه "كايسا" وبعدها مباشرة منظر الذئبة التي قطعت طريقي في تلك الأمسية في الغابة...

أخذ "ألكسي" يتلوى بعد ذلك، حملته في الحال ووضعته على ثديي. رضع، تجشأ ثم غفا. كان عندي على الأقل ساعة للنوم، ولكني حاولت إبقاء عيني مفتوحتين.

# تي بيلا ف ـ أرميي؟

# (بالروسية هل كنت في الجيش؟)

كنت نائمة بالتأكيد. استيقظت على بكاء "ألكسي". أدركت وأنا لا زلت نصف نائمة أن شيئاً قد حصل في الكوخ المعتم. حين أخذ طفلي حلمتي، وتوقف عن البكاء، سمعت طقطقة بعض ألواح الخشب. لحسن الحظ لم يكن لوح "بسنكا"، ولكني حين وقفت وأسندت طفلي على كتفي كي أساعده على التجشؤ رأيت جسداً مستلقياً على الأرض تماماً بمحاذاة سريري. كان جسد "بسنكا". لابد أنها قررت أثناء ثورة غضبها الذي لا نهاية له، أن تنام بالقرب منا كي لا يفلت منها أقل صوت امتعاض من "ألكسي". لم أسمح لنفسي من شدة خوفي حتى بلمسها، لا سيما وأن ما أوصلها إلى حالة الجنون تلك كان سببه إيقاظها.

كنت متأكدة من أن "بسنكا" حَضّرتْ نفسها في تلك الليلة لقتل ولدي. جلستُ على سريري، وبدأت أفكر بالطريقة التي يمكنني فيها حمايته منها. بدا لي بالرغم من ذلك أنه لا بد من الذهاب إلى "إرينا" وإخبارها بكل ما يحدث لأنها الوحيدة التي يمكنها أن تمد لي يد العون. ولكني في ذات الوقت كنت شبه متأكدة من أنها لن تساعد. لقد كان "ألكسي" عندها حملاً ثقيلاً تريد التخلص منه، و"بسنكا" تعني لها الحل. كانت الظروف بأكملها ضدي.

بدأ ضوء النهار بعد ذلك بالظهور، والانتشار في أرجاء الكوخ. "بسنكا" لا تزال مستلقية على بطنها بالقرب مني، وقد غطت وجهها بمعطفها القطني البني الذي كانت تستخدمه حتى في أقسى أيام الصيف حرارة. رن بعد ذلك جرس الاستيقاظ، وسُمع في الحال صوت تدوير مفتاح القفل، وتلاه دخول إحدى المشرفات.

ـ باديوم! باديوم! ـ صرخت بأعلى صوتها كما تفعل كل صباح.

النسوة اللاتي لم يستيقظن بعد تلقين ضربة بغصن الشجرة على سيقانهن. حين وصلت إلى "بسنكا" ووجدتها لا تزال مستلقية، فكرت لحظة. لا بد أنها وازنت الأمور، ولم ترغب في المخاطرة والتسبب في عراك لا يعرف أحد نتائجه مع تلك المرأة الشريرة القوية. رفستها في البداية على ساقيها بلطف، وحين وجدتها لا تتحرك، تكرمت عليها برفسة قوية، وحتى تلك لم تُحدث ردة الفعل المطلوبة. انحنت الحارسة وأمسكت "بسنكا" من يدها. تركتها ورمتني بنظرات تساؤل:

ـ ما الذي حدث هنا؟

رفعت رمانتي كتفي فحسب.

هرعت الحارسة خارجة من الكوخ. هنا اقتربت غالبيتنا من "بسنكا" وانحنينا فوقها. كانت يداها باردتين. حين رفعن المعطف عنها، رأيت رأسها مفتولاً بشكل غير طبيعي إلى جنب. تذكرت "كايسا" في الحال. لم يكن حول "بسنكا" قطرة دم واحدة.

ـ هل كنتِ في الجيش؟ سألتني الملازم "إرينا".

ـ لا، جاوبتها.

كنا نقف في مكان تجمع السجينات في "لاكيونكت" حيث تمدد بالقرب منا جسد "بسنكا" الهامد. تصرفت "إرينا" تماماً كما فعلت قبل عدة شهور. التحقيق في الجريمة قبل تناول الفطور، والفارق هنا هو أني كنت المتهمة. سألتني "إرينا" إذا كنت سأعترف بالجريمة التي ارتكبتها. أدرت رأسي. بدأت "إرينا" تتمشى أمام أرتال المجموعة. تمشت من أمام الأول حتى الرابع وبالعكس. كانت تشرح، وجديلتها الطويلة تقفز بغضب فوق ظهرها بأن كل واحدة تعرف بالتهديد الذي أطلقته "بسنكا" بقتل طفلي، لهذا فإني استبقت الأمور وكسرت رقبتها. هنا، رفعت "آنا" يدها طالبة الحديث. لم تنتبه "إرينا" لذلك ولكن إحدى الحارسات نبهتها. نادت "إرينا" على "آنا" وطلبت منها الاقتراب أكثر إلى الأمام والتحدث. قالت "آنا" إنها تجاورني في السرير، وإنها استيقظت في تلك الليلة على صوت سقوط جسد "بسنكا" على الأرض. حين فتحت عينيها، رأت إحداهن تركض مبتعدة بسرعة بين ألواح النوم.

ـ هي؟ أشارت "إرينا" بإصبعها إلي.

ـ لا بالتأكيد، ردت عليها " آنا. ـ اختفى ذلك الجسم في العتمة في مكان ما في وسط الكوخ.

ـ من كان إذاً؟ سألت "إرينا".

ـ لا أعرف، لم أتحقق، اعترفت "آنا".

ـ إذا كنت لا تعرفين، اخرسي، وارجعي إلى مكانك!

والتفتت بعد ذلك إلى مجموعتنا:

ـ الآن وحالاً يجب الكشف عن المجرمة. لقد كشفتها، ولكن من أجل التأكد، سأسأل من جديد عما إذا كانت تريد إحداكن الاعتراف بارتكاب الجريمة!؟

حدث صمت طويل. بعد ذلك، وكما لو تغرز السكين في الزبدة الطرية، جاء صوت بكاء "ألكسي" قاطعاً الصمت. دون أي تفكير ـ ودون إذن ـ تحركت باتجاه الكوخ. إحدى الحارسات قطعت طريقي. أدركت في الحال أن نهايتي ونهاية ولدي الصغير قد حلت: إنهم سوف يقتادوني الآن بعيداً عنه، وربما في الغد سيعلقون مشنقتي، ويبقى الصبي وحيداً، ويموت من الجوع.

ـ ماذا تريدين؟ جاء صوت "إرينا" القاسي.

فكرت أنها تمنحني الفرصة الأخيرة لإطعام طفلي، ووداعه، ولكن سؤالها لم يكن موجهاً لي.

تقدمت المجنونة "لورا" بخطوات ثقيلة إلى الأمام.

ـ ماذا تريدين؟ كررت "إرينا" سؤالها.

ـ أنا من قتلتها، ـ ضحكت "لورا".

ـ أنت؟

لوحت "لورا" بيدها دون اهتمام:

ـ ما أكثر اللاتي قتلتهن....

حين وصل الطبيب من المعسكر المركزي (زونا)، تركتنا "إرينا" نصطف كي نتابع فحص الجثة. أعلنت أن المجني عليها "خارلاموفوفا" أصيبت بكسر في رقبتها، وهذا لا يمكن لأحد القيام به إلا إذا كان قد خضع لتدريب عسكري خاص. مثل "لورا برجر". قال الطبيب شيئاً غير مفهوم، وكأن تقرير الآمرة لم يلق عنده اهتماماً يذكر. حين نهض ووقف أمام الجثة، أراد رؤيتي ورؤية الطفل. غادرنا معاً باتجاه الكوخ.

قرر بعد معاينة روتينية أجراها على "ألكسي" أن الطفل بحاجة إلى المزيد من الغذاء. يجب أن يحصل كل أسبوع على علبة كونسروة من الحليب المكثف. أومأت "إرينا" برأسها. تفحصها الطبيب. لقد سبق وعرفته، وتوقعت الآن أنه سوف يقول شيئاً يهين به "إرينا" ويزعجها في ذات الوقت. بدأ يشرح لها بشكل مفصل عن السبب الذي يجعلهم يضعون الأمهات مع أطفالهن حديثي الولادة في مشافي المعسكرات أو في الأكواخ الخاصة. السبب الأساسي هو عدم الرغبة في إزعاج غيرهن من السجينات. تطلعت "إرينا" إليه غير وائقة، وأحسست في الحال أنه يُجهز نفسه لمهاجمتها، وهذا ما حصل في الحال لأن الطبيب أمرها بوضع ستارة خشبية عازلة في كوخنا تفصل على الأقل الأمهات مع أولادهن عن السجينات. ولدهشتي، لم تحتج "إرينا" على اقتراحه، بل إنها أخبرتني بعد ذلك بوقت قصير أين وكيف أنجر من الخشب جداراً عازلاً جديداً، متصنعة الهدوء.

تحدثت طويلاً في المساء مع "آنا" عن كل ماجرى. بدا واضحاً لنا أن الآمرة زرعت بيننا في الكوخ جاسوسة كي تنقل إليها الأخبار، لأنها ذكرت أن "بسنكا" هددتني بقتل الطفل. أسوأ ما في الأمر أنها لم تتصرف لمنع ذلك، وهذا ما يؤكد أن قتل "ألكسي" هو هدف "إرينا" الأساسي. كانت فكرة "آنا" هي أن أفعل ما بوسعي للاتقال في أسرع وقت مع طفلي من "أرتك". شكل الطبيب في ذلك الأمر أملنا الوحيد، ويمكن القول إنه الإنسان الوحيد الذي يمكنه مساعدتنا وإعطاء الأمر بإخراجنا من هنا. ولكني بالمقابل كنت أعرف أننا عنده مجرد سلاح يستخدمه ضد "إرينا"، فإذا أخرجنا من هنا فسوف يضطر للبحث عن سلاح آخر.

ـ أهاً، إذاً تظنين أن الطبيب يستخدمكما لإثبات عدم كفاءة "إرينا" في قيادة المعسكر... ـ لاحظت "آنا".

ـ إذا حدث ومات "ألكسي"، ـ أنهيت فكرتي.

تنهدت "آنا" وأدارت رأسها. لم يكن ذلك حلاً مناسباً.

## كوندنسد ميلك

## (حليب سائل مكثف بالإنكليزية)

أحضروا بعد بضعة أيام لـ "ألكسي" أول كونسروة حليب مكثف من الحجم الكبير، وأظن أنها تنكة من خمس ليترات من المساعدات الحربية الأمريكية، والتي بفضلها تمكنت من سداد الدَين الذي كان عليّ من الأوقات التي كانت فيه السجينات يحملن إليّ ثمار الغابة. كان لنصف فنجان من الحليب عالي الكثافة والتحلية ثمن كبير. كانت "آنا" تبادله بالسكر والخبز والصابون وحتى بالتبغ الذي كنا نضعه جانباً لاستخدامه كالنقد الذي سوف يفيدنا لاحقاً في مبادلاتنا التجارية.

حين وقفت النسوة وهن يحملن صحونهن، اخترقت "تانيا" الصف مع "يلينا" لرغبتهما في تصدر الدور. حتى المجرمات يردن الحليب.

ـ املأيه بالكامل ـ صرخت "يلينا" ودست صحنها أمام "آنا".

ـ وماذا ستدفعين؟ سألتها "آنا" بكل هدوء.

ـ ماذا؟ بحلقت "يلينا".

واستدارت بعد ذلك باتجاه "تانيا" وقالت:

ـ هل سمعت ما قالته؟

ـ أمي، هل أكسر يدها؟ اقترحت "تانيا"، وعيناها تشعان فرحاً.

ـ حين تريدين كسر يدي، لن أمنعك ـ رفعت "آنا" كتفيها ـ ولكني أريد أن أطرح عليكما سؤالاً قبل ذلك: هل تعتقدان حقيقة أن "لورا" هي من قتل "بسنكا"؟ إني لا أظن ذلك!، وإذا كانت قد فعلتها مجرمة أخرى فلا بد أنها لا تزال موجودة بيننا. وجميعنا يعرف ـ مررت "آنا" نظراتها بين النساء الواقفات ـ أن السبب الذي جعل "بسنكا" تموت بهذا الشكل هو رغبتها في إيذاء الطفل. تلك التي قتلتها، فعلت ما فعلته كي تحمي "ألكسي" من الموت. إذا حاولت إحداكن القيام بأي فعل يمكنه أن يؤذي الطفل فإني أبشرها الآن بنفس مصير "بسنكا".

ـ ومن قتل "بسنكا" يا تُرى؟ لا أظن أنك أنت من فعلها! ـ ضحكت "تانيا" بسخرية.

ـ أنا بالتأكيد لم أقتلها، ولكن واحدة منا فعلت ذلك، ـ أنهت "آنا" النقاش.

ـ لا أفهم سبب فتحك الموضوع الآن، ـ قالت "يلينا" باستغراب. ـ لقد جئنا لشراء الحليب تماماً كما الأخريات. أخبريني ما تريدينه مقابله، وسأعطيك إياه.

ـ نبادل بالتبغ، ـ وافقت "آنا" على الصفقة.

تصرفت "تانيا" وكأنها لم تفهم ما قيل، ولكن "يلينا" وضعت يدها على كتفها.

تغلبت "آنا" هذه المرة على المومستين، علماً بأني كنت أُفضل التراجع. بقيت الخطورة بعد موت "بسنكا" على حالها كما في السابق. "يلينا" بتذاكيها، و"تانيا" بفظاظتها العدوانية القوية.

أحب الجميع مذاق الحليب المكثف، ولكن "ألكسي" لم يتحمله. وضعت في فمه بضع قطرات، بل إني دهنت حلمتي، ولكن تقاسيم وجه طفلي كانت تتقلص حين يلمس الحليب لسانه. وصلتنا لسوء الحظ من المركز في الأسبوع التالي كونسروة حليب أصغر حجماً من سابقتها. لم يعد لدينا ما نتاجر به الآن سوى العلبة الفارغة التي تستعمل في السجن عوضاً عن طبق الغسيل. احتفظت بالعلبة الأولى لنفسي كي أستخدمها في غسل خرق "ألكسي".

استخدمت "آنا" خلال فترة قصيرة جميع ما نملكه من التبغ. بادلته مع النسوة بالثمار التي كنّ يجفّفنها لتصنيع الشاي. سيحتاج الطفل في الشتاء إلى الفيتامينات.

السيد الأستاذ المساعد "فونكار" المحترم،

بما أني لم أتسلم جوابكم على "إيميلي" الأخير، لذا فإني أرسله إليكم من جديد.

بداية أريد أن أؤكد لكم من جديد بأني أعمل بجد في موضوع أطروحتي التي أخطط لتسليمها في الوقت المحدد.

النصوص التي أرسلها إليكم هي في الحقيقة نسخة لما سجلته محدثتي في آلة التسجيل. إنني أنحي جانباً أثناء الوصف بعض الأشياء التي لا علاقة لها بالموضوع، والتي تدخل في سياق العلاقات الإنسانية (مثلاً حين تقول: تفضلي واشربي الشاي، وما شابه) أو حين تعتذر وتقول: (لا يمكنني أن أتذكر)، أو حين تكرر كلماتها بالخطأ. إن المتلقية (الراوية) تختار أحياناً الكلمات، وتسردها بلكنة أهالي "شبيشسكا" (انتبهت إلى أنها في غاليبتها من أصل ألماني)، وربما أكثر باللكنة الروسية، وبالتحديد كلمات مثل يا إلهي "الكولاك". التي أتركها على حالها ولا سيما حين لا أجد لها مرادفاً بالسلوفاكية.

لاحظت أنهم في الـ "كولاك" يستخدمون ما يدعى "بدائل الأشياء" بطريقة مسلية. مثلاً، يستخدمون عوضاً عن الأشياء الحقيقية بدائل يمكنها أن تؤدي الوظيفة المطلوبة. بدًلاً من الصحن: صفيح، و بدلاً من الحفاضات: الخرق، وبدلاً من التبغ: أوراق جافة، وبدلاً من أوراق السجائر: الجرائد أو أوراق أخرى، وبدلاً من الصابون والجدائل: كوز الذرة، وهلم جرّا. يمكن القول إن حياة "الكولاك" بأكملها تعمل على أساس تبديل الأشياء الحقيقية بأشياء أخرى. أفكر بضم ملحق خاص في صورة معجم، حيث أضع شرحاً لجميع تلك البدائل المساعدة والأدوات. هل سيكون ذلك مفيداً؟

أكتب إليك أيضاً بسبب وجود مسألة علمية أحتاج فيها إلى نصيحتك. لا يمكنني تفسير بعض مواقف وأفكار المتلقية. تحيرني تبهوينها، وأحياناً بسخريتها من الأحداث الصعبة التي عاشتها في حياتها، وهذا يجعلني أشعر بأنها ترى في تلك الأحداث الصعبة شيئاً جيداً، ومسلياً، وفي أسوأ الأحوال خبرة جديدة، بينما رأيت في المراجع الأدبية ردود أفعال معاكسة لدى أخريات، تمثلت بالقرف وعدم الرغبة في الحديث عن تلك الأماكن المؤلمة والمؤذية بشكل عام.

أرجوك، انصحني كيف أفكر بالأمر، وكيف لي أن أُفسره. أرجوك أيضاً أن تنصحني ببعض المراجع التي تتعاطى مع دور المسيحية في تلك الآلام وآثارها على مجريات حياة الإنسان القادمة. عندي شعور بأن هذا سيكون المفتاح لشرح رؤية السيدة "سوزانا" التي هي من المتدينات بشدة.

لقد نشأتُ في عائلة ليبرالية لا تؤمن بالأديان، ولهذا السبب يوجد عندي نقص في تلك المعلومات. أعرف مثلاً أن المسيحيين يثمنون عالياً موضوع التضحية بالنفس، ولكنهم في ذات الوقت يرفضون فكرة الانتحار. وهذا يبدو لي بعيداً عن المنطق، وأنا بحاجة لمعرفة المزيد عن تلك الأشياء. أتمنى أن تفهمني.

مع جزيل الشكر

لوتسيا هرليانسكا

ملاحظة: يوجد في ملحق هذا الإيميل نسخة عن القسم الثاني من حديث السيدة "سوزانا" حيث تشير حسب كلامها إلى أحد أهم لحظات حياتها في "الكولاك".

# برازدنيك (العيد بالروسية)

يصبح المعسكر بعد مغادرة المجموعة إلى الغابة خالياً وهادئاً، إذ لا يبقى هناك سوى بعض المجرمات القديمات "زتشكي" اللاتي كن يشتغلن معي في السخرة اليومية. حين يبدأ "ألكسي" بالبكاء كنت أسمعه في الحال، ولم تنبهني إلى بكائه الحارسات سوى مرة أو مرتين.

دخلتْ في أحد الأيام، وربما كان ذلك في منتصف أيلول حين كان عمر "ألكسي" شهراً واحداً، "إرينا" خلفي إلى الكوخ، وكنت في حينها أرضع طفلي. أخبرتني أن التعليمات تسمح للأم بإرضاع طفلها مرة كل أربع ساعات ولمدة أقصاها ربع ساعة. لم ألحظ في حديثها ما يشير إلى سوء النية، لهذا تشجعت وشرحت لها بأن طفلي ضعيف جداً، وغالباً ما ينام أثناء الرضاعة قبل أن يشبع، ويعود ليبكي بعد ذلك بساعتين من الجوع. سمعتني الآمرة ولكنها أكدت بأن التعليمات يجب أن تنفذ حرفياً أثناء قيادتها للمعسكر.

ـ ولكني لا أملك ساعة، ـ قلت بالرغم من تنبيهها الأخير.

ـ ستحصلين على ساعة ـ أبلغتني الملازم بفرح، وأضافت: كبيرة وكهربائية.

حضر بعد عدة أيام جندي من المعسكر الرئيسي "زونا"، وركَبَ ساعة على الجدار الخارجي للمبنى الذي يوجد فيه مكتب "إرينا"، شبيهة بساعة رصيف سكة الحديد، لذا دأبت منذ ذلك الحين على التقيد بالوقت والذهاب لإرضاع "ألكسي" بطريقة لا تلفت الانتباه. كنت أحاول أثناء توزيع المهمات في الصباح المشاركة في العمل البعيد عن نافذة الآمرة، حيث أقوم بإرضاع طفلي خلف الكوخ. نجحت محاولاتي ربما أسبوعين.

بدأتْ بعد ذلك تحضيرات الاحتفال بثورة أوكتوبر الاشتراكية الكبرى التي يحتفل بها الشيوعيون في روسيا في السابع من تشرين الأول. احتل تنظيف معسكر "إرتك" مقدمة المهمات الملقاة على عاتق السخرة اليومية أثناء التحضيرات لذلك العيد. حين كنا نكنس ونمسح الأرض التي غطي نصفها بالبيتون المسلح، بالمياه الساخنة، وحيث كانت تقام اجتماعات الصباح والمساء، كانت عيون الآمرة طوال الوقت تراقب تحركاتي بانتباه. رتبنا العمل بحيث كنا نسكب الماء بدءاً من المركز باتجاه الأطراف، وبعد ذلك نقوم بتكنيسه. بذلت ما بوسعي لأبقى قريبة من الكوخ، وحسب التعليمات، يحق لي إرضاع "ألكسي" خلال اليوم في الثامنة، والثانية عشرة، والرابعة بعد الظهيرة. حين سمعت بكاء ابني كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف.

ألقيت نظرة على الساعة الجدارية، وبعد ذلك على نافذة "إرينا" الموجودة في أسفلها، حيث وقفت الآمرة تراقب من هناك سير العمل مصالبةً ذراعيها.

كانت ليلة "ألكسي" السابقة سيئة. لقد أفاق أكثر من خمس مرات، وبكى تماماً كما كان يفعل في الأسابيع الأولى، مما أثار حنق أحدى السجينات القديمات وجعلها ترفس الحاجز الذي كان يفصل حجرتنا الصغيرة عن نساء الكوخ لأنها لم تتمكن من النوم. كان "ألكسي" يتألم من بطنه لأني وجدت الخُرق التي كنت أستعملها بدلاً من الحفاضات مبللة بقيح رغوي بني غامق.

شاركت بنشاط كبير في التكنيس. ربما حين سترى "إرينا" الجهد الذي أبذله ستتراجع عن النافذة وتعود إلى عملها خلف الطاولة، وبذلك سأتمكن من مساعدة طفلي. كان بحاجة لتبديل حفاضته، وتمسيد بطنه، وحمله وأرجحته كي تتبدل وضعية أحشائه الداخلية المتعبة.

أصبح بكاء "ألكسي" ملحاً أكثر فأكثر. كان يناديني. ذكرت أمامي إحدى السجينات القديمات منذ وقت أن بكاء الطفل الشديد يمكن أن يخنقه، أو ربما يوقف تنفسه إذا كان ضعيفاً. وهذا، ربما، هو ما اعتمدت عليه الآمرة.

المومستان اللتان كانتا معي، كانتا تتطلعان إليّ بعين وبالأخرى على نافذة "إرينا".

ـ اركضي! قالت لي إحداهن.

ألقيت نظرة على النافذة، وحين وجدتها فارغة. هرعت باتجاه الكوخ حيث قمت بتبديل حفاضة "ألكسي" بسرعة كبيرة، وما أن انتهيت حتى سمعت من خلفي صرير الباب القوي. حملت طفلي الذي كان لا يزال يبكي بين ذراعي، واستدرت. كنت أعرف أن "إرينا" سوف تكون هناك. وقفتْ وبيدها مقشتي.

ـ عودي إلى عملك! قالت.

ـ الطفل مريض... بدأت الكلام.

رفعت "إرينا" المقشة، ولوحت بها في الهواء. اقتربت منها، و"ألكسي" بين ذراعي.

ـ طفلي بحاجة إلى طبيب.

ـ أكرر للمرة الأخيرة: عودي إلى عملك ـ زعقت "إرينا" هذه المرة في وجهي.

ربما ارتعب طفلي من صراخها لأنه زاد فجأة من وتيرة بكائه. دفعت بـ"ألكسي" دون تفكِير باتجاه ذراعي الآمرة التي التقطته باللاوعي بطريقة

تخلو من الرقة، ثم أمسكتُ المقشة وهرعت إلى الخارج.

أدركت حين بدأت بالتكنيس من جديد حقيقة ما حدث. لم أفكر أن جرأتي سوف توصلني إلى الـ"كارتسير" لأن رأسي كان يعج بأفكار مرعبة لها علاقة ببكاء "ألكسي" الذي كان لا يزال يُسمع من الكوخ الموجود خلف ظهري. الآمرة لم تخرج من الكوخ. لقد تركتُ طفلي الصغير وحيداً مع امرأة تريد إخراجه من هذا العالم، ووضعت بين ذراعي "إرينا" أكبر عدو لها. طفلي الآن تحت رحمتها دون شهود. لنفرضْ أنها فعلت معه "إرينا" ما تريد فإن أحداً لن يراها، ولن يهتم أحد بذلك. كان بكاؤه يحز دماغي، وكأنه يحدث مباشرة داخل جمجمتي.

ـ أرني الآن قدرتك، يا رب! تنهدتُ.

فجأة توقف "ألكسي" عن البكاء. قَتَلتهُ، عبرت رأسي تلك الفكرة. تركت كل شيء، وهرعت مسرعة باتجاه باب الكوخ. نحيت الحارسة التي وقفت هناك أثناء ذلك جانباً، وقفزت إلى الداخل. يا إلهي، "إرينا" تؤرجح "ألكسي" بين ذراعيها. نامَ. عَبَر وجهها للحظة وميض ابتسامة. لا أعرف في الحقيقة ما إذا كانت بادرة عطف منها أم سعادة لانتصارها، بينما فشلت في تهدئة طفلي، ولكنها نجحت. لم تقل الحارسة شيئاً. نحرتني ببندقيتها في كتفي. عدت من جديد إلى مكنستي. بعد لحظات جاءتني "إرينا".

ـ هل بطن الطفل على مايرام؟ سألتني.

ـ أظن ذلك.

ـ سأخبرهم في المطبخ كي يحضروا له قطعة بطاطا مشوية. اهرسيها له مع الشاي.

تولت "إرينا" مراقبة عملنا بعد الظهيرة. حين سُمع صوت بكاء "ألكسي"، انتفضتُ بشكل غريزي وتطلعت باتجاه باب الكوخ. وقفت "إرينا" في طريقي، وبالتحديد بيني وبين الباب كي تمنعني من التفكير بالذهاب لرؤية ولدي. لم يتوقف البكاء. عرفتُ أني لا أملك أي فرصة للوصول إلى "ألكسي"، وفي ذات الوقت لم يكن بوسعي تكنيس الأرض والإصغاء لمعاناة طفلي. تألمت في تلك اللحظة مئات المرات أكثر من ابني.

رق قلب "إرينا" بعد ثلاث أو أربع دقائق ودخلت إلى الكوخ. لا أعرف السبب ولكني في اللحظة التي سمعتها تشتم، أدركت بأنها تخفي شيئاً، وبأنها في الحقيقة كانت تنتظر اللحظة التي ستسمع فيها بكاء "ألكسي". لقد خرجت قبل لحظات من مكتبها، ووقفت في مكان لا يبعد كثيراً عن كوخنا، وكل ذلك كي تتمكن الآن من دخول الكوخ، و تهدئة "ألكسي"، كأن تلك المرأة

المجردة من أي شعور، أرادت التأكد من أن تخفيف آلام الطفل لا يحتاج إلى الكثير من الجهد، إذ يكفي حمله وأرجحته قليلاً.

أرادت "إرينا" أن تؤكد لي عدم أهليتي كأم لتربية طفلي، وأن إرضاء الطفل هو أمر في غاية السهولة، ولكني أم عاجزة لا أعرف التصرف، مما يجعل النساء في كوخنا دائمات الشكوى، لأن "ألكسي" يوقظهن كل يوم من نومهن. ولكني بالرغم من ذلك لم أقتنع بأن "ألكسي" يهمها إلى هذا الحد، لاسيما أن السبب الأساسي لوجوده هنا هو إلغاء بيت الأطفال بصورة مؤقته في المعسكر الرئيسي، والأمر برمته لا علاقة له بأهليتي أو عدم أهليتي.

حين توقف بكاء "ألكسي"، خرجت "إرينا" من الكوخ واتجهت بسرعة إلى مكتبها. لم تجد ضرورة لتتطلع في وجهي. كانت جديلتيها الكثيفتين تتراقصان على ظهرها. عبرت خاطري فكرة رهيبة. لابد أن "إرينا" خنقت طفلي الآن! لقد هدأته قبل ذلك، وهذا ما يمكنها إثباته في التحقيق. لم ترغب في إيذائه. ولكن ما هذا التخريف؟ هنا لن يقوموا بأي تحقيق... لم يعد يهمني شيء، رميت المكنسة جانباً وهرعت إلى الكوخ. ركضت باتجاه زاويتنا الصغيرة الموجودة خلف الحاجز الخشبي. وجدت "ألكسي" مستلقياً في "سريره"، وصدره الضعيف يعلو وينخفض بانتظام. إنه ينامُ بهدوء. عدت أدراجي بسرعة إلى مكان عملي.

بالرغم من أن شتائم الحارسة التي كانت تقف أمام الكوخ لم تساعدها في شيء، إلا أنها تسببت في خروج "إرينا" من مكتبها. قررت إرسالي في الحال إلى الـ"كارتسير". حيث أمرت بسجني عدة ساعات إلى أن يحين موعد الاجتماع المسائي. لم أسمع أنهم سجنوا إحداهن هناك وقتاً قصيراً كهذا.

كانت "إرينا" تعرف أن كل ساعة أقضيها في الـ "كارتسير" تعني يوماً بأكمله. حين يتفجر بكاء "ألكسي" فإنه يشوش أجواء "أرتك" الهادئة مما يجعلني أتهيج مثل حيوان معذب. كنت أغلق أذنيّ كي لا أسمعه. لم أفكر حتى في الصلاة، وبمجرد توقفه عن البكاء تبدأ الصور المرعبة في ملاحقتي.

عرفت بعد الاجتماع أن "إرينا" كلفت المومس "فاريا" بتهدئة "ألكسي" حين يبدأ في الاحتجاج. حين بكى بعد ذلك في المساء، جاءت "فاريا" لتريني أنها تعرف تهدئة الصبي.

ـ يا حبيبي، ما أروعك، أنا حبيبتك.

قالت له وقامت في ذات الوقت بتدوير إصبعها حول قضيبه الصغير. طردتها في الحال.

تشكلت خراجات وردية اللون على أليتيّ طفلي بسبب الرطوبة التي أحدثتها الإسهالات مما جِعلني أعصر القيح السائل منهما بشكل منتظم. قالت

النسوة إن جروحاَ كتلك يمكن أن ينتقل إليها الدود بسهولة. لم يكن بوسعي طلب الطبيب إلا عن طريق "إرينا"، ولكني لم أفعل لشعوري بالخوف من تصرفاتها الآنية التي بدت لي غريبة يصعب شرحها.... شعرت أن بعض أوامرها تخفي في طياتها تفهماً لحالتي وحالة "ألكسي" أيضاً، ولكني مع ذلك لم أثق بها، كنت خائفة من شرك غادر تنصبه لي أثناء ذلك. علمت "آنا" لحسن الحظ بوجود "فودكا" مع السجينات القديمات من المجموعة الأولى، لذا سارعت في تبَدَيل كومة من السكر مع قليل من الكحول الذي استخدمته فوراً في تنظيف جروح "ألكسي". كان المسكين يصرخ من ألمه. بكيت معه، ولكني لم أجد طريقة أخرى لمساعدته.

اكتشفت بعد أيام وجود قملة في رأس ولدي. شعرت بالأسى لحاله. طفل ليس على رأسه سوى بعض الريش الناعم الأسود ومع ذلك لم يتركه القمل. تلك المخلوقات السوداء المقرفة الصغيرة يمكنها فعل الكثير، وربما تسبب التيفوئيد حسب ما سمعت.

فتشت في رأس "ألكسي"، ولكني لم أعثر على قملة أخرى، ولاحتى على بيوضها. قمت في المطعم بعد الظهيرة بتنظيف القسم الموجود خلف الستارة حيث تتناول الحارسات طعامهن. كانت طاولتهن مغطاة بقماش أبيض. خطر ببالي التأكد مما إذا لم يكن القمل انتقل مني إلى رأس "ألكسي". حين كنت وحدي هناك، انحنيت فوق الطاولة ورحت أحك شعري. سقط القمل على الطاولة. في البداية واحدة، بعدها الثانية. الحشرات السوداء كانت تتحرك على غطاء الطاولة الأبيض. أين يختفي ذلك القمل اللعين بينما لم يتجاوز طول شعري خمسة سنتمترات؟! طمست رأسي في الحال داخل سطل معبأ بالماء الساخن، كنت قد غسلته قبل ذلك، بالرغم من معرفتي بأن ذلك لن يساعدني في شيء.

حين عادت النسوة في المساء من الغابة، ذهبت مباشرة للقاء "لاريسا". كنت أعرف أن المومسات يخفين بعض الأشياء التي يحتجنها، مثل المرآة، وأحمرالشفاه عندما تصادفهن فرصة معاشرة الرجال. سألتها إعارتي المقص، وطلبت بعد ذلك من "آنا" أن تقص شعري حتى الصفر. أما أظافر طفلي الرقيقة فقد قصصتها بأسناني لأن مقص "لاريسا" كان كبيراً عليها.

كان من المفروض أن يكون يوم الاحتفال بالذكرى الثامنة والعشرين لثورة البلاشفة يوم راحة، ولكن "إرينا" لم تتركهن وحالهن، واستغلت ذلك اليوم في نشاطات أخرى. تسلمنا بعد الاجتماع الصباحي بعض الثياب تحسباً لفصل الشتاء القريب: صداري قطنية منفوخة، وأحذية مطاطية أو أربطة مطاطية. تسلمت بعضهن نعالاً خشبية لم يسبق أن رأيتها من قبل. الستاخانوفيات تسلمن قفازات صوفية بإصبع واحد.

كان من المفروض حضور الكابتن ليبديف ـ رانكوف بعد الظهيرة كي يشرح لنا المعاني التاريخية للثورة، ولنداء أكتوبر الكبير المتعلق بالمرحلة الحالية: كما أخبرتنا "إرينا" التي عفتني من حضور الاجتماع. كان عليّ البقاء مع "ألكسي" كي لا يشوش أجواء الاحتفال والخطابة، عرفت في وقت لاحق أن "ليبيديف ـ رانكوف" سأل الحاضرات بعد الانتهاء من محاضرته، كما تعود في مناسبات أخرى، عما إذا كان عند إحداهن سؤال أو طلب. رفعت "آنا" يدها، وطالبت بلحاف، وثياب شتوية لـ "ألكسي". تبين أن الكابتن لا يعرف بوجود طفل في المعسكر السادس، كما نسي في ذات الوقت وجود حامل خانت الأنصار الروس. قالت له "إرينا" إنها اقترحت ترك الطفل في المعسكر بسبب إغلاق بيت الأطفال، وعدم وجود مكان في مشفى المركز. امتدحها القائد السياسي، وأخبرها بأنه سوف يجد الحل المناسب.

وصفت لي "آنا" ما جرى بفخر. سوف نتسلم بعض الأشياء من جديد ونقوم بمبادلتها بالطعام.

جاءت في المساء "زينا" واستلقت بجانبي. استغربت تصرفها، لاسيما أنها لا تنتمي إلى السجينات اللاتي كنت أرتبط معهن بعلاقة صداقة. بل إنها لم تكن في يوم من الأيام فضولية على "ألكسي"، بينما كان بعضهن يأتين لإلقاء نظرة عليه من حين لآخر. ذكرتني "زينا" كيف عبر "المسؤول السياسي" منذ مدة عن رغبته بإيجاد حل لمشكلتي. حسب رأيها هذا يعني شيئاً واحداً. سوف يأخذون طفلي مني لأنهم يأخذون أطفال السجينات حسب التعليمات بعد ثلاثة شهور من ولادتهم، وعليّ أن أحضر نفسي لذلك. سوف ينقلون ولدي إلى مستعمرة الأطفال، أو إلى الميتم حيث يصبح تحت رعاية الكلبات، والمجرمات، حتى لو وجدت بينهن نساء رحيمات إلا أنه يحظر عليهن حمل الأطفال. لمس الأطفال مسموح إلا أثناء تبديل الحفاضات فحسب. قلت لـ "زينا" بأني لا أصدق كلامها، إذ من المستحيل وجود تعليمات ظالمة بهذا الشكل. لوحت لي "زينا" بيدها فحسب.

تعرفين كيف يطعمونهم؟ ـ سألتني إنهم يقيدون الأطفال إلى الطاولة. تتمشى الكلبة ـ المربية، وهي قاتلة أطفال حقيقية، بينهم وبيدها طبق من البطاطا المهروسة التي تحتفظ لنفسها بقسط كبير منها. تدفع الطعام الساخن في أفواههم الصغيرة التي يحمر لونها من الحرارة. من الصعب أن تعرفي من الذي يصرخ أكثر، الأولاد الذين احترقت أفواههم أم الكلبة الغاضبة. القمل، البراغيث، والجرب هي ألعاب الأطفال هناك. إنهم لا يسمحون لك بلمس طفلك حتى لو كنت هناك خلف الحاجز. وكل ذلك لأسباب صحية حسب زعمهم. تسمعينه يبكي، ويصرخ من الجوع والألم ولكن يستحيل عليك مساعدته.

ـ لا أصدقك، همست وقد روعني كلامها.

تصرفت "زينا" وكأنها لم تسمعني. ابيضت عيناها وارتجفت شفتاها مثل المجانين.

ـ في كل الأحوال، إذا بقي أحدهم على قيد الحياة بعد جهنم تلك ـ تابعت حديثها،- يرسلونه إلى الميتم المدني حيث ظروف العيش أفضل بقليل، ولكن الإدارة تفعل ما بوسعها لإرساله من جديد إلى ميتم آخر، وبعد ذلك إلى آخر. إنهم يفعلون ذلك، ومخططهم الأساسي هو نسيان الأم لولدها واعتباره غير موجود. كما يُحظر عليهم إعطاء أي معلومات تتعلق بالأطفال.

ـ لا أصدق ما تقولين ـ كررت كلامي.

ـ لست مجبرة على تصديقي، ومع ذلك أنصحك بالهروب! ـ وشوشت "زينا". إذا بقيت هنا ستكونين شريكة في قتل طفلك.

الزميلة المحترمة هرليانسكا،

لقد وصلني إي ـ ميلك السابق، ولكني لم أتجاوب معه عن قصد. كنت، ولا زلت مصراً على رأيي، وكلي قناعة بأن عليك توقيف الدراسة، والاعتناء بالحمل والولادة، وما يتبع ذلك من رعاية للطفل. أكرر، يمكنك حسب اللوائح الجامعية إيقاف الدراسة لمدة ثلاث سنوات، بعدها يمكنك العودة ومتابعة الدراسة من جديد. سيكون مرحّباً بك.

ولكن، وكما أرى، أجدك مصممة وعازمة على متابعة العمل في دبلوم التخرج، لذا لا يوجد أمامي سوى أن أكون عادلاً من الناحية المهنية، وغير متحيز تدريسياً، ومن ثم تقديم الاستشارات العلمية. في كل الأحوال، لو أنك عدت بعد إيقاف الدراسة إلى الكلية وتابعت العمل في أطروحتك فإننا سنتعرض إلى ذات الأسئلة. الأمر إذن سيان إن أجبت عليها الآن أم لاحقاً. لذا يمكنني بهدوء القيام بذلك الآن.

بداية، ومن جديد (كم مرة؟؟؟) موضوع التاريخ الشفوي. من غير المقبول أن تقوم محدثتك مسبقاً بكتابة ملاحظات ومن ثم تلاوتها عليك. هل غابت عنك المبادىء الأساسية للتاريخ الشفوي؟ الإنسان أثناء الكتابة يفكر بشكل مختلف عما يفكر به أثناء روايته للحدث. إن نموذج "سيدروف" المتعلق بأسلوب المقابلات يأمرك بعد إجراء (المونولوج) الأساسي (لا أقصد القراءة) للمتحدثة أن تنتقلي إلى طرح الأسئلة الإضافية، ومن ثم عليك أن تتوصلي بمساعدة أسئلتك الهادفة الجيدة إلى جعلها،أي جعل محدثتك تسرد أفكارها بشكل عفوي، ولا تتحدث بطريقة أدبية مصطنعة عن ذكرياتها الموجودة بصيغة كتابية. المطلوب هو أن تقوم من جديد برواية ما سبق أن

كتبته من ذكريات بطريقة شفوية وعفوية. بالنسبة لسؤالك رقم 1: كيف يمكن لراويتك أن تجد في الأشياء السيئة التي عاشتها شيئاً جيداً؟

يتحدث علم النفس عما يسمى بـ تناذر "بوليانين" (الاسم مأخوذ من رواية "بوليانا" التي كتبها "هوكمان بورتر" للفتيات) الذي يشرح التفاؤل الأعمى واللامنطقي الذي يقوم بعض الناس بوساطته بطرد الذكريات المزعجة التي يحاولون من خلالها في ذات الوقت استنباط الأشياء الصالحة والمفيدة للمستقبل، حتى في أسوأ الأوضاع التي يعيشونها(9) لماذا يفعلون ذلك؟ أنصحك بدراسة تناذر "بوليانين" بشكل أعمق كي تفهمي تصرفاتهم!

بالنسبة للسؤال رقم2: ألا يمكن أن يكون شرح محدثتك وتقييمها الإيجابي للماضي يستند على قراءة مسيحية للأحداث؟

نعم، الأمر واضح إلى درجة تجعل التفكير بالقضاء والقدر بأكمله، وكما أفهمه، نسخة معدلة عن تناذر "بوليانين". لن أنصحك بقراءة المراجع الأدبية التي تدرس الرؤية المسيحية للآلام والعذاب، لأني لا أريدك أن توجهي انتباهك بهذا الاتجاه، ومن ثم ستفشل جهودك بالتأكيد في إنهاء كتابة الأطروحة. لا أظن أنك تتصرفين بطريقة صحيحة حين تقحمين التجربة المسيحية في المكان الذي يتطلب قراءة علمية. أطلب منك الأخذ بعين الإعتبار عند دراستك العلاقة بين الديانة والعلم، تلك الفرضيات ـ وهي مؤكدة من قبل العلماء ودارسي الديانة ـ القائلة بعدم اعتماد العلم على الديانة وبالعكس. عليك الالتزام بالعلم! (ولكن إذا رغبت المشاركة مع اقتراب أعياد الميلاد في قداس إحدى الكنائس فلا بأس عليك، وأنا بوصفي مشرفاً على أطروحتك لا نية عندي في منعك.)

إذا شعرت بأنك تحتاجين إلى بعض "السرية" لإغناء البحث فعليك بالتأكيد العودة إلى الميثولوجيا الإغريقية. إن الميثولوجيا الإغريقية أكثر دقة مقارنة مع المسيحية! وهنا تخطر ببالي "ديميتر"Demeter التي سُرقت ابنتها. لقد استخدمت "ديميتر" الحلول القاسية، ووسائل الضغط كي تُعاد ابنتها إليها. لم تشيري حتى الآن في عملك إلى أية نظرية تتعلق ببسيكولوجيا الأمومة (نموذج الأمهات، والأمهات العظيمات، الأم مقابل العشيقة وما شابه)، وللوصول إلى ذلك عليك ولوج عالم الميثولوجيا. بدءاً من الأم الكبيرة للمصريين "إيزيت" Eset وصولاً إلى الأم الحالية ـ "زيم جايا". وعلى الهامش كانت "إيزيت" تعاني من صعوبات مع طفلها. أظن أنه قتل في ظروف غامضة بوساطة العنكبوت الذئبي tarantula أو بالعقرب.

أقتبس لك مقولة تدركين من خلالها أهمية الدراسة المستفيضة: "إن ولادة طفل بالنسبة إلى الأم أمر طبيعي خال من القدسية، وإذا قيل بأنه مقدس فإن ذلك يدعو للشك بأنها تخفي شيئاً غير مقدس." إنها مقولة كارل

غوستاف في مؤلفه الضخم زيجموند فرويد Als تاريخ الثقافة Erscheinung 1932)).

والآن ثمة أمر أكثر أهمية: النظرية تؤكد على ضرورة نشوء علاقة ثقة متبادلة بين الباحث، والراوي، ولكني لا أنصحك بذلك! اتركي مسافة أمان بين حياة الراوية وبينك لأن حديثها يتأثر بمدى تواصلك السمعي معها. الراوية تشبه "العلق"الذي يُمسك بك، ويتابع ردود فعلك ويتأقلم معها، وبعد ذلك يتحدث بما تريدين سماعه منه. لذا يتوجب عليك التخلص من تأثير العاطفة، ولا تسمحي لها بأن تمسك بك من أي زاوية.

الشهادة بحد ذاتها عن الأمومة في الكولاك هي مثال صارخ عن الفضيحة أو فضح الحقيقة كما يطلق عليها م. فوكالت fOUCAULT (يمكنك استخدام مصطلح آخر، شريطة احتوائه على ذات المعنى )، وبما أنني أشرت إلى ذلك المؤلف، أجد من الضروري أن تفكري بالطريقة التي يحلل فيها المراقبة الاجتماعية للسلطة، ولألعابها. وبما أنك تتواصلين مع أم، لم يكن باستطاعتها تأسيس علاقة عائلية بكل أبعادها مع طفلها كنوع من السلطة فوق ابنها. إن سلطة الدولة تمنع الأم من تطبيق سلطتها حيال ابنها. هذه نقطة هامة، حين تصبح السلطة التقليدية للأهل تابعة للسلطة الحديثة (حتى لو كانت توليتارية) للدولة. الدولة التقليدية لا تتدخل بشؤون العائلة (لحظة! لست متأكداً مما إذا كان "فوكالت" يستخدم تعبير "لعبة السلطة"، ربما لا. ادرسيه بشكل جيد! )

كما يقول فلوسكولاFLOSCULA: أتمنى لك عيد ميلاد سعيد.

الأستاذ المساعد، ماجستير بتر فوكنار، دكتور علوم.

ملاحظة: فَكِّري من جديد بالموازنة بين إيقاف الدراسة أو إيقاف الحمل!

حين انتهت "لوتسيا" من قراءة إي ـ ميل الأستاذ المساعد مدت لسانها أمام الشاشة.

ـ لن يكون هناك أي إيقاف للدراسة أو ماشابه! قالت ذلك ووجهت إصبعها الوسطى على تقرير المشرف. أغلقت بعد ذلك الحاسوب ونزلت إلى غرفة الجلوس. كانت تعرف أن بانتظارها هناك نزاعاً أكثر أهمية وإيلاماً من تبادل الآراء مع الأستاذ المساعد، وحامل الماجستير، دكتور العلوم.

كانت والدتها قد انتهت من تثبيت شجرة عيد الميلاد على قاعدتها، وأخرجت بعض الزينة من العلبة وراحت تعلقها على غصن شجرة التنوب الصغيرة. انضمت إليها "لوتسيا". ركزتا جهديهما على الشجرة. أخرجتا بقية الزينة من العلبة، وبحثتا عن الأمكنة التي يمكنهما فيها تعليقها. لقد تعودوا في العائلة

عدم تعليق الأشكال المتشابهة أو الكرات الصغيرة إحداها بجانب الأخرى على الأغصان الصغيرة. أشعرهما تزيين الشجرة بالسعادة والراحة.

ارتمت "لوتسيا" بعد لحظات على الكنبة. أشعلت لفافة تبغ، وقطعت أخيراً الصمت دون أن تفارق عيناها الشجرة الصغيرة:

ـ هل تعرفين يا أمي بماذا أفكر؟

تراجعت والدتها عن الشجرة وألقت عليه نظرة ناقدة.

ـ بماذا؟ هل تظنين أنها مائلة باتجاه النافذة؟

ـ أبداً! لا يهمني ميلانها على الإطلاق، ـ ردت عليها بعصبية، وبعد لحظات، وكانت تنفث الدخان، و تبحث عن الكلمات، تابعت: ـ أفكر فيما إذا كنت قد تعرضت في حياتك إلى عملية إجهاض، لأنك الآن تجبرينني عليها. يبدو لي أنك بذلك تريدين إضفاء الشرعية على ماضيك.

ـ إضفاء الشرعية؟ كررت الأم وهي بين غير مصدقة وبين ساخرة، ـ وهل تظنين أن محاكم التفتيش كانت تسيطر على السلطة حين كنت في العشرين وكان الإجهاض شرعياً؟

ـ لم أفكر بهذه الطريقة، ـ شرحت "لوتسيا". إن كلمة "شرعنة" تعني أحياناً في العلوم الإجتماعية... كما لو أن الذي تفعلينه بشكل لاحق يصبح أمراً طبيعياً.

ـ أخ، ويلي من علومك الاجتماعية، ـ تنهدت الأم وجلست على الكنبة في مواجهة " لوتسيا". ـ آن الأوان لتتعلمي الإحساس بالواقع دون ربطه بالعلوم الاجتماعية. حياتك ليست مشكلة نظرية يتوجب عليك كتابتها على شكل مقال. هذه الحالة تتطلب حلاً عملياً.

خنقت "لوتسيا" السيجارة على طرف صحن السجائر الممتلىء الذي بدا مشابهاً لقبر جماعي لأجسام شابة، لُفت بأكفان صفراء، ونهضت بسرعة، وكأنها بذلك ترفض الجلوس مقابل والدتها، كما أعطت في ذات الوقت انطباعاً يشير إلى تمردها ورفضها لأي شيء يخرج من تلك الجهة المقابلة.

ـ الحل العملي عندك هو الإجهاض فحسب، أليس كذلك؟ ـ سألت "لوتسيا" بسخرية، وأخرجت ملاكاً خشبياً من العلبة.

ـ الحل العملي هو عدم الحمل أثناء الدراسة، ولكنك تصرفت بشكل خاطىء.

كانت الأم منذ البداية تملك الغلبة في ذلك الصراع، حتى إن يدها لم تهتز على الإطلاق حين كانت تشعل السيجارة.

ـ أمي، هل تقسمين بأنك لم تتعرضي للإجهاض في حياتك؟ ـ سألتها "لوتسيا". لم تكن تعرف حتى اللحظة أين تضع الملاك.

ـ يمكنني بالطبع أن أُقسم، ولكني لا أرى أي سبب يدعوني لفعل ذلك. الموضوع الآن يتعلق بك، وب...

أرادت القول "بأفعالك" ولكنها أدركت أن تلك الكلمة ترتبط بشكل أوتوماتيكي بتخيل فعل غير صائب أو أفعال سيئة، خطأ، أعمال يُعاقب عليها القانون.

ـ نعم الأمر يتعلق بي وبطفلي، ـ أكملت "لوتسيا" الجملة بهدوء، وعادت لتجلس مقابل والدتها. ـ الأمر بيني وبينه.

ذكّر تلويح الأم بيدها تعبيراً عن عدم موافقتها، ومد سبابتها، "لوتسيا" بحركات قائد الفرقة الموسيقية:

ـ بينك، وبين من، أرجوك؟ من يكون؟ لا أحد، لا شيء! كل ما هو موجود في الوقت الحاضر هو مجرد تغير في جسمك، إنه ليس... إنسان.

تلك كانت اللحظة التي سمحت لـ "لوتسيا" باستخدام البرهان الذي قرأته منذ مدة في إحدى مناقشات الإنترنيت:

ـ بالعكس لن يكون إنساناً إذا وافقت على الإجهاض... بعض أنواع الحشرات تعيش وقتاً طويلاً مثل الـ "يُسروع" أو اليرقة وتطير بعد ذلك فترة قصيرة. في أمريكا، وأظن في مكان من أوهايو، توجد "حشرات الزير" التي تمضي سبع عشرة سنة تحت الأرض وتخرج بعد ذلك مكتملة النمو، ولكن شبابها لايدوم سوى ليلة واحدة لأنها تلقى حتفها في الصباح.

ـ لا تخترعي، لم أسمع في حياتي عن أشياء كتلك!

ـ لا أخترع! يتبدل ذات الكائن في أشكال متعددة خلال حياته، ولكنها تبقى متكافئة.

أوصلت كلمات الابنة والدتها إلى حالة من الغضب:

ـ توقفي، أرجوك، ولا تتفوهي بسخافات عن أشكال الحياة المختلفة! حتى الآن لا يوجد سواك: خلاياك، جسمك، كيمياؤك الداخلية و بيولوجيتك، ـ عبرت عن ذلك بإيماءات عصبية في وجهها مما جعل نهاية السيجارة المشتعلة تسقط من بين إصبعيها.

رفعت "لوتسيا" السيجارة بدلاً من والدتها، وأخذت منها سحبة أخيرة طويلة إلى أن وجدت لها في النهاية مكاناً في صحن السجائر.

ـ حسناَ، الأمر عندك مجرد كيمياء، ـ علقت على كلمات والدتها التي وجدت في النهاية مكاناً لها في الجدل الذي كانت قد حضّرته قبل لحظات. ـ لقد أرسل الدماغ إشارة إلى الرحم الذي بدأ على الفور بتشكيل خليط كيميائي، يجعلني ألعب دور الأم. الأنثى تضحي من أجل صغيرها لأن كيمياء دماغها تجبرها على ذلك.

ـ آه منك أيتها الأنثى! قهقهت الأم بصوت مرتفع.

قررت "لوتسيا" الاستعانة بنهاية "إيميل" المشرف:

ـ إن ولادة الطفل عند المرأة هي أكثر الأمور طبيعية. إذا توقفت الأمهات عن الدفاع عن أطفالهن فإنهن بذلك يبتعدن عن قوانين الطبيعة وقيم الحضارة.

ـ ولكنك تريدين نقل نضالك المتعلق بإنقاذ البشرية إلى بيتي، وتحويل غرفة الجلوس تلك إلى ساحة قتال، تشعلين فيها حرباً مقدسة من أجل إنقاذ العالم والثقافة ـ قالت الأم بطريقة تهكمية.

أخذت "لوتسيا" رجل الثلج الواقف على زحافته، وعلقته على أسفل غصن في الشجرة. كان الخيط طويلاً إلى درجة جعلت الزحافات تبلغ أرض الباركيه، لذا لفّتْ "لوتسيا" الخيط عدة مرات حول الغصن ليصبح رجل الثلج في الارتفاع المناسب.

ـ لا تعلقيه بهذا الشكل لأن علينا بعد عيد الميلاد التخلص من ذلك الخيط، وفي العام الجديد لن تقبلي تعليق خيط جديد ـ أنبّتْ الوالدة إبنتها.

ـ من يدري كيف سيكون العام القادم؟ ـ تنهدت "لوتسيا".

ـ وماذا يمكن أن يحدث؟ سيكون مثل هذه السنة: عيد الميلاد ـ ابتسمت الأم.

علقتا بعض الزينة.

ـ ستكونين في العام القادم أكثر خبرة ـ أضافت الأم.

تطلعت إليها الابنة بكراهية.

ـ أسوأ ما في الأمر أنك لا تسمحين لي باستخدام براهينك. تعرفين كيف هو الأمر مع الكيمياء التي بدأت الحديث عنها؟

ـ لا أعرف، وأنت أيضاً لا تعرفين عنها شيئا ـ ردت عليها الوالدة.

لم تول "لوتسيا" أهمية لجوابها، وتابعت:

ـ قرأت القليل عنها في الإنترنيت. هل تدرين من هو أكبر مناهض للإجهاض؟ تتألف المجموعة الأولى بالطبع من النسوة المتدينات، مثلاً الراهبات...

ـ غير مشبعات جنسياً! - قاطعتها الوالدة.

ـ لست منهن بالتأكيد، يمكنك أن تكوني متأكدة، ـ صرخت "لوتسيا" منزعجة.

ترددت الوالدة. لقد حصلت في السنوات الماضية عن طريق المصادفة أحياناً، وعن قصد أحياناً أخرى، على إشارات أو معلومات تتعلق بحياة ابنتها الفضفاضة التي كانت على الدوام تؤرقها، ولكنها لم تتحدث معها عن تلك الأمور.

ـ لا تحاولي صدمي، أرجوك. هل تظنين بأني لا أعرف ما كان يحدث في هذا البيت أثناء غيابي، مثلاً حين كنت في الدانيمارك. أعرف عن مغامراتك مع الرجال منذ زمن طويل، وكنت أشعر بالقرف. إذا كنت تعتقدين أن ذلك هو أفضل مؤهل للأم المثالية فإنك مخطئة.

ـ ألم تلتق في حياتك برجل يتغير؟ سألتها "لوتسيا" بضعف واضح.

ـ وأنت هل التقيت إنساناً بهذا الشكل؟ ضحكت الوالدة بتهكم، وحين لم تجبها ابنتها على السؤال، أضافت:

ـ أريد أن يكون سن اليأس أقرب تبدل كبير يحدث في حياتي، وأتمنى انتظار تلك السنوات المتبقية بهدوء وسكينة.

لوحت "لوتسيا" بيدها وجلست من جديد. تناولت برتقالة من السلة الموجودة فوق الطاولة، وبدأت في تقشيرها. غطت القشور بقايا السجائر الميتة الموجودة في الصحن.

ـ لم تتركيني أكمل كلامي ـ قالت بعد لحظات ـ أردت أخبارك عن المجموعة الثانية التي تناضل ضد الإجهاض.

ـ من؟ أرجو ألا يكونوا الكهنة الشاذين جنسياً مع الأطفال PEDOPHLIE!- ضحكت الأم.

ـ لا! صرخت "لوتسيا". ـ النساء اللاتي تعرضن للإجهاض هن من يناضل.

ـ يُبحن لأنفسهن ما يمنعونك عنه الآن.

ـ لا يا أمي، إنك بذلك تريدين حرمان طفلي من حق الحياة. وأنت محقة حين ذكرت بأن كل شيء مجرد كيمياء. إن أولئك النسوة يعرفن بالضبط عما يتحدثن. إن كيمياءهن تجاوبت مع التغيرات الحاصلة في أجسادهن وبدأت بطرد... مادة ما، شيء تتشكل منه غريزة الأمومة. بعد ذلك حدث الإجهاض. هذه الغريزة أصبحت فاسدة، خائنة، وغير حقيقية، وهي تجري في عروقهن وتسمم أجسادهن.

جلست الأم مقابل ابنتها:

ـ اسمعيني، إن تلك النظرية عن طرد غريزة الأمومة هي مجرد هراء.

رفعت "لوتسيا" كتفيها. أشعلت الوالدة سيجارة جديدة، وأدارت العلبة باتجاه ابنتها التي رفضت بحركة قصيرة.

ـ إنني آكل برتقال الآن، ألا ترين؟ ثم إني اكتفيت. تعرفين، بسبب...

ضحكت الوالدة. بدا ضحكها مبتذلاً. أدركت في الحال أن عليها الإعتذار لإبنتها:

ـ سامحيني، ولكن الآن، وبعد خمس سجائر أنهيتها خلال ساعة، تريديني أن أصدق بأنك لا تدخنين لأنك حامل! بدا لي الأمر مسلياً.

مشت "لوتسيا" باتجاه النافذة، فتحتها، وأخذت نفساً عميقاً من هواء الشتاء البارد.

سمع من الغرفة المجاورة صوت لحن "إيفركرين" الذي تستخدمه "لوتسيا" كرنة هاتف.

ـ موبايلك يرن، قالت الأم.

لوحت "لوتسيا" بيدها غير آبهة.

ـ سأتوقف عن استخدامه. الموجات الكهرطيسية تؤذي الجنين.

ـ أظن أنك جُننت، تنهدت الأم ـ حديثك الهستريائي يؤكد عدم نضجك. لا تزالين في سن المراهقة، ولا يمكنك أن تربي الطفل.

ابتسمت "لوتسيا" بتكلف:

ـ تتمنين مضايقتي، أليس كذلك؟ بهذا الشكل يكون الحوار المزعج قد وصل إلى نهايته، ولكن ذلك لن يحدث. إنني أتعلم التحمل أكثر بكثير من ذي قبل، ولا أريد التفكير بنفسي فحسب.إنني مسؤولة عن إثنين. عندي واجبات أمومة.

ـ ألا تشعرين أنه من غير اللائق محادثتي بهذا الشكل، وأنا من اعتنى بك وحدي طوال تلك السنين؟ إنني أعرف تماماً ماذا تعنى المسؤولية عن اثنين، بينما تتكلمين أنت عن واجباتك الأمومية فقط من باب الابتزاز، وكل ذلك لتذكريني بواجباتي الأمومية نحوك.

نهضت الأم وتابعت تزيين الشجرة. أحست أنها تغلبت على ابنتها، وهذا ما شعرت به ابنتها أيضاً.

تناولت "لوتسيا" قطعتي زينة واقتربت من الشجرة.

ـ هذه الشجرة كبيرة جداً، ولن يكون لدينا ما يكفي من الزينة ـ قالت الأم.

ـ على الأقل لن تزدحم بالزينة كما حدث في السنوات الماضية.

عم الصمت لحظات من جديد.

ـ أمي، أرجوك، لا تغضبي، ولكني أرى من واجبي إخبارك بشيء. أعرف قدسية ذكرى والدي عندك، ـ سكتت "لوتسيا" لحظة لأنها أحست بنظرات والدتها الواخزة حين أرادت المتابعة. ـ ولكني لم أعد أتذكر كيف كان. أتذكّر فحسب أني كنت أقف في غرفتي في الطابق العلوي بجانب النافذة وأنتظر اللحظة التي سأرى فيها أنوار سيارته خلف السياج. كنت أشعر بالبرد لأني كنت حافية القدمين.

ـ لا يمكنك أن تتذكري أي شيء. كنت في الثالثة من عمرك. وهذا الذي تتحدثين عنه لا علاقة له بالذكريات، إنه مجرد تأليف. كرهك لي أفقدك الرؤيا، وهذا جعلك تلومين حتى والدك لأنه يعمل كي تنعمي بحياة كريمة،

ـ إنني لا ألومه...

ـ إن حادثة السيارة كانت بسبب رغبته في العودة إلى البيت بأسرع ما يمكن ليكون إلى جانبنا. وبالتحديد معك. أراد رؤيتك قبل أن تخلدي إلى النوم. كان الطريق متجلداً، وكان مسرعاً، وحين ظهرت فجأة أمام سيارته تلك المرأة، حاول تجنبها، وانزلقت السيارة... ولكن ما الذي يجعلني أكرر كلامي؟ لقد أخبرتك بذلك حين كنت طالبة في المدرسة، وإذا كنت أتذكر، مئات المرات. كنت معجبة بأبيك لأنه آثر الانعطاف عن الطريق على صدم تلك المرأة. لا يحق لك لومه الآن على ذلك.

تابعت الأم ردود فعل ابنتها، وتذكرتها حين كانت صغيرة، وقد اصطبغت أذناها بالأحمر بسبب الخجل، والخوف. حتى إن "لوتسيا" بدأت تبكي الآن. شهقت، ومخطت مثل طفلة. ضمتها الأم إلى صدرها. مررت يدها على خديها، ولكنها أثناء ذلك تذكرت بقرف أن سبب هذا البكاء هو التغيرات الكيماوية الحادثة في جسم "لوتسيا". مرت أصابعها برقة فوق ظهر ابنتها، وكتفيها، ولكنها أحست بعد لحظات كرهاً أكبر لذلك الجسم الذي ينبت فيه جسمٌ آخر. رفعت الأم يدها بشكل عفوي وكأن الحمل يمكنه أن ينتقل إليها.

ـ أمي ـ استعطفتها "لوتسيا" بين شهقتي بكاء، ـ سوف تقفين بجانبي حتى لو لم أفعل ما تأمريني به؟

ـ أنا لا آمرك بشيء، ولكني أنصحك ـ ردت عليها الأم وابتعدت عنها.

إزداد اشمئزازها من "لوتسيا". هذا النوع من الاستعطاف واستغلال العواطف زادها قرفاً. كان يناسبها أكثر لو أنها تشاجرت مع ثورية مثقفة بدلاً من إرضاء طفلة كبيرة لاحول لها ولا قوة.

مخطت "لوتسيا" بقوة، وسألت بعد ذلك من جديد:

ـ إذاَ ستقفين إلى جانبي؟

لم ترغب الوالدة كبت حنقها على الإطلاق:

ـ ما تعنين بكلامك: الوقوف بجانبك؟ وبأي طريقة؟ وإذا لم أخطىء، تتوقعين أن أربي لك الطفل.

ـ سوف أضعه مع بداية الصيف... ـ بدأت "لوتسيا".

ـ توقفي، أرجوك - قاطعتها الأم، وأغلقت أذنيها بطريقة مسرحية.

ـ لا يا أمي، لن أتوقف، اسمعيني. المفروض أن تكون الولادة في العشرين من حزيران، وحتى ذلك التاريج أريد إنهاء مشروع تخرجي وتقديم فحص الدولة. إذا حالفني الحظ، ووفقت، يمكنني في أيلول البدء في الدكتوراة، بدوام مسائي أثناء العمل، وهذا أمر مفروغ منه.

تصنعت الأم الابتسامة.

ـ بالتأكيد؟! بالتأكيد، سوف تنتقلين مع الطفل إلى هنا. إلى البيت الذي بناه المرحوم والدك، وأنت بالطبع لا تعرفين الغفران؟! وبالطبع، والدتك التي هي ضد ذلك الطفل سوف تعتني به، أليس هذا ما تفكرين به. سيقف بالقرب من النافذة، وينتظر مجيء والدته من مكتبة الجامعة.

تناولت الأم سيجارة جديدة.

ألقت "لوتسيا" نظرة على الأم. فجأة بدأت تدرك نفاقها. الأمر هو كذلك. إنها تريد نقل مسؤوليتها وتحميلها لوالدتها. إنها ستلد بشجاعة، ولكن العناية اليومية بالطفل سيقع على كاهل الأم. حتى إنها تتمنى لو حملت الأم الثقل الأكبر وحدها، وهي من ستقوم بمساعدتها. كانت دائمة الاعتماد على والدتها، والآن لن يتغير أي شيء.

تابعت الأم حديثها، وبدت أكثر هدوءاً:

ـ تأخذين على والدك أنه كان يولي أهمية أكبر لشركته، ولكن ألا ترين نفسك؟ ألست أنت الأنانية؟ أليس أحب إليك أن تتملكي كل شيء، البيت، وقتي، ومال والدك؟

دورت "لوتسيا" رأسها وقالت:

ـ أمي، أنا لا أريد امتلاك أي شيء، طلبت مساعدتك فحسب، ولكني عرفت الآن أن عليّ تدبير أموري وحدي. أخبريني فحسب ما أعتبره في غاية الأهمية: هل تعرضت للإجهاض في حياتك؟

ـ تعرضت ـ ضحكت الأم ساخرة ـ وأنت ذلك الطرح الذي قمت بعد ذلك بتربيته في زجاجة الخيار الحامض.

هرعت "لوتسيا" خارجة من الغرفة، ولكنها أدركت وهي تهبط الدرج أنها لا تزال تمسك في يدها نجمة بلورية. تابعت النزول، ورمتها لوالدتها من بين درفتي الباب. تمكنت الأم التي كان مستوى الأدرينالبين قد ارتفع في جسمها بسرعة من الابتعاد عن الخطر. طارت النجمة في الغرفة وسقطت فوق أحد أغصان الشجرة ثم انزلقت ببطء وكأنها تصارع من أجل البقاء. سقطت في النهاية على الباركيه وتناثرت إلى قطع عديدة صغيرة براقة.

ذهبت الأم إلى المطبخ لإحضار المقشة، والسفاية. وإلى أن سُمعت ضربات جزمة "لوتسيا" على الدرج، وصوت إغلاق الباب الخارجي، كانت الأم قد أنهت لَملمة لقطع الصغيرة. لاحظت حين أرادت الوقوف وجود قطعة كبيرة تلمع بالقرب من حامل الشجرة. حين رفعتها انكسرت البلورة بين أصابعها، وانغرزت قطعة منها في بطن سبابة الأم. صرخت، ولكن ليس بسبب الألم، بل من شدة حنقها لأن النثرة بقيت في الجرح الذي بدأ الدم يسيل منه ببطء. تذكرت في تلك اللحظة عيد الميلاد قبل ثمانية عشر أو عشرين عاماً. سألتها "لوتسيا" في حينها، وكانت في الرابعة من عمرها وقد تبلل إصبعها بالدم، عما إذا كان باستطاعة النثرة الصغيرة السباحة في الدم والوصول إلى القلب. أجابتها إن ذلك شبه مستحيل ولكنها غير متأكدة.

# كايف

## (قناعة، راحة، خبير في الطعام بالروسية labuzo)

تساقط حسب ظني في وسط كانون الأول متر ونصف من الثلج. استمر بالتساقط عدة أيام في الليل والنهار. لم يصادف أن رأيت في حياتي مثل تلك الرقائق الثقيلة. أصرت الآمرة على متابعة العمل في قص الأشجار. كانت المجموعة تغادر المعسكر صباح كل يوم. انتظمت الكلبات الواحدة خلف الأخرى في صف خلف البوابة وجعلن يتمشين وسط الثلج المرتفع. انتقلت اللاتي كن في المقدمة بعد عشرات الأمتار إلى الخلف وحلت مكانهن اللاتي كن غارقات في الثلج حتى أفخاذهن. الخيول بقيت في الحظائر لأنها لا تتحمل السير، والثلج يصل إلى بطونها مثل النساء.

استمر الثلج الرطب بالتساقط دون توقف. تبللت أخذية النساء ومعاطفهن. حين جففنها في المساء، عبقت في الكوخ رائحة الحمض الرطب.

كان السير كما أخبرتني النسوة بين الأشجار في الغابة أصعب من كل شيء. لقد غطت طبقة الثلج جميع الأغصان، وبقايا الأشجار المقطوعة التي كن يتعثرن بها ويسقطن في الثلج الذي كان يدخل في أكمامهن وخلف قبات معاطفهن. وقبل أن يبدأن في التكسير كان عليهن الدوس فوق الثلج المحيط بالأشجار من أجل تحضير المكان اللازم لعملهن، وبالرغم من ذلك لم يشتكين، ورحن يعملن ببطء بغية تدفئة أجسادهن فحسب، لأن الحارسات اللاتي أشعلن النار ووقفن من حوله لم يكن باستطاعتهن رؤيتهن. لقد نفذن خطة المعدل باستخدام الكومات القديمة التي اعتبرنها ضمن عملهن اليومي.

رحبّتُ بجبال الثلوج، وكأنها كانت تؤجل عقوبة الموت. كنت أعرف بالضبط أنهم بعد السادس عشر من كانون الأول، وحين سيبلغ طفلي نصف سنة، يمكن أن يأخذوه مني. الشيء الوحيد الذي يمنعهم من تنفيذ القرار هو تلك العاصفة الثلجية التي قطعت الطريق بين "أرتك"، والمركز الرئيسي، والتي بفضلها يمكنني البقاء بجانب طفلي. كان ذلك شبيهاً بانتظار حكم الإعدام. انتقل قلقي إلى "آنا"، وإلى غيرها من النسوة من مجموعتنا في الأيام الأخيرة قبل عيد الميلاد. حتى إنهن عشن الأسى ذاته من اقتراب موعد إبعادي عن طفلي. كن يأتين ويتطلعن من خلف الستارة الخشبية، ويعانقن "ألكسي" ويهززن رؤوسهن، وبعضهن كن يقدمن لي القليل من السكر كي يخرج الطفل من عندي قوياً معافى.

تركتنا "إرينا" وحالنا في الأيام الأخيرة من أمومتي. لايمكن القول إنها توقفت عن مراقبتي لأنها كانت لي بالمرصاد، ومع ذلك لم تمنعني من شيء، ولم تأمرني بشيء. وقد حدث أنها دخلت عدة مرات إلى الكوخ، ووجدتني والطفل بين ذراعي خارج أوقات الرضاعة، لكنها لم تتلفظ بكلمة واحدة. لو أني لا أعرفها لفكرت بأنها ترأف لحالي. هرعتُ مرة إلى الكوخ في أوقات الخدمة اليومية ووجدتها تحمل "ألكسي" بين ذراعيها. همهمت قائلة وهي خارجة بأنها كانت تهدىء الطفل، ولم تعرف كيف تجدني.

كان يوم العشاء الكريم من عام 1945 أكثر أيام الحزن في حياتي، لأن العواصف الثلجية المستمرة منعت سيارة النقل من الوصول إلى "أرتك" عدة أيام، ومن ثم بدأت مؤونتنا بالنفاذ. أمرت "إرينا" بتخفيض مخصصاتنا، ولكننا بالرغم من ذلك قمنا في الكوخ بتحضير عشاء العيد. احتوت الطاولة على قطع الخبز الذي تم توفيره إضافة إلى الكعك، والبطاطا المشوية، وقطع السكر والمربى. شاركت بصحن من الحليب المكثف من مخزون ابني "ألكسي". تدلى من السقف فرع من شجرة التنوب الذي زينته شرائط ملونة وأوراق بلون الفضة. تجمعت حول الطاولة جميع السجينات الأجنبيات: ألمانيات، بولونيات، مجريات.كاثوليكيات وإنجيليات. الروسيات الأرثوذكسيات والأوكرانيات فحسب ابتعدن متفهمات. "أكافيا" التي كان زوجها قساً بقيت قريبة وأصغت بانتباه إلى كل كلمة. أما الوحيدة التي استهجنت فعلتنا وغمغمت فقد كانت التروتسكية الملحدة "ليزافيتا".

بدأت "آنا" بإنشاد الليلة الهادئة Stille Nacht،heilige Nacht، وشاركتها النسوة كل منهن بلغتها. حين رغبتُ في إمساك أيدي النسوة اللاتي وقفن بالقرب مني، شاركتني البقيات رغبتي. أحسست كيف كانت الأصابع الدافئة تمدني بالحرارة من الجهتين. هبطت الملائكة من السماء وأخبرت الرعاة عن النبأ الجديد. أنشدتُ مع البقية، وفكرت بأمي. ما أكبر شوقي لها ولأخبارها. لا بد أنها تجلس وحيدة مثلي في تلك الليلة الكريمة. لم يكن لدينا أقرباء في "زالسنا بروبا". لقد تزوجت والدتي هناك، وهي في الأصل من "بريفتسا". مات والدي منذ زمن بعيد وانتقل إخوته من المدينة. تخيلت العذاب والجهد الذي تبذله والدتي وحدها منذ الربيع في الحقل، والحديقة، ومقدار الأسى الذي تعاني منه بسببي، وكيف أنها سوف تتألم على حفيدها لو كانت تعرف بوجوده. كانت بالتأكيد ستحبه لأنها إنسانة طيبة، بالرغم من سرعة غضبها. كنت أشعر بالحنين لخبز أمي الأبيض الرقيق المختلف عن خبز النخالة الأسود الذي لم يأخذ حظة من النار، والذي أرى بعض قطعه موجودة أمامي على الطاولة.

وبما أني الوحيدة التي لديها كتاب الصلوات، فقد قمت بتجهيز بعض صفحاته للقراءة.

توقفوا في الأسابيع السابقة عن توزيع أوراق السجائر للسجينات، وهذا ما استغلته "آنا" من جديد وقامت بتبديل بعض أوراق الكتاب مع السكر الذي كان بحوزة المدخنات. كانت تمزق الأوراق بحذر شديد، وتختار الأغاني التي لن أحتاجها هنا بالتأكيد: أورشليم، مدينة السموات تغني في يوم تقديس الكنيسة.

ـ رب السموات الأبدي، القادر على خلق كل شيء ـ بدأت الإنشاد.

لم تكن أغنية تناسب الميلاد، ولكنها لليوم الأخير في السنة. وجدتها تناسب أوضاعنا. في كل الأحوال غالبية النسوة ربما لم يفهمن الكلمات بالسلوفاكية:

ـ سنة جديدة وراءنا، وراءنا بكل عذاباتها التي فكرنا بها طويلاً، واعتقدنا بأننا لن نتحملها... تحملناها. وراءنا بكل أفراحها التي لا نعرف عنها شيئاً، ولا نعرف شيئاً عن بركاتها.

تمنينا بعد ذلك أن نعيش أفراح أعياد الميلاد القادمة في بيوتنا، بالرغم من معرفتنا المسبقة بأن ذلك من المستحيلات. الأمسية كانت قصيرة. قدمت كل واحدة منا للأخريات ما وضعته قبل ذلك على الطاولة. أكلنا بصمت والدموع تبلل أعيننا.

حين انحنيت بعد وقت قصير فوق "مهد" طفلي ورأيت وجهه الشاحب ونومه الهادىء، شعرت بالرضى والسكينة. المسيح الصغير كان ملاحقاً مثله، ولكنه نجا من الفخ كي يتمكن من الوصول إلى سن الشباب. كان "ألكسي" جميلاً، وهادئاً، وبريئاً. أحسست في لحظة أن أمنيتي الوحيدة بنجاته قد تحققت، وبأن أم الرب لم تنسنا، وهي ترعانا بحنانها، ولابد أنها أوصت بنا رب السموات.

# سفياشتشنوي بيساني

## (الإنجيل بالروسية)

اندست "أكافيا" بجانبي في الليل. أرادت مدحي لنجاح الاحتفال بعيد الميلاد.

ـ ثابري، تمسكي بالرب ـ همست بحماس. ـ إذا فقدت الإيمان، تفقدين نفسك، ويبقى لك جسدك الذي يتحرك، ويستلقي، يؤلم، ويموت. لقد فقدت روسيا نفسها حين طردت الرب. الشيطان هو الذي يقودنا الآن. لم تعد تلك روسيا الأم. الجنة لم تعد فوقنا.

تميزت تلك السجينة بالانطوائية وقلة الكلام، ونادراً ما كانت تتبادل الحديث مع الآخرين. لم أسمعها تتحدث طويلاً. لم أعرفها، ولم أعرف ما إذا كان عليّ الرد على كلامها الآن.

ـ سوف يتحسن الوضع هنا في يوم من الأيام، سترين، ربما بعد سنوات قليلة ـ علقتُ على حديثها.

ـ سنوات قليلة... لقد نجحوا خلال ثلاثين عاماً في محو ذاكرة الشعب. لم يبق منا سوى القليل. مسنين ومسنات لا زالوا يتذكرون.

تأففت "أكافيا" بصوت قوي. مررت يدي على خدها.

ـ الكتاب المقدس ـ تنهدت ـ أكرر الصلوات يوماً بعد يوم، الأناشيد... وحوادث الإنجيل... ولكن الشيطان يختبرني، ويخلصني ذاكرتي، تماماً كما فعل مع الشعب بأكمله،

تحول همس "أكافيا" إلى بكاء:

ـ بدأت أنسى... لم أتمكن اليوم من تذكر اسم ذلك الرجل الذي اعتقله الجنود وأجبروه على حمل صليب الرب إلى "الجلجلة"... إنني أنسى كل شيء! صرخت.

سمعنا صوتاً يؤنبنا بعنف آتياً من خلف الحاجز الذي يفصلنا عن الآخرين.

ـ لا تبكِ ـ هدأت "أكافيا" ـ اسمه "شيمون" وهو أحد تلامذة المسيح.

ـ شيمون! ـ قالت ـ سأحمل معك صليب الرب!

انتقل إليّ بؤس"أكافيا" بسرعة كبيرة. لقد قامت "ماريا" مع "يوسف" بحماية المسيح الصغير، ولكن لماذا؟! كي يتم صلبه! كان ذلك معنى حياته. أخيراً ما الآتي بعد أعياد الميلاد؟ أوامر "هيرودس" بقتل بريء بيت لحم. لم

تكن البراءة تعني هناك شيئاَ، وهنا أيضاَ لا تعني أي شيء. أنا أيضاَ بريئة ومثلي غالبية النسوة اللاتي يتنهدن الآن في الحلم خلف ذلك الحاجز الخشبي الرقيق. أكدت "مارجيت" أنهم اعتقلوها في أحد شوارع بودابست لأنهم وجدوا في أوراقها كلمة "دويتش"، ولم ينتبهوا أن الكلمة هي كنيتها، وليست جنسية، والبولونية "دانوتا" التي وصلت إلى ألمانيا برفقة الجيش الأحمر بوصفها مترجمة، أرسلوها مع الرهائن الألمان بالخطأ حين سلموهم إلى NKVD، ومنذ ذلك الحين وهي تقوم برشوة سائقي المعسكر كي يوصلوا رسالتها إلى ستالين، ولا تزال تتوقع في كل اجتماع سماع خبر إطلاق سراحها، وإرسالها إلى وطنها.

طفلي "ألكسي" بريء، ولكن ما نفع ذلك؟

فلتسترح روحه، وأرواح جميع الأموات من خلال رحمة الرب في هدوء وسكينة. تذكرت في السادس والعشرين، وهذا يتزامن مع عيد القديس شتيفان، أول الشهداء، الذكرى الحزينة لموت خطيبي "ألكسي". طلبتني في ذلك اليوم "إرينا" إلى مكتبها. لم نتعود الذهاب إلى مكتب الآمرة في يوم من الأيام، لذا توقعت أن الأمر سيكون في غاية الأهمية، والشيء الهام في السجن يكون عادة سيئاً. حاولت ما بوسعي تهدئة نفسي قائلة بأنها طلبتني كي أنظف مكتبها، ولكني كنت أعرف في ذات الوقت ما يمكن أن ينتظرني هناك. تملكني شعور من القلق الشديد وهذا جعلني أشعر بصعوبة في السير على قدميّ. شعرت بكتلة قاسية تخنقني في حلقي، وفجأة أحسست ببردية تدق جسمي وتهزني مثل ما يحدث لشجرة الحور الرجراج، وبالرغم من ذوبان الثلج في ذلك اليوم إلا أن الغيوم الرمادية أفرغت حمولتها من الأمطار الغزيرة.

ـ تعرفين يا "لافكوفا" ما ينتظر طفلك؟ سألتني "إرينا" مباشرة فور دخولي.

بقيت صامتة.

ـ تعرفين إذاً؟

أشار لي عقلي في ذلك الظرف الذي لا أمل منه أن أتصنع عدم المعرفة، وحتى عدم فهمي للروسية، ومن ثم ربح الوقت.

ـ وصل ابنك إلى الثلاثة شهور، وهذا يعني أن الدولة السوفيتية سوف تتسلم أمر العناية به... باختصار بيت الأطفال. هذا ما تنص عليه التعليمات، ولا علاقة لي بالأمر... ولا حتى الطبيب.

حافظت على صمتي. لقد شوشني صوت الآمرة الهادىء، كأنها تخلصت من مسؤوليتها وربما أرادت الاعتذار. خطرت ببالي فكرة الطلب منها أن تسمح

لي بالعودة إلى طفلي لأني سوف أفقده في الأيام القريبة، وربما في هذا اليوم.

تمشت الآمرة نحو النافذة.

ـ في البداية ثلج كثيف، والآن مطر. لا يمكننا تنفيذ خطة شهر كانون الثاني، تنهدت، وبدت في الحال وكأنها تنبهت إلى ضعفها، لذا أمرتني بنبرة قوية:

ـ اجلسي!

جلستُ على الديوان، وعادت "إرينا" إلى طاولتها. قاستني من رأسي حتى أخمص قدماي، وبدأت بعد ذلك في البحث بين أوراقها. اختارت بعضها ووزعتها فوق الطاولة.

ـ إذا وقعت على وثيقة التخلي عن ابنك فإني سوف أتبناه.

استغرقت بعض الوقت كي أفهم معنى كلماتها.

ـ لماذا تتطلعين مثل الغبية؟ قالت ذلك بوضوح. توقعين هنا بأنك تتخلين عن ابنك، وأنا سوف أتبناه.

ـ وماذا بعد ذلك؟ قلت متلعثمة.

ـ يبقى الطفل هنا مع أمه الجديدة. يمكنك أن تكوني مربيته... إذا وجدتك أهلاً لذلك.

ـ هل أبقى معه؟ لم أُصدق.

ـ إذا كنت أهلاً لذلك!

تناولت القلم. شعرت بحرقة بين أصابعي، وكأن الحبر يغلي.

ـ لا يمكنني، تنهدت.

ـ يجب أن توقعي، ـ صرخت "إرينا".

أدرت رأسي:

ـ ولكن كيف لي أن أتخلى عن ولدي؟ لا يمكن لأي أم أن تتصرف بهذا الشكل.

وضعت "إرينا" إصبعها على الورقة وقالت:

ـ إن لم توقعي فسوف تفقدينه. ألا تفهمين؟

ـ امنحيني، أرجوك بعض الوقت للتفكير ـ شهقت باكية.

أشارت "إرينا" بيدها إلى الكرسي:

ـ اِجلسي وفكري. معك خمس دقِائق.

ـ أحتاج إلى وقت لأدرس الأمر، وأشاور ـ رجوتها.

نرفزت "إرينا" وكأن الشياطين ركبها:

ـ مع من تريدين التشاور؟ "سفولوتش"؟! صرخت. ـ عرضت عليك المساعدة، وهذا هو ردك على الجميل؟! اغربي عن وجهي!

وكتأكيد على كلامها دفعتني في الحال باتجاه الباب.

خرجت من مكتب الآمرة، ولكني لم أتمكن من السير. سندت جبهتي على الجدار. سيطر ضجيج غريب على سمعي، وراح دماغي يكرر جملة واحدة: سأفقد طفلي، سأفقد طفلي.

ـ ولكن لا يمكنني أن أوافق على ذلك، همست بيني وبين نفسي.

ـ يجب أن أنقذه... يجب، يجب..

أدركت ببطء أن عليّ توقيع أوراق "إرينا"، وإذا وافقت على التبني فإني سأبقى بالقرب من "ألكسي"، على الأقل لوقت ما، وربما على الدوام. كان عليّ أن أوقع.

دخلت إلى مكتب "إرينا" دون طرق الباب.كانت لا تزال واقفة بجانب الطاولة حيث تبعثرت الأوراق. فتحت فمي، ولكني لم أنطق كلمة. مشيت خطوتين، تجنبت النظر إليها. أمسكت بالقلم ووقعت.

لم أعد أماً لـ "ألكسي" الصغير في يوم ذكرى ميلاد "ألكسي" الكبير. نقلت في ذات اليوم "مهد" طفلي إلى غرفة دافئة بجوار المكتب حيث تنام "إرينا"، والدته اللاحقة.

وصل الطفل إلى عالم أفضل حيث لا مكان للبرد، ولا للروائح الكريهة ولا حتى للصراخ.. أصبحت بين ليلة وضحاها خادمة عند "إرينا". كان العمل سهلاً، وهذا ما حسدتني عليه جميع زميلاتي. كانت مهمتي العناية بالمكتب والغرفة، ولكن الأساس كان العناية بطفلي.

في الحقيقة لم يكن ابني رسمياً، ولكني كنت معه على الدوام، كنت أحفضه، وأسهر على راحته وتهدئته، وحين يبكي في الليل كانوا ينادوني كي أرضعه، ولكن "إرينا" نبهتني إلى أن ألمسه حين يكون ذلك ضرورياً فحسب. حين رأيت "ألكسي" بين يدي الآمرة الشبيهتين بأيدي الرجال، انتابني شعور بالخوف، والأسى، وحين اقتربت بشفتيها الغليظتين الملونتين من وجه "ألكسي"، نفرت الدموع من عيني، ولكن الطفل أحب ذلك مما جعلها ترد عليه بابتسامة، وحين دغدغته بجديلتها الطويلة على رقبته، زقزق من شدة سعادته.إلا أنه كان بالقرب مني يغضب أكثر يوماً بعد يوم. عاد "ألكسي" إلى عادة الإستيقاظ في الليل من جديد. كان يبكى، لأن حليبي بدأ يتناقص في

منتصف الشتاء. خلطت لي "آنا" بودرة بيضاء مع الشاي، وحسب زعمها فإن ذلك سيساعد. اكتشفت في وقت لاحق أنها بودرة كلس من طين الجدران، ولكنها مع ذلك لم تساعدني في شيء. نصحتني النسوة بإعطاء "ألكسي" حساء كثيف القوام إضافة إلى حليبي. حين أخبرت "إرينا" بذلك تصنعت الابتسامة. قالت إن الطفل لا يحتاج إلى طباخة بل إلى مرضعة. كانت مقتنعة بأن الخطأ مني، ولا تزال تتذكر كيف كانت الأمهات في القرى يرضعن أطفالهن حتى السنة، وربما أكثر.

ـ أي نوع من الأمهات أنت؟ ـ شتمتني.

ـ أي نوع من الأمهات أكون؟ بكيت على كتف "آنا". ـ لقد تخليت عن طفلي.

هدأتني، وقالت إني فعلت الأفضل للصبي. لو أني لم أوافق على هذا التبني لكنت فقدته إلى الأبد، وسيختفي في أحد بيوت الأيتام في روسيا الشاسعة التي لا نهاية لها. بهذه الطريقة جعلته يبقى قريباً مني، و حين تتغير الأحوال سوف أعرف أين أجده.

ـ تذكري كيف كانت الأحوال بعد ولادة موسى ـ ذكرتني "آنا".

ـ هذا ما لا أذكره ـ تابعت بكائي.

ـ أصدر فرعون أمراً يقضي بقتل كل مولود في عائلة الرب. لهذا السبب صنعت أم موسى سلة لا تدخلها المياه، أخفت فيها الصبي، ووضعته في النهر. بدا أنها عرضته للموت المحقق، ولكن حين ذهبت ابنة فرعون لتستحم، وجدت السلة مع الصبي. تبنته. تماماً كما فعلت "إرينا" بابنك. ترعرع موسى في رفاه مصر، وحين اشتد عوده، تغلب على المصريين، وخلّص شعبه المختار من العبودية. ربما سيخلصنا ابنك أيضاً!

ـ هل تظنين؟ ـ مسحت دمعي.

ـ ولكن إياك أن تعطي "إرينا" مسوغاً لإرسالك إلى المعسكر الرئيسي... حين سينتهي إدرارك للحليب. حذرتني "آنا" وأضافت: حاولي بهدوء معرفة السبب الذي جعل تلك الساحرة تتصرف بهذا الشكل... ربما يحضرون لترقية الجنديات اللاتي عندهن أطفال، أو شيئاً مشابهاً.

... بعد سبع سنوات.

# تيوتا

# (العمة بالروسية)

وكما كان عام اثنين وخمسين استثنائياً بكمية البعوض، كانت التحضيرات استثنائية أيضاً للاحتفال بثورة أوكتوبر الاشتراكية العظمى في "أرتك"، إذ توجب علينا ـ إضافة إلى الاعتناء بمظهرنا الخارجي ـ نقل المخلفات البشرية من المراحيض، وتنظيف الأكواخ، وطلي جدران المراحيض الجديدة. أخبرتنا "إرينا" أثناء الاجتماع بأننا سوف نشارك في الاحتفالات التي ستجري في المعسكر الرئيسي "زونا". منعتنا من ترك أي ثقوب، أو بقع طين، حتى لو كانت بحجم قطعة من عشر كوبيكات على ثيابنا. حين سألتها إحدى السجينات إذا كنا سنحصل في هذه المناسبة على صابون أو خيوط مع إبرة، أصيبت "إرينا" بنوبة غضب جعل عضلات وجهها تتراقص بوحشية دون أن تعلق بشيء. قالت فحسب: إن كل مجموعة تسلمت حصتها في أيار بمناسبة يوم النصر، وهذا يعني أن النسوة سوف يرقعن الثقوب بخيوط ينزعنها مباشرة من ثيابهن. بالتأكيد سوف تتشكل في المستقبل ثقوب جديدة في الأمكنة التي سينزعن منها الخيوط.

كنت في ذلك الوقت قد تعرفت على شخصية "إرينا" أكثر من جميع السجينات، وشكلت رأيي الخاص من تفجر نوبات حنقها وكرهها. غالباً ما كانت تخفي وراء ذلك شيئاً ما. كانت متأكدة من أن الآمرة القاسية التي لا يتوقع أحد ردود فعلها سوف تحافظ على سلطتها أفضل بكثير من الآمرة اللينة. وقعت في العديد من المرات ضحية غضبها. كنت أقضي كل يوم عدة ساعات في مكتب وغرفة "إرينا"، لأني عملت مربية لابنها "ألكسي". إن حب الطفل هو الشيء الوحيد الذي جمعني معها. فهمت بسرعة بعد أن قامت بتبنيه بأنها فعلت ما فعلته دون أن يكون لها أغراض جانبية. كل ما في الأمر أنها أرادت أن يكون لها ولد. إن إحاسيسها تجاه الطفل كانت ملأى بغيرة الأمومة. حين رأته بالقرب من ثديي، حسدتني، وحين كنت أضمه بين ذراعي وأقبله، كانت تصرخ مهددة بإرسالي إلى "زونا"، وحين فقدتُ حليبي بشكل نهائي شتمتني قائلة: إن امرأة أخرى غيري كانت سترضعه بالتأكيد فترة أطول. أرسلتني في ذلك الوقت لأعمل في تكسير الحطب في الغابة، وأحضرت مربية "كلبة" لتحل مكاني. "تامارا" من المجموعة الثانية. حين أمسكتها بالجرم المشهود وهي تأكل من حساء ابني سجنتها في الحبس

الانفرادي، وأعادتني من جديد. بدأت تفهم بالتدريج أن حبي للطفل سيكون لصالحه.

اكتشفتُ أيضاً بالخبرة أنه سيكون من الأفضل إذا خففت من إظهار عواطفي لـ "ألكسي" أثناء وجود "إرينا"، وبالمقابل إبراز أمومتي على حقيقتها حين نكون بعيدين عن أنظارها، وهذا ما أحس به الصبي وجعله يتفهم من صغره اختلاف علاقتنا به التي بدت له جلية منذ البداية من طريقة كلامنا. حين نكون وحدنا نتحدث بالسلوفاكية، وننتقل أمام "إرينا" والآخرين بشكل أوتوماتيكي للتحدث بالروسية.

لا يمكنني مع ذلك القول إن السلوفاكية كانت حقيقة لغته الأم، لأني لم أكن أتجرأ حتى الى الإشارة بأني والدته. لم يكن ممكناً أن يخاطب "إرينا" بـ ماما، ويخاطبني بذات الشيء. إن غيرتها لن تغفر لي، وحين فاجأتنا نتحدث مرة بالسلوفاكية، أرسلتني إلى الانفرادي لثلاثة أيام. توسل الصبي في حينها كي تعيدني إليه في صباح اليوم التالي. لحسن الحظ، سافرت بعد عدة شهور لتشارك في دورة تديبية حزبية حيث عرفت هناك بوجود انتفاضة في تشيكوسلوفاكيا ضد الفاشية أثناء الحرب. حين عادت طلبت مني بشكل مباشر تعليم "ألكسي" اللغة التشيكوسلوفاكية لأنها إحدى اللغات التقدمية التي شارك أهلها في النضال ضد الفاشية ومن أجل التحرر. أرادت منذ تلك اللحظة أن يتعلم الصبي لغتين.

كانت لا تزال تطبق بحقي عقوبة العودة إلى العمل في الغابة بعد أي هفوة أو خطأ أرتكبه، حتى لو كان بسيطاً، لكن إلحاح "ألكسي" كان يعيدني إليه من جديد. أحسست أنها تريد إشعار السجينات بأنها تعاملني بنفس القسوة التي تعاملهن بها. ربما لم تفعل ذلك بسبب الكلبات ولكن بسبب غرورها الشخصي، وكي تؤكد على مراقبتها وعدم تسامحها مع العدو الطبقي الذي يعيش معها تقريباً في بيت واحد.

شكل انتقالي إلى فريق العمل في الغابة المأساة الثانية في ترتيب ما يخفيه لي قدري، وحدث ذلك في آذار من عام 1946. أمضيت وقتاً طويلاً في تحفيض "ألكسي"، وهذا ما جعلني أصل إلى الاجتماع متأخرة. فرزتني "إرينا" بأمر فوري للعمل في نشر الأشجار. كنت قد وصلت إلى الاجتماع بثياب خفيفة دون قفازات ومعطف، ولم أتوقع بقائي فترة طويلة في ذلك الجو الجليدي القاسي. انطلق فريق العمل في ذلك اليوم إلى الغابة ورافقته "إرينا" التي أرادت التأكد من أن السجينات لن يُعرنني أي شيء يقيني من البرد. عدت في المساء بصعوبة إلى المعسكر وكنت قد فقدت الحس في يدي. تشكلت على أصابعي طبقة بيضاء. عرفت في الحال بأنها فقاعات الصقيع. أصبحت بعد ذلك بنية اللون. كنت في ذلك الوقت لا أزال أعتني بـ

"ألكسي". لففت يدي بالشاش كي أحمي الصبي من القيح المتسرب، كما ساعد الضماد أيضاً على تخفيف الرائحة الكريهة المنبعثة من أصابعي. حين تموّت اللحم وسقط عن أصابعي، ترك حفراً صغيرة على نهاياتها. غالبية النسوة أصبن بذلك في أقدامهن، وسواعدهن، وفي وجوههن أيضاً. كانت تلك العلامة الفارقة لسجينات المعسكر. حين أصبح "ألكسي"أكبر بقليل، أحب الندبات الموجودة على يدي وكان يتسلي بتمرير إصبعه الصغير فوقها.

أصبحت منذ أيلول عام 1952 مُدَرسة "ألكسي". كانت مدرسة أطفال الجنود في الوادي في "زونا تبعد حوالي خمسة وثلاثين كيلومتراً، وأقرب مدرسة في القرى كانت أبعد منها بعشرة كيلومترات على الأقل. كان مستحيلاً على "ألكسي" المواظبة على زيارة المدرسة.

ذهبت "إرينا" إلى المدرسة برفقة "ألكسي" بالسيارة في الأول من أيلول، ثم عادا وبجعبتهما الكتب والدفاتر اللازمة. كان "ألكسي" بعد ذلك يزور المدرسة مرة في الشهر كي يتحققوا من تقدم دراسته في البيت. عاد الصبي منبهراً، ولم يتحدث عن المدرسة على الإطلاق، بل تحدث عن الأطفال الموجودين هناك. كانت المرة الأولى في حياته التي يرى فيها أناساً من جيله. لم يعد يتحمل، وكان ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي سيلقاهم فيه من جديد.

كانت النجمة الحمراء تشع من كل صفحة من صفحات الكتاب السوفيتي إضافة إلى صورة ستالين وهو يبتسم، وصور الطلائع بالربطات المعقودة حول رقابهم. طلبت مني "آنا" آن آخذ على عاتقي إبعاد طفلي عن ذلك الطاعون الشيوعي واستخدام التربية المسيحية، لأنه حان الوقت لأتحدث مع طفلي عن الرب، والسماء والخلاص وأعلمه على الأقل "أبانا الذي..."

ـ تذكري موسى! ـ نبهتني "آنا".

ـ أعرف، لقد ربته ابنة فرعون كما تفعل "إرينا" مع "ألكسي"...

ـ لقد ترعرع موسى في مصر الثرية، وبفضل أمه وأخته "ميريام" لم ينسَ أصله وتحدره من الشعب المختار. حاولي ما بوسعك ألا ينسى ابنك أيضاً. يجب على "ألكسي" أن يأخذنا من هنا كما فعل موسى مع شعبه المختار من مصر.

ولكني لم أصدق أن ابني لديه ذلك الهدف النبيل، وكنت متأكدة من أن مصيري سيكون في "زونا" إذا لاحظت "إرينا" أي غبار في تربيتي. حتى "زينا" التي صارحتني في إحدى المرات بأنها أنجبت توأماً في السجن، لكن أحداً منهما لم يعش أكثر من نصف سنة، نصحتني بتوخى الحذر. أقنعتني بأني حصلت على عكس غيري من السجينات اللاتي حالتهن شبيهة بحالتي

على ميزات كبيرة. ابني على قيد الحياة، ولديه ما يكفي من الطعام واللباس الجيد، إضافة إلى ذلك بإمكاني البقاء معه، وتمرير يدي على جسمه، وحتى قبيله حين أريد ذلك. أكدت لي "زينا" أنه لابد لي من دفع ثمن ما مقابل سعادة الأمومة تلك، لكن "زينا" كانت ضابطاً في الجيش الأحمر، وهي ملحدة لا تؤمن بالرب، ولهذا لا يمكنها تفهم ما أنبتني "آنا" بسببه.

كان أفق "ألكسي" محصوراً قبل دخوله إلى المدرسة بين الأشياء والناس الذين التقاهم في "أرتك". كان يشعر بالسجينات والحارسات من حوله بوصفهن قسماً من المعسكر الذي تحيط به الأسلاك الشائكة ومن خلفه الغابة التي لا نهاية لها، وكان يتحدث مع "إرينا" ومع أمه فحسب. لم يكن يعرف تقريباً أي شيء عن العالم ما عدا ما عرفه منا. كانت "إرينا" تحدثه بحماس عن ستالين الذي يريد الخير للبشرية جمعاء، وعن الحرب التي تم فيها معاقبة الألمان السيئين لأنهم هاجموا الروس البسطاء، وعن المصانع التي تنتج السيارات مثل تلك التي تصل إلينا من الـ "زونا"، والطائرات التي نراها أحياناً تحلق في السماء. أنا من جهتي حاولت أن أشرح له أشياء أخرى: الخبز يُحضر من الطحين، والطحين يأتي من طحن الحنطة التي تنمو في الحقول، وهذا كله يحتاج إلى جهد كبير من الناس. في أحيان أخرى كنت أُريه الطيور في أعشاشها أو النمل في أوكاره، وكيف تمكنت الطبيعة بذكاء من ترتيب كل شيء. تمنيت لو يسألني عن الذي قام بترتيب كل هذا، وخَلقه، ومن ثم يجبرني على الإجابة. ولكن هل يمكن لتلك الأسئلة أن تخطر ببال طفل؟

تطورت الأحوال في السنوات السابقة بحيثُ أصبحت في نظر "ألكسي" العمة "سوزانا "من قرابة بعيدة، في حين تحولت علاقتي مع "إرينا" لتصبح أكثر هدوءاً وبعيدة عن الصدامات. شكلنا تجمعاً شبيهاً بالعائلة، وقضينا معاً وقتاً طويلاً. حاولت "إرينا" من باب الثقة أن تسحب مني بعض المعلومات عن الأحاديث وعن المزاج العام بين السجينات القديمات، ولكنها بقيت مجرد محاولات. كان واضحاً لها ربما منذ البداية بأني لن أخبرها بشيء. كان عندها ربما عشر مخبرات، ولهذا كان عليّ توخى الحذر بسبب موقفي.

وبالرغم من ذلك كانت غالبية النسوة يتحاشينني ويعتبرنني واشية خطرة لابد لها أن تعبر عن امتنانها حين يكون لديها كل تلك المكاسب. كنت أحياناً لاأصدق تصرفاتهن. الصبية "نادا" التي لم تكن سجينة لسبب سياسي حقيقي ـ وكل ما في الأمر أن أباها كان محكوماً في عام ألف وتسعماية وسبعة وثلاثين ـ صعُبت عليها محادثتي، بالرغم من أني كنت كاتمة أسرار "ريتا" التي كان بينها وبين "نادا" علاقة حميمية منذ وقت طويل. كانت تلك الأسيرة الألمانية تحب اطلاعي على مشكلاتها العاطفية التي ترافق علاقتها مع "نادا". اشتكت لي "ريتا" من نوبات الهستيريا التي تحدث بسبب غيرة

حبيبتها. لم تطلعني بذلك على شيء جديد لأن كل نساء الكوخ انتبهن لعلاقتهما.

ـ "نادا" مجنونة ـ بدأت "ريتا" حديثها حين كانت في الخدمة اليومية، وكانت قد فرزت لتنظيف غرفة الآمرة.

لم أجبها بشيء لأن "ألكسي" ركض في تلك الأثناء باتجاهي واشتكى من حرقة في عينيه. ارتعبت، وظننت أنه يشكو من سخونة، ولكني اكتشفت أن ما حدث له كان بسبب ماء الخل الذي كنا نستخدمه في تنظيف السجادة القديمة في غرفة النوم. أجلست الصبي إلى الطاولة الفارغة في غرفة "إرينا" وأعطيته قلماً وورقة، وطلبت منه رسم حصان.

حين عدت من جديد إلى العمل، تابعت "ريتا" حديثها:

ـ لا يمكنك أن تصدقي ما تخفيه في داخلها من حقد وكراهية. الكلبات من أمثال "كلافيدا" مجرمات يفتقدن لأي نوع من الأحاسيس، ولكن الشعور بالغضب يتبخر منهن بسرعة، إلا أن "نادا" إنسانة تحب الانتقام، ولا تسامح أحداً. إذا حاولت أن أجد غيرها فإنها لا تتورع عن ذبحنا في الليل.

حكّت "ريتا" شعرها الأحمر وهي تفكر:

ـ إنها أثناء ذلك... في تلك الأمور.. أروع، وأكثر رقة من أي رجل، ولكنها في الصباح تكرهني لشكها بأني ألقيت نظرة وديعة على إحدى الكلبات. أنت أيضاً عليك الحذر منها، إنها تكرهك بسبب المكاسب.

لوحت بيدي فحسب لأني أعرف أن غالبية المقيمات في "أرتك" يكرهنني مثلها.

ـ لا يمكنني الوثوق بها، وإخبارها بأي سر.

ـ أرجوك، وهل توجد هنا أي أسرار؟ ـ ضحكت.

ـ كل إنسان له أسراره.

الكلمة الأخيرة لم تقلها "ريتا" بالروسية. احتجت برهة كي أدرك بأنها قالتها بالتشيكية. تلك اللغة سمعتها آخر مرة حين كنت طفلة صغيرة قبل الحرب من زوجة مدرسنا.

ـ أنت تشيكية؟

ـ وهذا أحد الأسرار التي لا يمكنني كشفها لـ "نادا".

حملت "ريتا" السطل وخرجت لتسكبه.

مر شهران على ما أظن حتى حانت الفرصة وتمكنت من الجلوس مع "ريتا" وحدنا. سألتها في الحال عن السبب الذي يجعلها تقدم نفسها بوصفها

ألمانية، بينما هي تشيكية. أخبرتني أنها تعاونت أثناء الحرب مع الألمان. آمنت بانهم أمة رائعة، ومن ثم أرادت أن تكون منهم، وتنتسب إلى المنتصرين. انقلبت الورقة في الجبهة، ولم يعد هناك مجال للتراجع. أسرها الروس في نهاية الحرب، وكانوا ليطلقوا عليها النار لو عرفوا أنها تشيكية متعاونة مع الألمان، ولكن بوصفها جندية ألمانية عادية كانت لديها الفرصة للعيش. لم تدرك بعد تلك السنوات من العذاب في السجن أنه ربما كان من الأفضل لو أنهم في حينها أطلقوا عليها النار. هذا ما كانت تفكر فيه غالبية النساء. لقد أبقاهن الأمل على قيد الحياة لظنهن أنه بعد سنة أو سنتين سوف يصدر مرسوماً بالعفو. كنّ يكرهن حياتهن، ويكرهن أكثر السجينات القديمات اللاتي كانت حياتهن أفضل بدرجة واحدة فحسب. مثلي أنا.

يمكن القول إني عشت حياة مقبولة ضمن الظروف الموجودة. كانت "إرينا" تكره رؤيتي بجانب الطفل بِمِزَق السجن العتيقة، لذا كانت تسلمني ثياباً أفضل بشكل منتظم. إن عملي بوصفي خادمة ومربية لا يمكن مقارنته مع عمل العبد المنهك من تقطيع الأشجار. أمرتني "إرينا" قبل حلول الشتاء بتحضر زلاجة للصبي، وفي الوقت الذي كانت فيه النسوة منشغلات في العاصفة بتقطيع الأشجار، كنت أتزلج فوق الثلج بالقرب من بوابة "أرتك" مع الطفل، حيث جاءت "إرينا" عدة مرات لمشاهدتنا، كما قمنا سوية بناء على رغبة الطفل بتشييد عدد من رجال الثلج.

كانت "إرينا" ترسلني في بعض الأحيان إلى مطبخ المعسكر لقلي الـ "بيروك(10)". حين كنت أحضره لهما إلى الغرفة، كانت الآمرة في كثير من الأحيان تجلسني معهما إلى الطاولة. كان "ألكسي" يحاول تصنع اللعب، ودوه هو أن يجعل "إرينا" تخرج من الغرفة كي لا تنتبه بعد تقطيع الكعكة إلى أني أخفيت قطعة لـ "آنا". كانت آنا في المعسكر في ذلك الوقت تعاني من شيء يشبه النقص في قوتها.

## تسركوفني كنيجي

## (الكتب الدينية، الكنسية بالروسية)

راقبتني "إرينا" بسرور كبير وأنا أبذل نشاطاً كبيراً في تطبيق خطة تعليم "ألكسي". كانت الأمور تسير بهدوء ويسر لأننا لم نتعب أنفسنا أكثر مما كانت تطلبه المدرسة. تعلم الطفل مع نهاية أيلول كتابة جميع حروف الأزبوكية، فيما الحساب كان يتقدم عنده ببطء، ومع ذلك تجاوز خطة المدرسة. كانت زيارته لتقديم الفحوص في المدرسة في تشرين الأول ناجحة بامتياز. امتدحت المدرسة "ألكسي"، وكهدية لتفوقه، حصل على أقلام تلوين إضافة إلى كتاب صغير بعنوان "بافليك موروزوف" بقلم "ستيبان شتيباتشوف".

ـ تلك القصيدة ـ كلمة جديدة ربما استخدمتها المدرسة، وأكدت عليها "إرينا"، ـ يجب على الأهل قراءتها وشرحها للطفل. إذا كان هناك ما لا يمكنك فهمه... لا أقصد الكلمات في الروسية ولكن الأفكار السوفيتية، تعالي، وسأشرحها لك. سيكون أمراً رائعاً إذا تمكن "ليوشا" من مفاجأة الرفيقة المدرسة وحفظ شيئاً من القصيدة عن ظهر قلب.

تعتبر قصيدة "شتيباتشوف" المعنونة "بافليك موزوروف" إحدى أقبح ما أنتجته الدعاية السوفيتية لإفساد عقول الأطفال، وبفضلها فهمت الكثير. كان نقد "آنا" لأسلوبي في تربية "ألكسي" في محله، لأني بسبب خوفي وحذري، تسببت في أن يترعرع طفلي دون أي توضيح، حتى بشكل ضبابي، عن الأشياء التي كنت أعتبرها مقدسة. لقد كتب "شتيباتشوف" في قصائده بهدف السخرية أو بهدف التقريع بالمؤمنين عن معارض الثورة الذي يقرأ كتب الكنيسة، وحسب تعبيرة: الخنجر يختبىء وراء الإيقونة. ولكن "ألكسي" لم يفهم على الإطلاق سبب وجود كتب الديانة وكذلك ماذا تعني الإيقونة. لم يشاهد في حياته مثلها، كما أني لم أحدثه في يوم من الأيام عنها، وفي اللحظة التي أدركت فيها عمق الفراغ الذي تعيشه روح الصبي، وجدت نفسي في دوامة. لحسن الحظ لم أتصرف بجنون. قلت لـ "ألكسي": سيكون من الأفضل لو سألنا الأم عن معاني تلك الكلمات.

القسم الرابع من القصيدة كان بعنوان (الشيوعيون). بالطبع لم يكن من المعقول أن يحفظ "ألكسي" عن ظهر قلب شيئاً منها. فضلت اختيار القسم الثاني الذي كان بعنوان: الأم والأب. ولكن الأديب "شتيباتشوف" قلب

معطفه هنا أيضاَ. تبين أن الأب "موروزوف" كان يكره ابنه "بافليك"، ويشده من "ربطة العنق" الطلائعية بغية قتله.

ـ ما أكبر حظي لأني بدون أب ـ قال لي "ألكسي".

ـ عليك ألا تتحدث بهذا الشكل ـ أنبته. كان والدك إنساناً جيداً، ومات بطلاً أثناء القتال ضد الفاشية.

لمعت عينا" ألكسي" من شدة فرحه.

ـ عن حق؟ كان عندي أب؟ جندي؟ هل كنت تعرفينه يا عمتي "سوزا"؟

خرجت في الحال من الغرفة وهرعت بحثاً عن "إرينا". كان عليّ أن أشرح لها كيف أني أخطأت، وفي ذات الوقت طلب نصيحتها، لا سيما أني مُنعت من التحدث عن والد "ألكسي". أمرتني بألا أدخل في التفاصيل، وبأن أخبره بأن والده مات أثناء الحرب، ولكني لا أعرف أين، ومتى.

مرت عدة أيام إلى أن سمحت الظروف، وتمكنت من إخبار "آنا" كيف كذبت على "ألكسي"

ـ لقد ابتعدت كثيراً ـ غضبت مني. ـ إنك تخفين حقيقة وجود الرب، وتخفين حقيقة والد ابنك، وتخفين كونك أماً. عليك الآن أن تقرري إذا كنت تريدين فقدان ولدك إلى الأبد بالرغم من وجودك بجانبه. تذكري ما هو مدون: من يحب أباه وأمه أكثر مني فإنه لا يستحقني، ومن يحب ابنه أو ابنته أكثر مني فإنه لا يستحقني، ومن لا يحمل صليبه ويتبعني فإنه لا يستحقني.

ـ روح القدس... نريد أن نكون جميعنا لك، ونريدك أن تقودنا للقتال من أجل الإيمان... لأن اتباعك يوصلنا إلى الخلاص.

ولكني عرفت حين كنت أصلي مقدار انتهازيتي لأني لا أريد القتال من أجل الدين، وإذا كان عليّ أن أختار بين خدمة الرب وخدمة ابني فإني سأختار ابني. إنه هنا بالقرب مني وأنا أحبه أكثر من الرب الذي تخلى عنا وتركنا لهذا العذاب.

أحسست بيد تلامس كتفي:

ـ بوصفك أماً، عليك أن تفكري بابنك ـ وشوشت "آنا".

ـ إني أفكر به ـ أجبتها، وكنت سعيدة لأنها أشعرتني بصحة تفكيري.

ـ تذكري الإخوة السبعة وأمهم. لقد منح الملك "أنتيوخوس" زوجته فرصة تغيير تفكير أولادها بالدين لتنقذ حياتهم، ولكنها حرضت أولادها على الموت كي لا يخونوا الرب. إنك الآن في حالة مشابهة. الأمر الآن لايتعلق بحياتك اليومية، ولكن بأبدية "ألكسي".

أقسمت في صباح اليوم التالي على أن أكون أخيراَ أكثر شجاعة. أردت الإشارة لـ "ألكسي" بالتدريج إلى الأشياء التي حاولت بقوة حتى الساعة الابتعاد عنها.

ـ أنا أيضاً ليس عندي أب، ـ بدأت حديثي حين كنا وحيدين. ـ لقد مات حين كنت صغيرة جداً. عشت مع أمي فحسب. كنا فقراء. كنت أذهب إلى المدرسة في الصباح، وأعمل بعد الظهيرة في تعشيب البطاطا، وحلب البقرة، وسقي الحديقة.

ـ نعم، الحياة في زمن القيصر كانت صعبة ـ أومأ "ألكسي" برأسه وهو يصغي إلى حديثي بانتباه.

ـ إن قيصرنا يدعى رئيساً. كنا نعمل ستة أيام وفي السابع، يوم الأحد نرتاح. كنا نزور الكنيسة حيث يصلون هناك وينشدون. كانت الجدران ملأى بالصور الرائعة، أيقونات.

ـ حدثيني عن الثورة ـ قاطعني "ألكسي". ماهو السلاح الذي استخدمتموه في القتال ضد الرئيس؟

# جوركا

## (عن الفرنسية؟ الشباب، الأمسيات، التسلية، الاحتفال)

كان اليوم الأول في السنة الجديدة، العيد، حين لم تتمكن أم "لوتسيا" من الذهاب إلى العمل. غيرها لم يكن مجبراً. هي لم تتمكن. وبشكل أدق كان بإمكانها الذهاب، ولكنها لم ترغب، وأجبرت نفسها على البقاء في البيت. لا بد أن العاملين تحت إمرتها سيكتشفون أنها كانت في المكتب أثناء عطلة العيد، وربما أحدهم سوف ينشر كلاماً بأنها تتجسس على مكاتبهم أثناء غيابهم. سمعت مرة ً عن شكوكهم. كان لديها أيضاً سبب آخر للبقاء في البيت. لقد قَدرت أن ابنتها ستعود أخيراً بعد ليلة عامرة في رأس السنة. دوائر تحت العينين، وشفاه ناشفة، ويدان مرتجفان، إذاً ـ كما عبرت "لوتسيا" ـ ستكون مكسورة بوحشية.

لم تحضر "لوتسيا" إلى البيت منذ ما يقارب الأسبوعين، و لم يحدث أن غابت مدة طويلة كتلك. حدث بالطبع أن هربت مرة من البيت، ولكن هروبها لم يستغرق سوى يومين. كان ذلك رقماً قياسياً. كانت الأم قد اتخذت قراراها بإبلاغ الشرطة عن اختفائها إذا لم ترجع إلى البيت بعد رأس السنة. ولكن ذلك سيكون نصراً كبيراً لـ "لوتسيا" لأن الأم تستخدم ضدها قوة الدولة التي تعتبرها "لوتسيا" قمة القسوة.

ـ المراقبة ومن ثم العقاب؟ ـ تصورت الأم أنها ستكون أول كلمات "لوتسيا" التي سيتبعها عدة أيام من الازدراء.

تمشت الأم بعصبية في البيت الفارغ. مسحت الغبار في البداية، ونظفت الحمام، وقامت في النهاية بتفكيك شجرة الميلاد. كانت بحاجة لإشغال تفكيرها، وطرد الأفكار السوداء التي كانت تهاجمها، وتوشوشها، بما في ذلك العمل على استصدار مذكرة بحث عن ابنتها من اللحظة التي غادرت فيها البيت. لم تفعل ذلك كي تثبت... ما هو الشيء الذي تريد إثباته لنفسها ولابنتها؟. هل هو قبولها بحرية "لوتسيا "؟، ومن ثم السماح لها بابتزازها؟ وأن بإمكانها العودة بشرط الرضوخ لسلطة الأم؟ لقد أيقنت الأم الآن أكثر من أي وقت مضى بأن تطبيق خبراتها السابقة لن يكون صحيحاً الآن، وأن من واجبها إعطاء حَملَ "لوتسيا" قيمة أكبر.

سمعت في وسط تلك التقديرات والريبة رنة جرس الباب. ابتسمت الأم، لأن ذلك الرنين المستمر يشير إلى رغبة ابنتها الجامحة في العودة إلى

البيت. فكرت وهي في طريقها إلى الباب بالطريقة التي عليها الترحيب بـ "لوتسيا". لم تكن بحاجة إلى بدء نقاش جديد، ولكنها لم ترغب أيضاً بالظهور وكأنها خففت من أو تراجعت عن موقفها السابق. سوف تكون عادلة وعقلانية.

ضغطت على زر جهاز فتح البوابة الخارجي وفتحت باب البيت. أخافها خيال الرجل الذي كان يتمشى على الرصيف باتجاه البيت.

ـ من تكونون؟ صرخت.

ـ جئت لزيارة "لوتسيا: ـ رد عليها الشاب.

لم يكن وجهه غريباً عن الأم، ولكنها لم تعرف من أين.

ـ لم أستخدم فيديو الجرس ـ شرحت له.

ـ المعذرة، لم أرغب في... ـ تأتأ الشاب ـ إخافتكم أو مفاجأتكم.

لم تتذكر الأم من أين تعرفه، ولكن ذاكرتها كانت تحدثها بأنها التقته في الماضي في مكان ما.

ـ تفضل ـ تراجعت عن الباب، وتركته يدخل إلى الصالة.

تطلع من حوله.

ـ لا أتذكر من أين أعرفكم. هل أنت زميل "لوتسيا"؟

ـ لا... ربما قليلاً. إنني أحضر بكالوريوس في الدراسات وسط أوروبية.

بدا على وجه الأم ظل من القرف. إنها تُحمّل ذلك الفرع مغبة جميع التحولات التي حدثت لابنتها في السنوات السابقة.انتبه الشاب إلى قرفها، وبدأ بالاعتذار:

ـ أعرف أن اليوم ليس يوم زيارات، ولكني هنا بمهمة عمل، ولكنه أيضاً ليس يوم عمل ـ إبتسم. ـ الناس يكونون عادة في رأس السنة الجديدة في بيوتهم، لهذا السبب خاطرت وجئت. إنني بحاجة ماسة للقاء "لوتسيا". أحاول الاتصال بها منذ أكثر من أسبوع ولكنها لا ترد. أظن أن الرقم الذي أعطاني إياه الأستاذ المساعد "فوكنار" غير صحيح، أو ربما أخطأ في بعض الأرقام.

كانت الأم منشغلة بوجه الشاب، لقد عرفته، ولكنها لم تتذكر من أين، حتى إنها لم تنتبه إلى حديثه.

وتأكيداً على اعتذاره، أراها على شاشة هاتفه رقم "لوتسيا". أشارت له بيدها إلى كنبة في الغرفة. جلس الشاب وبدا عصبياً على طرف الصوفا. حتى

حركاته كانت تؤكد معرفتها به. حين جلست مقابله على الكنبة اكتشفت فجأة سر التشابه.

ـ إنكم تشبهون "لوتسيا"! ـ صرخت مسحورة.

انحنت إلى الأمام كي ترى وجه الشاب بشكل أفضل. أدارت رأسها وابتسمت من شدة الشبه. بدأ الشاب بالتراجع قليلاً.

ـ أمر لا يصدق. لكما نفس العيون، والحواجب، وحتى تلك، ـ ومررت يدها على ذقنه ـ ألسنا أقارب؟ من أين يتحدر والداك؟

ـ أنا... لا أعرف. لا أعرف أي شيء عن والدي، وقد تربيت في دار للأيتام.

وكما أن الأم لم تسمع جوابه. تابعت تصفح وجهه وهي تبتسم. لقد أزعجه ذلك الاهتمام الذي خصته به تلك المرأة أكثر فأكثر.

ـ لقد جئت لرؤية "لوتسيا". ـ كرر كلامه برجاء. ـ هل بإمكانك لو سمحت أن تتصلي بها؟

ـ لسوء الحظ، ابنتي ليست في البيت.. لم تأت بعد.

ـ أها ـ تنهد الصبي.

ـ ربما يمكنني مساعدتكم.

ـ هذا أمر صعب. انني في الحقيقة أكتب أطروحة البكالوريوس حول موضوع: خصوصية الطفولة في الحالات الاجتماعية الحرجة.

ـ أها! أنتم طالب بكالوريوس؟ إنكم إذاً أصغر من "لوتسيا"؟

ـ أظن ذلك، ربما بسنتين أوثلاث سنوات، لم يسمح لها الشاب بمقاطعته.- لقد أخبرني مساعد البروفيسور "فوكنار" أن ابنتك تكتب مشروع التخرج عن شيء مشابه. وحسب زعمه يمكنها مساعدتي.

فكرت الأم بتصوير وجه الشاب كي تتمكن بعد ذلك من إطلاع "لوتسيا" على الصورة.

ـ ولكنكم تعرفون "لوتسيا" على ما أظن، أليس كذلك؟ ـ سألته.

ـ حتى الآن بالمشاهدة فحسب. الكلية ليست كبيرة... ـ أخرج الهاتف النقال من جيبه من جديد. ـ بما أني هنا أرى من الواجب التأكد من الرقم.

ـ الرقم لن يفيدكم لأن "لوتسيا" خرجت دون موبايل.

ـ ولكن متى ستعود؟

ـ لا يمكنني أن أعرف.

ـ إذاً لقد سافرتُ دون فائدة...

أحست الأم فجأة أن الشاب ربما يكذب. إنه عشيق ابنتها، وهي تنتظر منه ولداً. لقد جاء ليناقش "لوتسيا" حول المستقبل. لقد سمعت منذ مدة بأن الشركاء يتشابهون. ستكون نفس الحالة بالتمام.

ـ لقد أتعبتم نفسكم بالسفر من أجل "لوتسيا"؟ ـ سألته بحدة.

ـ الأصح من أجل نفسي. إنني بحاجة إلى مساعدتها، ـ أخرج الشاب دفتراً من محفظته، ونزع منه ورقة ـ سأكتب هنا اسمي، ورقم هاتفي الجوال، وعنوان بريدي الإلكتروني. أخبريها، أرجوك، أن تتصل بي في أقرب وقت. الأمر في غاية الأهمية كما يمكنني أيضاً مساعدتها. لقد تمكنت من الحصول على مصادر مهمة. الطفولة والأمومة وجهان لعملة واحدة.

أخذت الأم الورقة من الشاب، وألقت عليها نظرة سريعة.

ـ آدم؟ لطالما أحببت هذا الاسم. وأحبه زوجي أيضاً. لو كنا رزقنا بصبي... ـ توقفت الأم في منتصف الجملة، ولكنها صمتت لحظة لأنها بدأت تحدث نفسها. ـ إذا كنتم أصغر من "لوسيا" بثلاث سنوات... فإنكم بعد ذلك ولدتم في نفس السنة التي توفي فيها زوجي... حادث سيارة. بقيت وحدي، و لم أعرف ماذا أفعل. كانت "لوتسيا" صغيرة ولم يكن بإمكانها....

نهض الصبي من مكانه بعصبية، وتهيأ للخروج.

ـ أشكركم إذاً على رحابة صدركم ـ قال لها.

ـ انتظروا من فضلكم، ـ أمرته الأم. ـ سأريك على الأقل صورة "لوتسيا" كي تعرفوا مقدار شبهكم بها، كما أني أرغب في أخذ صورة لكم.

ـ في مرة ثانية ـ قال الشاب بجدية.

لقد أحس منذ البداية بعدم الراحة، ولكن الوضع الآن أصبح لا يُحتمل. عبر الصالة بسرعة. تابعته نظرات المرأة التي لم يجدها مزعجة فحسب، بل مختلة أيضاً.

قبل لحظات كانت تتطلع إلى وجهه بتمعن حتى إن دموعها بدأت تنهمر.

ـ افتحوا لي من فضلكم البوابة الخارجية ـ قال لها بدلاً من التحية.

بقيت الأم في مكانها وسرحت في تفكيرها. كان الهواء البارد الثلجي يضرب وجهها ويحرض أكثر خروج الدمع من عينيها. كان يُبرد وجنتيها. أغلقت بعد ذلك الباب ببطء. وأسندت عليه جبينها ووشوشت:

ـ يا إلهي، هبني حفيداً مثله إذا كنت لا أستحق ابناً..

# كلتورني ـ فوسبيتاتلنايا بروغرام

# (البرنامج الثقافي ـ التربوي بالروسية)

بدا "ألكسي" متحمساً حين ألقى القصيدة أمام "إرينا" وأمامي، كان في الحقيقة رائعاً. حين لم يتذكر بعض الكلمات، كان يدير عينيه في الغرفة، وينطلق بعد ذلك مثل آلة الموسيقى اليدوية، وهو يومئ برأسه على وقع كلمات القصيدة. كانت "إرينا" تلتهمه بنظراتها. عيناه عسليتان غامقتان مثل عيني والدتي، ولكن لونه الأبيض الشبيه بلون السماء في الصيف كان يذكرني بوالده الذي اختفى منذ زمن طويل. لون شعره بدأ يتفتح بالتدريج، وكان الآن أشقر، ولو أن "إرينا" لم تصر على تركه قصيراً جداً لكان بالتأكيد أجعد شبيهاً بشعر "ألكسي" الكبير.

حين انتهى الصبي كافأناه بتصفيق حاد. نهضت "إرينا" فجأة من كرسيها وخرجت بسرعة من الغرفة. نظر إليها "ألكسي" بخيبة، ظناً منه أنها لم تحب إلقائه. كانت الدموع تضغط للخروج من عينيه. ولكن حزنه تحول إلى فرح حين أبلغته "إرينا" بعد عودتها، وكانت في مزاج رائع، بأنها اتصلت للتو بالرفيق المسؤول السياسي "بيوتر بافلوفتش لبيديف ـ رانكوف" لا سلكياً، والذي أخبرها أنه أدرج القصيدة التي سيلقيها "ألكسي" في البرنامج الثقافي بمناسبة احتفالات الأول من أكتوبر العظيم. إن فرصة كتلك لا يمكن لأي صبي الحصول عليها ـ رفعت "إرينا" سبابتها ـ عليك أن تتعلم الإلقاء بصوت مرتفع، وواضح.

استقبلت غالبية النسوة بفرح كبير خبر نقلنا بالسيارة إلى المركز للمشاركة في احتفالات الثورة، لأن هذا يعني حصولهن على يوم إجازة، ولكن كانت بينهن من فهمت هذا الخبر بوصفه شركاً نصبته قيادة المعسكر. أيُّ تغير مهما كان نوعه يجعل السجينات يطرحن العديد من الأسئلة والفرضيات. لقد أكدن الآن بأنهم سوف يتركوننا في السجن الرئيسي، ويرسلون مكاننا سجينات قديمات أخريات. قررت غالبيتهن حمل أكثر ما يمكنهن حمله من أشيائهن لأنهن إذا تركن أي شيء في المعسكر فلن يصلن إليه في حياتهن. البولونية "جوفيا" كانت من النسوة اللاتي لم يخفن التحدث معي بصراحة حتى، إنها أعلنت بأنهم سيرسلوننا إلى أحد سجون سيبيريا. كانت تتحدث عن ذلك بقناعة تامة، حتى إن بذور الشك بدأت تتفتح في داخلي. قمت في أقرب فرصة بمراجعة جميع أوراقي الموجودة على طاولة الآمرة، ولكنني لم أجد فيها ما يؤكد مخاوف "جوفيا".

أرسلوا لنا في النهاية من "زونا" سيارتي نقل من طراز "كراوزيفياكي". قررت الآمرة بسرعة أسماء من سيذهبن لحضور الاحتفال، ومن سيذهبن إلى الغابة لتقطيع الخشب. صعدت الستاخانوفكي على ظهر السيارة الأولى، وعلى الثانية السجينات اللاتي كن يعملن بنشاط، ولم يتهربن من العمل، وهذا يعني أولاء اللاتي منذ الاحتفال السابق بثورة أوكتوبر، لم يتعطلن يوماً واحداً بسبب المرض. لحسن الحظ كنت بينهن. كنت أتوق كثيراً لرؤية "ألكسي" على خشبة المسرح. جلس الصبي في حجرة السيارة الأمامية بين السائق و"إرينا".

حين وصلنا إلى "زونا" وقفزنا من الناقلتين، تلقفتنا في الحال سحابة من البعوض الذي لم يتمكن الجليد الأول من قتله بقدرة السحر. أمرتنا "إرينا" في الحال بالاصطفاف على شكل مربع. كانت منذ مدة قصيرة قد رُفعت إلى مرتبة ضابط قديم، لذا أرادت بالتأكيد إظهار مدى انضباط سجيناتها أمام القيادة المحلية. ولكنها لم تُوفق. كان هناك من الأربع مجموعات ما يعادل الثلث، ولم نعرف على الإطلاق كيف علينا أن ننتظم في الصفوف مما جعلها تصرخ علينا مثل إنسان فقد عقله.

كنا في قسم الرجال من معسكر "زونا" حيث كان السجناء والجنود يتطلعون إلينا بفضول من كل صوب. كان الـ "دوخدياكي" أول الواصلين إلينا بخطواتهم المتعثرة، وأجسادهم النحيلة وهم في غالبيتهم من السجناء المرضى الذين تم إعفاؤهم من العمل ومن بقية الواجبات، ولهذا السبب، وبقليل من الطعام، كانوا ينتظرون موتهم. كانوا يمدون أياديهم النحيلة المغطاة بالبثور المتقيحة طلباً للطعام. صرخت "إرينا" في وجوههم، ولكن بعضهم، ويبدو أنهم لا يسمعون ولا يرون، تابعوا طريقهم إلينا ببطء شديد. أحدهم من الذين كانوا في السابق رجالاً أقوياء بقامات طويلة، كان يمشي الآن مطوي الظهر حتى الخصر وكأنه ينحني لأحد. انتبه إلى وجود "ألكسي" واتجه مباشرة إليه. إذا كان هناك من يعرف إظهارعواطفه وتأثره فلن يكون أحد سوى الطفل. شبك الرجل أصابعه، وكأنه يصلي، وأطلق بصوته الخشن العميق بعض الكلمات غير المفهومة، وهذا ما جعله يكشف عن لثته الحمراء الداكنة التي نزعت أسنانها. إن رؤية "ألكسي" لذاك المسكين جعلته يخاف ويختبىء وراء ظهر الآمرة. وصل المسكين إلى "إرينا"، ولكن حراسنا لم يتحركوا. فجأة ساد صمت قطعته بعض الكلمات غير المفهومة الخارجة من فم الـ "الدوخودياك". إن انحناء ظهر المسكين جعل رأسه يتقدم جذعه نصف خطوة إلى الأمام، ومن ثم يلامس ثديي "إرينا". جهزت الآمرة قبضتها ببطء، وبالتناسق مع وقع حركة الرجل، لكمته في صدره مما جعل ظهره ينتصب، ورأسه الشبيه بالخرقة يتأرجح قبل أن يسقط بين قدميها. أصدرت "إرينا" الأمر، وتحركنا جميعاً باتجاه بناء أرضي يمتد على مساحة واسعة.

أكدت النسوة بعد ذلك أن الرجل سقط على رأسه ومات في الحال، ولكني أحسست حين مررت بجانبه أنه كان لايزال يهمهم راجياً. ويمكنني أن أقسم بأن همهمته لم تتوقف حتى في اللحظة التي طار فيها في الهواء.

دخلنا إلى القاعة التي تصدرتها منصة عالية. كان هناك من البعوض أكثر بكثير مما رأيناه في الخارج. امتلأت المقاعد الخشبية البسيطة بالسجناء الذين لم تشبع عيونهم المتوحشة ذات البياض البراق من النظر إلينا وتأملنا. استقبلونا بصرخات خرجت من أفواههم التي كانت تلمع في بعضها أسنان من الفضة، كما كانت وجوههم تفضح قسوتهم وغضبهم الشديد الممزوج بمتطلبات ورغبات الكائنات الحية، ويبدو أن المجرمين أيضاً في "زونا" حصلوا على مكتسبات وشكلوا طبقة خاصة، سُمح لها بالمشاركة في البرامج الثقافية، بينما كان المعتقلون السياسيون ملاحقين بكل الوسائل الممكنة. كانت كلباتنا وبومساتنا يتطلعن إليهم بفرح وكأنهن يستفزونهم. لوحت "بتيتشكا" بيدها لأحدهم.

كان لا يزال في وسط القاعة تقريباً صفان فارغان. توجب علينا حسب تعليمات الحرس المحلي أن نجلس هناك. ولكن "إرينا" أوقفتنا، وذهبت إلى الصف الأمامي باتجاه مسؤولي القيادة وشرحت لهم شيئاً. كانت تشير حيناً إلينا بإصبعها وتارة إلى المقاعد الفارغة، وفي النهاية إلى المقاعد الأمامية التي كانت مشغولة. أظن أنها طلبت منهم أن يوفروا لنا أماكن مباشرة في الصف الموجود خلف عناصر القيادة لأنها أرادت إبقاء سجيناتها تحت المراقبة، ولكنها بعد لحظات رفعت كتفيها وجلست في الصف الأول، وأجلست "ألكسي" على ركبتها. أجلسونا بعد ذلك في الأماكن الفارغة.

صعد "ليبديف ـ رانكوف" إلى المنصة. هو أيضاً حصل مؤخراً على ترقية. أصبح الآن برتبة ميجر. ألقى علينا إحدى خطبه الطويلة التي تحدث فيها بالطبع عن مجريات ومعاني ثورة أكتوبر الكبرى. تحدث ببطء وبوتيرة واحدة وكأنه ملَّ هو أيضاً من خطاباته التي استخدم فيها جملاً طويلة، شرح فيها بصعوبة ما يريد قوله، مما جعلني لا أفهمه. كانت خطبته تختلف تماماً عن خطبة آمرتنا التي تحدثت بحرارة، ولكن بتوقفات عديدة، لأنها لم تتمكن من إيجاد الكلمات المناسبة كي تتابع أفكارها التي كانت معروفة للجميع، وهي كلمات بسيطة سمعتها من مصادر متنوعة وكررتها على السجينات في أول لقاء معهن.

أدهشني صمت السجناء الكامل الذي رافق خطبة "ليبديف ـ رانكوف ". لم تُسمع سوى أصوات تصفيق كفوفهم التي كانت تقتل البعوض، وبالرغم من ذلك أنهى القائد السياسي خطبته بالقول: إن جميع المساجين ليسوا أهلاً

لمشاهدة برنامج اليوم. أشار بالتدريج إلى ثلاثة سجناء، وقال إنهم شاغبوا أثناء إلقائه خطبته، مما جعل الحراس يخرجونهم من القاعة.

إذا كنت قد فهمت بشكل صحيح فإن البرنامج حاول أن يوصل إلينا فكرة مفادها أن الشرارة التي أطلقت ثورة أوكتوبر الاشتراكية هي التي أشعلت لهيب ثورة العمال السوفييت. ألقى السجناء الروس في البداية بعض القصائد. ساهم في البرنامج حسب ظني السجناء السياسيون فحسب، لأن وجوههم على المنصة كانت مختلفة تماماً عن الوجوه المتوحشة والمخيفة التي كانت تملأ غالبية مقاعد الصالة. أنشد الأوكرانيون بعد ذلك بعض أغانيهم الحزينة، ومن بعدهم غنى ورقص سجناء من ليتوانيا، وليتفيا. وكأن لهيب نارالثورة امتد إلى الغرب، ويمكن القول إن النار امتدت إلى الصالة وطالت المتفرجين، ولكنها كانت نار الشهوة. زحف أكثر السجناء شجاعة تحت المقاعد باتجاه الصف الذي جلست فيه النسوة مستغلين البرنامج الثقافي لعقد الصفقات مع السجينات وتنفيذها بعد إطفاء الأضواء أثناء عرض الفيلم.

ـ بايديم نمنوجكو بوتراخايمسيا، ـ همس أحد المساجين ووضع أمام عيني بأصابعة الوسخة حبة شوكولا. أدرت رأسي رافضة العرض. نقر الرجل على كتف جارتي وكرر عليها عرضه.

صعدت إلى المنصة فرقة مجرية، قامت بعزف موسيقى "التشارداش" التي كانت تعزف عادة في حفلات السمر في "زالسنا بوروبا". لم أفهم معاني كلمات الأغاني في حياتي، ولكن كلمات أغنية "هذا جميل، هذا جميل" مازالت محفورة في أعماق ذاكرتي منذ الطفولة. تذكرت وطني في الحال، وبالطبع تذكرت أمي.

جاء بعد ذلك البولونيون الذين عرضوا لوحة مسرحية طويلة تتحدث عن الثوار الذين حاكموا الخونة.

انتظرت حضور السلوفاك بفارغ الصبر، ولكن بدلاً من السلوفاكية سمعت أغنية ألمانية طويلة. فهمت أن المعسكر المركزي "زونا" خال من مساجين بلدنا. خطر ببالي لثانية فحسب أنهم أرسلوا أبناء بلدي إلى ديارهم ونسوني.كانت تدور بين السجينات بشكل منتظم أخبار مفادها أن حكومات كل دولة على حدة تطالب ستالين بإطلاق سراح مواطنيها.

لم أتعب رأسي بتلك الفرضية طويلاً لأن المسؤول السياسي أوصل "ألكسي" إلى منتصف المنصة. استغرب الصبي الذي عاش طوال حياته بين مكتب "إرينا" وغرفة النوم وجود ذلك الكم الكبير من المتفرجين ولا سيما الرجال، لأنه لم يشاهد في حياته هذا العدد في مجموعة واحدة. لوحت له بيدي. رد عليّ بإيماءة من رأسه بأنه يراني. تطلع بعد ذلك إلى الصف الأول حيث جلست"إرينا" وأومأ إليها خائفاً من جديد.

أحنى رأسه، وبدأ:

ـ ستيبان شتيباتشوف: بافليك موروزوف. مقتطفات.

ـ ليوشا، غرومكو! قاطعته "إرينا" بقوة.

ـ صمت "ألكسي" وتطلع إليها دون أن يفهم قصدها.

ـ غرومكو! لا تخف! صرخت " إرينا".

لطش "ألكسي" جبينه الذي جلست عليه بعوضة وبدأ:

ـ ستيبان شتيباتشوف: بافليك موروزوف. مقتطفات.

لم يكن"ألكسي" يلقي شعراً بل كان يصرخ، حتى إن صوته الطفولي ملأ القاعة وكأنه يصطدم بالجدران أوبالسقف ويلف ويدور فوق رؤوسنا. خطر ببالي فجأة كيف تلتهمه "إرينا" بنظراتها التي لا تشبع، ولكن حتى السجناء الذين كانوا نائمين وغيرهم ممن كانوا يغازلون النساء، تطلعوا الآن بفضول إلى الصبي الذي علقت على منتصف جبينه بالتمام بقعة حمراء أحدثتها البعوضة الملأى بالدم.

كان في بعض الأحيان يصرخ بشكل مزعج وقد بُح صوته.

ـ الوالد، كلمة غالية، تمثل الرقة، والقسوة في ذات الوقت. وحتى الدفء تحت سقف الوالد حيث إخوتي الصغار وأمي، لا يمكننا أن نشعر به حين لا يكون بيننا، ويصعب علينا ذكر تلك الكلمة....

تطلعت إلى ابني، قامة طفل صغير أمام خلفية من قماش أحمر، طفل لاحول له ولاقوة يغرق في بحر الشيوعية. أدركت الآن أكثر من أي وقت مضى حجم أسلوبي الخاطىء في تربيته، وفهمت أيضاً مغزى (تأنيبات) "آنا"، ولكن بشكل أعمق وبوضوح أكبر. تحولت البقعة المدماة على جبين "ألكسي" أمامي فجأة إلى نجمة حمراء، كما أضحى تفانيه في التعبير مستمسكاً ضدي، وبرهاناً على خلاف لا يمكن حله بين التعاليم التي تقدس الوالد والأم وبين يقظة الطلائعي "بافليك موروزوف" الذي وشى بأبيه للسلطات السوفيتية. أنا من درس "ألكسي" تلك القصيدة، وأنا أيضاً من زرع فيه بذرة تمزيق العلاقة بين الابن وأمه. لقد خدعت نفسي حين كنت أحياناً أقول بأني أربي "ألكسي" بالطريقة التي تجعل منه إنساناً جيداً دون أخذ الاعتبار للبلد الذي سيعيش فيه. من هو الإنسان الجيد؟ بالنسبة للشيوعيين كان "موروزوف". الطيبة هي مجرد كلمة يمكن بسهولة قلبها وشرحها بطرق متعددة. إن أساس خيبتي يتمثل في خوفي من الاعتراف لـ "ألكسي" بأني أمه. وكما أشارت "آنا": إن العلاقة بين الأهل والأولاد لا يمكنها أن تؤسس على الكذب والرياء، بل على الحب الصادق.

ضجت القاعة بتصفيق قوي، امتزج بصيحات السجناء الهائجين. انحنى "ألكسي" أمامهم، والفرح يشع من وجهه. قفز بعد ذلك عن المنصة وارتمى بين ذراعي "إرينا" وعانقها. ولكني شعرت بالخجل من نفسي ومنه أيضاً.

أطفئت الأنوار بعد ذلك وبدأ عرض الفيلم. كنت قد رأيت وأنا طفلة صغيرة قبل اندلاع الحرب في "ليفوتشي" بعض أفلام "شابلن"، و"لوريل وهاردي". هذا الفيلم كان بعنوان "الأم" ولكنه كان شيئاً مختلفاً، وربما بسبب التشوش الذي حصل لأفكاري وأحاسيسي وجدت نفسي متأثرة به بشكل قوي. تأثرت في البداية بالموسيقى الرائعة وبعد ذلك بأحداث الفيلم. حين رأيت المرأة التي آمنت بابنها بكل ما تعنيه الأمومة من رصانة وإنسانية وكل ذلك بسبب اعتمادها على التربية التي قدمتها له، تحدق بعيني من الشاشة، تجمدت، وشعرت كأنها أصابتني بالعين. لقد توقعت بالطبع طوال الوقت أن تلك الأم سوف تصبح إنسانة ثورية، أي إنها سوف تلتزم بطريقة التفكير الشيوعية المتعلقة بفهم الناس، ولكني وجدتها إضافة إلى ذلك امرأة مستعدة لفعل أي شيء لإنقاذ ابنها.

ـ ما الذي يحدث لك؟ ـ أمسكت بمرفقي إحدى النسوة.

رفعت كتفي فحسب. تابعت الفيلم وكأني في حلم، وحين أصبحت على ظهر الناقلة بقيت غارقة في تفكيري. بدأت أحس بعد ذلك بالحوار الجاري بين النسوة. رجتني "ريتا" عدم إخبار "نادا" تحت أي ظرف بأنها كانت مع رجل، وكان واضحاً أنها كلما رجتنا أكثر سيكون فرح الواشية لـ "نادا" أكبر.

ـ كم كان عددهم؟ ـ توجهت المومس الشابة "فرا " بالسؤال لـ "بتيتشكا".

رفعت "بتيتشكا" ثلاث أصابع. أومأت "فرا" برأسها اعترافاً بإمكاناتها.

ـ الرجال أغبياء ـ ضحكت "بتيتشكا" ـ ربما كنت سأقبل بالمجان، ولكنهم مستعدون للدفع.

أخرجت يدها من جيبها، ولوحت بقطعة ورقية:

ـ حتى إنها نقود حقيقية.

# DE IURE

## (حسب القانون باللاتينية)

سُمع صوت طرق على الباب في مكتب "فونكار".

ـ تفضلوا! ـ قال مساعد البرفيسور.

ـ الأستاذ المساعد "فوكنار"؟ ـ سألته المرأة الشابه، حين دخلت إلى الغرفة.

ـ نعم، أنا، ـ مد "فوكنار" لها يده مصافحاً. ـ تفضلي واجلسي.

أشار الأستاذ المساعد إلى الكنبة الموجودة بجانب الطاولة القديمة. جلست السيدة، وجلس "فوكنار" في الكنبة الموجودة أمامها واطلق ابتسامة قوية. نهض بعد ذلك بسرعة وقال:

ـ اعذريني، لقد نسيت أن أقدم لكم القهوة! كما ترين. إن عادة الاهتمام الزائد بالضيوف تصيب الأساتذة المساعدين قبل حصولهم على كرسي الأستذة ـ اعتذر لها.

ـ شكراً، لا أريد قهوة ـ ردت عليه السيدة ببرود.

ـ شاي، مياه معدنية؟

ـ لا، لا شيء.لا أريد إضاعة وقتك. عندي بضعة أسئلة فحسب.

أومأ الأستاذ المساعد برأسه وجلس. رتب مجموعة من الأوراق الموجودة فوق الطاولة.

ـ تفضلي ـ قال لها وهو يسحب الأوراق باتجاه طرف الطاولة المقابل للسيدة. ـ لقد جهزت نفسي لزيارتك... ستجدين هنا أمامك نسخة عن نشاطي المنشور خلال خمس سنوات. سأشرح كيف حصل سوء التفاهم. ظننت أن بإمكاني نشر جميع محاضراتي التي قدمتها حسب القوانين المرعية في المؤتمرات الدولية، علماً أن هذه المؤتمرات عقدت في حقيقة الأمر عندنا. لم يكن في نيتي بالتأكيد الحصول على نقاط أكثر مما أستحق، ولكني ظننت... حين يكون المؤتمر بالتعاون مع شريك أجنبي، مثلاً من تشيكيا، عندها...

ـ انتظروا من فضلكم، ـ قاطعته السيدة وسحبت من محفظتها بطاقة تعريف بالشخصية، ـ إنني شرطية.

أمسك "فوكنار" البطاقة وتفحصها غير مصدق.

ـ لا يمكنني تصديق ذلك، ـ تنهد، كل ذلك بسبب مقالتين...

ـ لست هنا بسبب مقالات، ـ أجابته الشرطية. ـ أبحث عن "لوتسيا هرليانسكا" المفقودة.

خرج من فم الأستاذ المساعد صوت شبيه بثغاء الماعز.

ـ غادرت المنزل قبل شهرين في الثالث والعشرين من تشرين أول، ومن ذلك الحين لم ترجع إليه. لم تعط عن نفسها أي خبر.

ـ أها فهمت الآن ـ أومأ المساعد برأسه. ـ ولكن إلى أين ذهبت؟

ـ أظن أنك لم تفهم. إنها مفقودة. لا نعرف إلى أين ذهبت. لهذا السبب أنا هنا.

تطلع الأستاذ المساعد منزعجاً من حوله:

ـ ليست هنا بالتأكيد!

ـ كانت تلميذتك أليس كذلك؟

ـ نعم، واحدة من بين كثيرات.

ـ ولكنك كنت مشرفاً على دبلومها.

ـ أطروحة التخرج في دراسة البكالوريوس ـ حدد الأستاذ المساعد.

نهض بعد ذلك من مكانه، ومشى باتجاه الخزانة، وأخرج مجلداً سميكاً. تفحصه لحظة.

ـ هل ترين؟ وجدته! ـ قال بانتصار، وأعطى الشرطية بعض الأوراق. ـ أنواع وخصائص الأمومة في الحالات الاجتماعية النادرة.

ألقت الشرطية نظرة بسيطة على الأوراق.

ـ الأمومة في الحالات النادرة، ـ قالت وهي تفكر. ـ هل كنت على علم بأنها حامل؟

مد الأستاذ المساعد كلتا يديه بسرعة:

ـ لا أظن بأنك تعتقدين أنها حامل مني!

حدقت الشرطية به بطريقة تهكمية.

ـ لا أظن ذلك، ولكن يمكنك أن تشك من يكون الوالد.

ـ لا أشك بأحد.

ـ الطلاب عادة يتصاحبون فيما بينهم...ربما يكون أحد زملاء الدراسة. ألم يكنِ لها أصدقاء؟

- لا أتابع تلك الأشياء.

- كيف كانت؟

- أعتقد أنها فسرت حملها بوصفه حالة اجتماعية نادرة من الأمومة. لقد كانت "هرليانسكا"مضطربة عصبياً مع ميول هيسترياتية، ومرشحة لفصام الشخصية.

ـ تشخيص نهائي؟!

ـ كيف تلقت عائلتها مسألة حملها؟ ـ سأل "فوكنار".

ـ بالتأكيد، بتفهم كامل. والدتها إنسانة متمدنة. ما الذي أردت الوصول إليه من خلال هذا السؤال؟

ـ يمكن القول إن رأي "هرليانسكا" بالحمل لم يكن متمدناً. الأغلب أنه كان قديماً، وكأنه أيقظ فيها شيئاً سلفياً Atavismus، غريزياً...

صمت الأستاذ المساعد لأنه شاهد كيف بدأت الشرطية بقراءة الأوراق، ولكنه عاد للكلام بعد لحظات:

ـ لا يمكنني الجزم بأنها لم تكن مهتمة بموضوع رسالتها. ربما كان اهتمامها كبيراً جداً كما يحدث عند غالبية الطلاب. لقد منحت النص الكثير من العاطفة والقليل من العقلانية تماماً كما فعلت مع المراجع الأدبية.

ـ هل حاولت انتقادها؟ لقد أخبرتني والدة "لوتسيا" بأنك طلبت منها إعادة كتابة مشروعها.

ـ هذا ما كان سيفعله أي مشرف. لم تكتب مشروع تخرج بل شيئاً، ـ قام المساعد برسم قوسين بسبابتي يديه في الهواء ـ ربما رواية، أو لا أعرف.

ـ هل تجاوبت مع انتقاداتك، ـ كررت الشرطية حركة رسم القوسين كما فعل الأستاذ المساعد ـ باضطراب عصبي وهيسترياتية؟

ـ لا أعرف، لأني أوصلت إليها انتقاداتي عن طريق الإيميل... ولكن إذا كنت تظنين بأني أوصلت "هرليانسكا" إلى الانتحار فهذا يجعلني أعترض بشدة!

ـ أعتقد بأنها لا تزال على قيد الحياة، ولكن عليّ أن أكتشف مكانها.

ألقت الشرطية نظرة على الأوراق:

ـ إنها تكتب هنا عن أبحاثها بطريقة التاريخ المحكي (الشفهي).

ـ تعتبر الذكريات المروية منذ القدم قسماً هاماً من العلاقات بين الأفراد والعلاقات الجماعية. كانت لديها فرصة تحويل الرواية الصغيرة إلى قصة كبيرة.

ـ هكذا إذاَ... وما الذي كانت تبحثه " لوتسيا هرليانسكا" تحديداَ؟

ـ لقد أجرت تحقيقاً مع إحدى المسنات التي كانت سجينة في "الكولاك" السوفيتي.

ـ هل تعرفون اسم وعنوان تلك ـ رسمت الشرطية قوسي الأستاذ المساعد ـ المسنة؟

ـ لا... ولكن هل تعرفين؟ ربما يكون ذلك ممكناً،- فكر الأستاذ المساعد، ـ هربت لملاقاتها!؟ لقد اكتسبت "هرليانسكا" خبرة علمية من خلال الاستماع إلى قصتها. إن ضعف الشخصية الذي تميزت به تلك الطالبة جعلها تجد السند عند تلك الأم القوية. إنها بحاجة إلى امرأةٍ من النوع الذي عاش في "الكولاك". النموذج الأصلي للأم الكبيرة. شيئاً مشابهاً يُكتب اليوم في الدراسات الكلاسيكية...

نهض "فوكنار" وألقى نظرة على مكتبته. بحث عن الكتاب الذي استند عليه في كلامه، ولكنّ قرعاً على الباب شغله عن مهمته. تمشّى بغضب باتجاه الباب، وصرخ بالمرأة المسنة التي أزعجته بدخولها:

ـ لا تزعجينا الآن، تعالي بعد ساعة.

ـ لا حاجة،-نهضت الشرطية، ـ إنني سأغادر.

رافقها "فوكنار" إلى الباب.

ـ شكراً على... ـ كررت الشرطية حركة "فوكنار" للمرة الثالثة ـ الرواية. هاك بطاقتي، إذا صادف واتصلت بكم "لوتسيا" أو إذا تذكرتم شيئاً يمكنكم الاتصال بي على الفور.

ـ بالتأكيد ـ دس الأستاذ المساعد البطاقة بتأن في جيبه، والتفت إلى الزائرة الجديدة. ـ أدخلي إذاً، واجلسي.

حين جلست الزائرة الثانية، ابتسم لها "فوكنار":

ـ اعذريني على انفعالي، كل ذلك بسبب الشرطة.

ـ إنني أتفهم الوضع، ـ لوحت السيدة بيدها وكانت قد جلست، ـ وأنا أيضاً كنت سأبدو عصبية إذا كان عليّ اجتياز تحقيقين. إنني البروفيسورة "نوفوتنا" من لجنة تصديق الشهادات في وزارة التعليم. إنني هنا بسبب قضية تزوير تصاريح النشر التي ارتكبتها مراراً وتكراراً.

# بوركا

## (العاصفة الثلجية بالروسية)

بدأ كانون الثاني من عام ألف وتسعماية إثنين وخمسين شبيهاً بمثيله قبل سبع سنوات، حين أمضيت أول فصل شتاء في السجن. لم يكن ذاك الجليد الروسي الرهيب ولكن الثلج كان من الكثافة بحيث انقطع الطريق الواصل بين "أرتك" والمركز. كان التنفس في غاية الصعوبة أثناء تلك العاصفة الثلجية التي كانت رياحها تخترق الثياب وتصل إلى الجلد، وتحرق الأنف وتنخر العيون.

ـ هذه الأرض تتحاشاها الشمس ـ رسمت "أكافيا" الصليب.

كنت أخرج مع "ألكسي" في نزهات قصيرة. صعدنا إلى الرصيف الذي تسير عليه المجموعة. ارتعب "ألكسي" في إحدى المرات، وأكد أنه رأى ذئباً كبيراً أثناء هبوب العاصفة الثلجية التي كانت أمامنا، ومنذ ذلك الحين توقفت عن الخروج معه إلى خارج المعسكر.

استمرت العاصفة عدة أيام. انقشعت بعدها السماء، ولكن البرودة اشتدت بشكل كبير. انخفضت درجات الحرارة ووصلت إلى ثلاثين تحت الصفر. وزعت علينا المشرفات دهوناً للوجه وعاد إلينا الألم الذي أحدثه الزمهرير السابق في أطرافنا.

لم يصلنا التموين من المركز حتى الساعة. حين أبلغوا "إرينا" باللاسلكي بأن العاصفة أوقعت الجسر، بدا واضحاً أن السيارة لن تصل إلينا إلا بعد وقت طويل. كنت الوحيدة التي أسرتها "إرينا" بما حدث. كان من المفروض ألا تعرف السجينات بذلك ولا حتى المشرفات.

ـ سنأخذ ما يكفينا للعيش مع "ليوشا" لشهر ونصف، ـ همست لي "إرينا" حين فتحت بسرية مخزن المؤونة الاحتياطي المحفور تحت الأرض. كان هناك البسكويت إضافة إلى العشرات من علب الكونسروة الكبيرة. لم أفهم قصدها حين قالت لشهر ونصف، ولكني لم أسألها الشرح.

ـ هذه يمكن توزيعها على السجينات، ـ قالت "إرينا" وهي تتطلع وتشير باتجاه الكعك المتعفن. ـ خذي خمسين علبة كونسروة للصبي.

ذهبنا بعد ذلك إلى مستودع السلاح. علقت "إرينا" على كتفي بعض الساموبالات وحملت وحدها بعض علب الذخيرة الصغيرة. تركت في

المستودع بعض الذخيرة والقليل من المسدسات. وضعنا السلاح في غرفة نوم "إرينا" تحت السرير. إذا كنت فهمت فإن "إرينا" حضرت نفسها للتصدي لأي انتفاضة، ولكن يصعب القول ما إذا كانت تخاف أكثر من السجينات أم من الحارسات؟ حين كان عليّ العودة في المساء إلى الكوخ، أمرتني بألا أخبر أحداً ولو بكلمة.

ـ ولا حتى أُمك "آنا شنايدر"، - أكدت، وحولت نظرها بعد ذلك وأضافت: ـ ربما سيصل بنا الأمر بعد وقت للخوف على حياة... ابننا.

تساقط الثلج في صباح اليوم التالي بكثافة كبيرة واستمر هبوب الرياح الباردة، ومع ذلك لم تنحسر موجة الصقيع. أخبرتنا الآمرة أثناء الاجتماع الصباحي أن وقت العمل سيتقلص إلى أربع ساعات في اليوم، وستتناقص بالمقابل حصص الطعام بمعدل الثلث. أحدثت تلك المفاجأة بين المجموعات الواقفة نوعاً من التذمر. أضافت "إرينا" أنه نظراً للطقس البارد فإن المجموعة لن تذهب إلى الغابة بل ستعمل بالقرب من المعسكر لتأمين الحطب اللازم للتدفئة.

شددت الآمرة الحراسة على المطبخ خوفاً من حدوث نهب للمواد الأولية. فُقد الطحين في البداية ومن ثم توقف توزيع الخبز علينا. كان واضحاً للسجينات أن سيارة التموين لن تصل، وستكون المجاعة بانتظارنا. الكلمة الأولى كانت للنسوة اللاتي كن في السابق في معسكرات سيبيريا. تذكرن أوقاتاً تحول فيها السجناء في ظروف مشابهة إلى آكلي لحوم البشر. الشيوعية "زويا كوليكوفا" أكدت أنهم لن يتركونا نموت، وسيرسلون دبابة لإبعاد الثلوج، وتأمين الطريق لسيارات النقل. لم تكن تعرف أن الدبابة لا يمكنها الوصول إلى هنا إذا كان الجسر متهدماً.

اقتربت مني "إرينا" في تلك الأيام أكثر بكثير من السابق، أسرتني بأن القيادة لا تهتم بمصيرنا على الإطلاق. يقولون بأنهم سوف يرمون إلينا التموين من الطائرات حين سيتحسن الطقس، ولكن يتعذر عليهم حتى الساعة فعل شيء لأن العاصفة قوية جداً.

ـ يمكنني ربما تشكيل مجموعة من أقوى السجينات القديمات، وإرسالهن سيراً على الأقدام إلى المركز الرئيسي... ثلاثين كيلومتراً في الثلج، وفي العاصفة... أظن أنهن سيجتزن الطريق بنجاح.، ولكن ماذا عن الحارسات اللاتي سيرافقنهن؟ أقوى السجينات القديمات هن المومسات، ويمكنهن قتل الحارسات في الطريق. سيقول "جورافين" إني تسببت في قتل جندياتي بإرسالهن إلى موتهن المحقق.

تطلعت "إرينا" في وجهي وكأنها تتوقع نصيحتي. أدركتُ أن صمتي سيكون الأفضل، لذا أومأت برأسي فحسب.

بعد لحظات من التفكير، استأنفت الحديث:

ـ لا يمكنني السماح بحدوث مجاعة في معسكري. إذا أرسلتهن سيبقى ما يكفي من الطعام للباقيات... ـ أدارت رأسها بسبب فكرتها. ـ ولكن من سيبقى لي هنا؟ العاجزات! وإرسال الستاخانوفكي إلى الخارج؟!

تم بعد ذلك تخفيض المخصصات إلى ثلاثة قطع من التوست المعفن في اليوم. اقتصر العمل على إبعاد الثلج وحمل الخشب. أمضت السجينات يومهن مستلقيات على ألواحهن الخشبية ولا شيء يفعلنه سوى تبادل السباب، والمشاجرة. المومسات يُخلصن النساء الضعيفات قطع التوست ويصنعن منه مصايد للجرذان في المكان المستخدم سابقاً لحفظ البطاطا والخضار. لقد وقعت بعض القوارض في الفخ، ولكن الجرذان الجائعة كما البشر قضت عليها بسرعة.

الحارسات كن يدخلن إلى الكوخ كل ساعة لمعرفة ما يجري. لم يحدث أي شيء حتى الساعة ما عدا زيادة التوتر بين السجينات. كانت الأجواء ملبدة بضباب سام يحوم فوق الجميع. كل نظرة كانت تعني دعوة للقتال، وكل كلمة تقال تخفي وراءها كلمة أكثر خطراً منها.

لم تطلني التغيرات الحاصلة. تابعت الذهاب كل صباح إلى مكتب "إرينا" كي أدرس أو أسلي "ألكسي"، ومن ثم لم أشعر بنقص في المواد الغذائية لأن علبة الكونسروة التي كنا نفتحها كانت كافية لـ "ألكسي"، و"إرينا " ولي أيضاً. حتى إني تمكنت من دس قطعة في جيبي لـ "آنا". كانت الوحيدة التي أطلعتها على نقل الآمرة لقسم من التموين إلى غرفتها.

ـ وليمة عيد الميلاد ـ همست "آنا" حين أعطيتها في العتمة قطعة لحم.

بدأت في ذلك اليوم أعياد الميلاد، ولكننا في تلك الظروف لم ننتبه إليها على الإطلاق.

الحارسات كن أكثر توتراً وقسوة، لأن تخفيض المخصصات طالهن أيضاً. الوجبة المقرفة التي حصلن عليها كانت مطبوخة من لحم الحصان الذي كان يساعدنا في نقل الخشب.

أدهشتني كثيراً الدقة التي كانت "إرينا" تتوقع فيها تطور الأمور. حين قالت في السابق إني سأنام في مكتبها، تلقيت الأمر بوصفه قراراً لا يمكنني فهم أسبابه، وفي ذات الوقت لا حاجة للتفكير بأبعاده.

تحسن الطقس مع بدء كانون الثاني. تلقت "إرينا" في صباح أحد الأيام الصاحية خبراً مفاده أن طائرة ستحلق فوق معسكرنا، وسوف ترمي بوساطة المظلات طروداً ملأى بالمواد الغذائية، ولكنها بالرغم من ذلك حافظت على حذرها السابِق. شرحت لي بأن التموين من الجو يعتمدِ على

الطقس. إذا جاءت غيوم أو هطلت الثلوج سنبقى حيث كنا. لهذا، أمرت بالتقتير في كمية التوست الموجود في الأقفاص الأولى. رموا لنا في اليوم التالي المعلبات، وفي وقت متأخر الطحين. عدت إلى مكاني في الكوخ بعد أكثر من أسبوع حين وصلت إلى معسكرنا ناقلة التموين. عادت السجينات للعمل في الغابة.

بقيت "آنا" في المعسكر بسبب مرضها. ساءت حالتها خلال اليومين اللذين أمضيتهما خارج الكوخ. كانت تسعل باستمرار، وقد امتلأ جبينها بقطرات العرق. وبالرغم من محاولتها إخفاء مرضها أمامي، عرفت بأنها بدأت تتقشع الدم. هنا كان بانتظارها الموت فحسب. استخدمت تقارب "إرينا" مني، وطلبت منها إرسال "آنا" إلى المشفى الموجود في المركز. وافقت على طلبي، وبذلك تكون قد تخلصت من سجينة ضعيفة.

أطلعتني "آنا" قبل مغادرتها عما حدث أثناء غيابي عن الكوخ. تحدثت السجينات القديمات جهاراً وبصوت مرتفع عن ضرورة قتل إحداهن وأكلها. كان التوجه في البداية يميل إلى قتل إحدى المسنات. "آنا" أو "أكافيا"، ولكنهن اتفقن بعد ذلك على قتلي بوصفي واشية ومحبوبة الآمرة.

وقفت مع "آنا" وتعانقنا بالقرب من سيارة النقل.

ـ لا تفقدي الأمل، ستعودين ـ همست من خلال دموعي.

ـ لا تخيفيني! ابتسمت "آنا"، أعود إلى جهنم تلك؟

كنا نعرف أن إحدانا ترى الأخرى للمرة الأخيرة، لأنهم حتى في المشفى، ولا سيما في تلك الموجودة في المركز حيث التجهيزات سيئة، لن يتمكنوا من مساعدتها.

هرع "ألكسي" باتجاهنا.

ـ العمة "آنا". لقد رسمت هذا لك كي تتذكرينا.

سلمَ "آنا" صورة كان قد نقلها من كتاب القراءة. رُسم عليها وجه مشوة لرجل بشاربين.

مسحت "آنا" دموعها و تطلعت بانتباه إلى الورقة:

ـ إنه ستالين؟

ـ أومأ "ألكسي" برأسه.

ـ والد الأمة.

ـ هممم... والد الأمة... ـ كررت "آنا".

أشارت غاليتي، وهي أفضل العارفات بما يجري، وأكثرهن شجاعة، وأفضل صديقة لي، وهي التي كانت حياتي عندها دائماً أثمن من حياتها، بإصبعها إليّ، ونطقت بما يمكن وصفه أكثر الأشياء جنوناً وخطورة:

ـ "لايوش"، هذه أمك.

ـ جحظت عينا الطفل وهو يحدق بوجهها.

ـ إنها العمه "سوزا" ـ صحح لها.

ـ لا، هذه هي أمك أ "إرينا ميخايلوفنا" سرقتك منها.

صعدت "آنا" التي كانت تتنفس بصعوبة إلى الركن الخلفي من الناقلة. لحقت أنظارنا الناقلة التي بدأت تبتعد عنا، وحين انحنت "آنا" لتلوح لنا، لم يتمكن أي منا من رفع يده.

ـ لا تخبر أمك بما سمعته من "آنا" ـ قلت للصبي.

ـ ما قالته ليس حقيقة، أليس كذلك؟ ـ أراد الصبي التأكد.

## مكسيم غوركي

## (أديب روسي وسوفيتي. رائد الواقعية الاشتراكية)

تميزت أيام "ألكسي" التالية بالكآبة والاستنكار. خفت كثيراً من بوحه بما سمعه من "آنا" أمام "إيرينا". لحسن الحظ ذهبت الضابط إيرينا للمشاركة في دورة تدريبية لعدة أيام في منطقة بالقرب من "فورونيجي". منحتُ موافقة، وبالتحديد أمراً بالسكن في تلك الفترة مع "ألكسي" في غرفتها.

كنت أقص عليه الحكايات التي كان بمساعدتها يقوم برسم الصور، كما كنا نتنزه، وقمنا بتشييد رجال الثلج. كنت أجره على الزلاجة الخشبية في المناطق القريبة من المعسكر، ومن ثم كان بوسعي المرور عبر بوابة المعسكر في أي وقت.

رأينا في إحدى المرات أنثى الظبي مع أولادها الصغار. وقف "ألكسي" يتطلع لها بصمت. التمعت عيناه من الفرح. حين استلقى في مساء ذلك اليوم في سريره، سألني:

ـ هل يمكن أن يلتهم الذئب الغزالة مع أولادها الصغار؟

ـ لنُصلِّ كي يحميهم الرب ـ أجبته.

تطلع "ألكسي" في وجهي دون أن يفهم ما أعنيه. بدأت أشرح له بتأن وطول بال بأن عالمنا هو جزء من عالم كبير يتحكم به "الرب"، ملك الملوك الذي يراقبنا، ويتذكر ما نقوم به من أفعال حسنة، أو شريرة، ويسمع كذلك صلواتنا، وحين تكون صادقة بحق فإنه يساعدنا... لم أكن قد وصلت إلى ربع ما رغبت إخباره به، لأن تنفسه العميق تمكن من قطع سلسلة أفكاري.

كان مخططي متابعة حديثي في الليلة التالية، لكن عودة "إرينا" منعتني. أعطت "ألكسي" سيارة خشبية من صنع السجناء في المعسكر الذي أمضت فيه الدورة التدريبية، وعقدت حول رقبته ربطة عنق حمراء (فولار) هدية من طلائع المنطقة. أرادت تعليمه في الحال كيف يُعقد الفلار، ولكن الطفل لم ينجح في المهمة.

حين أستلقي في العتمة على لوح الخشب في الكوخ، كنت أعاتب الرب وأنا أصلي:

ـ ياإلهي، امنح ولدي هداية الروح القدس، ولا تجعله يخطىء ويذكر أمام "إرينا" أي كلمة عن الرب.

أطلعتنا الضابط القديم "إرينا" مباشرة أثناء الاجتماع الصباحي على ما تعلمته في الدورة التدريبية، كما أخبرتنا من خلال حوار قصير عن كشف الكرملين لمؤامرة قامت بها مجموعة من الأطباء الذين أرادوا تسميم الرفيق ستالين مع مجموعة من قادة الدولة والحزب، وتلك حسب قولها تعتبر براهين قوية على الضغط الامبريالي المُسلط ضد الاشتراكية. أشارت إلى أنها ستكون من الآن فصاعداً أكثر يقظة من ذي قبل. إن اضطهاد الأقلية من قبل الأكثرية سوف يتطلب بالتأكيد دماً أقل من اضطهاد الأقلية للأكثرية. كان واضحاً أننا نحن السجينات نُعتبر الأقلية التي عليها أن تدفع الثمن من دمها.

ـ كما قال مكسيم غوركي: حين لا يلقي العدو سلاحه علينا أن نسحقه ـ أنهت "إرينا" مطالعتها.

انتشر بين السجينات مباشرة بعد الإجتماع خبر تسلم "غوركي" قيادة المعسكر المركزي.

لم تكن "إرينا" تتحدث عن عبث. حين وصلت إلى غرفة مكتبها لأدرس "ألكسي"، استقبلتني وهي تُكشر بسخرية:

ـ ليكن بعلمك أن حاميك المخلص، السيد الطبيب هو الآن رهن الاعتقال. لقد تورط أيضاً في مؤامرة أصحاب الأرواب البيضاء. إذا كنت تعرفين أي شيء يمكن أن يساعد في التحقيق، أخبريني به في الحال.

ـ أنا... وكيف لي إذا كنت قد رأيت الطبيب للمرة الأخيرة في الربيع، أثناء المعاينة؟ ـ تأتأت خائفة.

ـ تقولين: لا تعرفين ـ لوحت "إرينا" بيدها وراحت تبحث عن الكلمات،

ـ إذا كنت ترغبين في البقاء بوصفك مدرسة لابن الضابط فمن الواجب ألا يكون هناك أي ظل من الشك بولائك.

وصل بعد الظهيرة خبر بوساطة الإذاعة، جعل الآمرة تعلن حالة التأهب القصوى. كنت أدرس"ألكسي" في غرفة نومها، ولكني سمعت كيف نادت "إيرينا" من خلال الباب على الحارسات، باستثناء اللاتي كن مع المجموعة في الغابة، كي تخبرهن عن حدوث حريق في القسم النسائي من المعسكر الرئيسي. احترق المبنى الكبير حيث تسكن عدة مجموعات من السجينات. وصل بعد دقائق خبر جديد. أصدر العقيد "جورافين" أوامره بإرسال قسم من السجينات إلى المعسكر السادس بسبب عدم وجود مكان في المركز الرئيسي لإيواء السجينات. توجب على "إرينا" التفكير بالطريقة التي ستتعامل بها معهن، وبالمكان الذي ستؤويهن فيه، وكيفية المحافظة على سير العمل في المعسكر. حدثت حركة غير مسبوقة في مكتب الآمرة إذ

توافدت الحارسات عليها فرادى وفي مجموعات، وكانت "إرينا" تملي عليهن الأوامر التي تعود لتؤكدها بعد لحظات، ومن ثم تلغيها، ومن جديد تعود لتؤكدها. جلستُ مباشرة بجانب الباب، وحاولت التقاط كل كلمة تتفوه بها. كان "ألكسي" في ذلك الوقت يحلُ المسائل التي اخترعتها له كي يحافظ على سكوته. توجب على المسكين في ذلك اليوم حساب ما يقرب عشر صفحات.

وجدت "إرينا" الحل المناسب بعد الظهيرة، وقبل ساعة من وصول أول سيارة نقل تحمل السجينات القديمات من المركز. سوف تشكل من المائة وخمسين سجينة اللاتي كن في طريقهن إلينا مجموعة عمل ليلية، تتبادل العمل مع سجيناتنا اللاتي سيعملن في النهار ويرقدن في الليل، في حين سيحدث العكس مع السجينات الجديدات اللاتي سينمن في النهار ويعملن في الليل، وبذلك لن تكون هناك حاجة لنصب الخيام أو إلى أي إقامة مؤقته أخرى. سوف تتبادل النسوة أماكن النوم على الألواح الخشبية. حين وصلت من المركز جميع سيارات النقل من نوع "كروزافيك"، أعلنت "إرينا" عن اجتماع. كانت بحاجة إلى شرح ما تعلمته في الدورة التدريبية أمام هيئة ساكني "أرتك" الجدد. رحبت بالسجينات القادمات من المركز، ومن ثم شرحت فكرة كون العمل المنتج ليس مجرد نشاط روتيني باليدين فحسب، بل هو نشاط إبداعي يساهم بشكل كبير في نشر الرخاء بين الأغلبية. لا أحد يدري السبب، ولكن كلمة الأغلبية أصبحت الآن من الألفاظ المحببة، وأكثر من ذلك، أضافت: إن عملاً كهذا يصب في صالح الشعب والاشتراكية، ويحول الناس إلى أبطال.

كانت ترغب بالتأكيد بإلقاء محاضرة أطول، ولكنها لم تتمكن من استحضار الكلمات المناسبة، لهذا أبلغت النسوة بأنهن سيبقين في المعسكر السادس ريثما يتم بناء أكواخ جديدة، كما َوعدتْ السجينات اللاتي يوفرن معلومات صحيحة عن الظروف التي أدت لحدوث الحريق، بتخفيف عقوبة السجن إلى النصف.

بدا الأمر وكأن النساء الآتيات من المركز أحببن الإقامة عندنا، وحسب زعمهن فإننا نحصل على حصص أكبر من الطعام، كما أن آمرتنا لا تسمح بحدوث سرقات كبيرة كما هو الحال في المعسكر الرئيسي. عرفنا من السجينات أن الجميع يتحدثون عندهم عن سجين جديد، أحضروه منذ مدة قريبة إلى قسم الرجال من المعسكر. هرب الرجل قبل نصف سنة من المعسكر الموجود في مكان ما من سيبيريا مع اثنين آخرين إضافة إلى كيس ملح تحت المعطف. اتفق مع أحدهما بعد عدة أيام من الفرار على قتل الثالث وأكله. بعد عدة أسابيع فعل الشيء ذاته مع الثاني. حين ألقوا عليه القبض بالقرب مِن إحدى القرى، كانت لا تزال في جِيبه قطعة من لحم

البشر المملح. أضافوا إلى عقوبته عشرين سنة وأرسلوه إلى السجن المركزي. المجرمون المحليون الآن لا يعرفون ما إذا كان عليهم قبوله بينهم أم قتله. سألتهن عن "آنا شنايدر" ولكن السجينات من الأسفل لم يسمعن بها.

غرق رأس "إرينا" بالمهمات الجديدة. كان عليها في الظروف الجديدة تنظيم سير العمل في المعسكر الذي تضاعف عدد سجيناته، إضافة إلى العديد من التغيرات. لقد اختلف الأمر، ولم يقتصر على تأمين إقامة السجينات وإطعامهن، وتوزيع الحارسات، بل كانت هناك الجنديات المرسلات من المعسكر الرئيسي.. أكبر المشكلات التي اعترضتها كانت مشكلة تأمين الطعام. توجب على "إرينا" من الأسبوع الأول تذكير متعهد الإطعام في المركز بوساطة جهاز الاتصال عدة مرات بأن عدد المحكومات في "أرتك" قد تضاعف. حتى إني من خلال شق الباب، سمعت جدالاً صغيراً جرى بينها وبين العقيد "جورافين". لم تكن سجينات المركز متعودات على أعمال التحطيب في الغابة، ولهذا فإن نتائج عملهن في الليل بقيت أدنى من المستوى المطلوب تنفيذه، مما جعل "إرينا" ترفض حساب عملهن ضمن عمل سجيناتها السابقات، ولكن "جورافين" صدها قائلاً: "إرينا" الآن مسؤولة عن جميع السجينات في المعسكر السادس، ومن واجبها إجبارهن على العمل بشكل أفضل. صرخت "إرينا" بعد ذلك بالحارسات وأمرتهن بتشديد الرقابة على عمل السجينات أثناء وردية المساء، واختيار اثنتين أو ثلاثاً من المخربات لإيداعهن الحبس الانفرادي بسبب الشغب.

# أوتشستفو

## (بالروسية، اسم الأب الذي يوضع بين الاسم والكنية)

تم تمديد الفترة التي يمكنني البقاء فيها مع "ألكسي" من الصباح حتى المساء بفضل الحريق الذي حدث في المعسكر الرئيسي. كانت "إرينا" المنهكة عصبياً وجسدياً تحضر لرؤيتنا لدقائق معدودات خلال النهار في غرفة النوم.. ترتمي على السرير وتفتح ذراعيها القويتين وتطلب من "ألكسي" معانقتها كي تشعر بالبهجة كما تعودت. أطاعها هذه المرة ولكن بتحفظ بالرغم من كآبته، وتعكر مزاجه،وهي ذات الطريقة التي استخدمها معي. لقد شوشت كلمات "آنا" روح الصبي، وجعلته لا يعرف كيف يتصرف. رأفتُ بحاله، ولكني مع ذلك لم أقدم سوى القليل لمساعدته. تعذبت معه، ولكن عذابي لم يقلل من معاناته. ومثلما كان يقف في تلك الأيام أمام سؤال، لم يجد له جواباً، كنت أقف أنا أيضاً أمام سؤال لا أعرف الإجابة عليه. لم أعرف ما إذا كان عليّ التحدث مع "ألكسي" حول كلام "آنا" أم تصنع عدم الاهتمام، أم عليّ شرح الأمر بتفاصيله وهذا يعني تحريض الجرح، أم الإيمان بأن الصبي سوف ينسى و سيلتئم الجرح وحده. لقد فشلت في إيجاد الجواب الشافي على جميع تلك الأسئلة. حتى إن بؤسي جعلني أفكر في النهاية بضرورة مصارحة "إرينا" بالأمر.

حين رأيت في كتاب قراءة الصبي نصاً بعنوان "ناشا سيميا" (عائلتنا)، قلبت الصفحة في الحال. انتبه "ألكسي" وفتح الصفحة من جديد. كنت أرغب بالقول إن بإمكاننا تجاوز ذلك النص، ولكن دخول "إرينا" في تلك اللحظة منعني. استلقت على السرير وقالت:

ـ اقرأ، لايوشكا.

ـ بدأ الصبي بقراءة نص يتحدث عن عائلة يعمل فيها الأب بوصفه سائق تراكتور، والأم حلابة أبقار، في حين يدرس الأخ الكبير في موسكو، وتزور الأخت الصغيرة المدرسة. مدحته "إرينا" لأنه لم يرتكب أي خطأ. وصلنا بعد ذلك إلى التدريبات الموجودة تحت النص. كانت وظيفة الطلاب نقل الأسئلة على الدفتر من الكتاب، والإجابة عليها.

ـ اسمك ـ قرأ الصبي وأجاب في الحال ـ "ألكسي".

مدحته، وسألته عما إذا لم يكن يشعر بالجوع. أجابني أنه يفضل إنهاء الوظيفة.

-اسم والدك ـ قرأ.

ـ اكتب "ألكسيفيتش". قلت له، وأضفت: هل أحضر لك تفاحة؟

ـ إسم أبي هو "ألكسي"؟ ـ تلون صوته بشيء لم يتعود عليه.

ـ نعم ـ سبقتني "إرينا".

ـ هل تعرفينه؟ سأل، دون أن يعرف لمن منا يوجه السؤال.

ـ اكتب الوظيفه ـ قالت له "إرينا" بشكل مفاجىء.

تحولت عينا "ألكسي" باتجاهي. أردت تمرير يدي على شعره، ولكنه دفعها بقوة عن رأسه.

ـ اسم الأم، قرأ.

ـ إرينا، قالت له "إرينا".

تطلع "ألكسي" وهو يقطب حاجبيه في الدفتر. سمعته كيف كان يبلع لعابه، ويمنع نفسه من البكاء.

ـ قالت العمة "آنا" إن والدتي هي العمة "سوزا"! ـ صرخ، وكان رده سؤالاً وجواباً.

قفزت "إرينا" من السرير ووقفت أمامي. كانت نظراتها تحفر جبهتي مثل طلقة مسدس.

ـ أنا... لم أخبره... بشيء ـ تأتأت.

ـ بدا "ألكسي" وكأنه يطلب إغاثة:

ـ من هي أمي؟

تطلع في الدفتر وكأنه لا يريد رؤية أي واحدة منا إذا لم نخبره الحقيقة. لم يكن بوسعه رؤية "إرينا" وهي تضرب بقبضتها على صدرها، ولكنه بالتأكيد سمع وقع الضربة.

ـ أنا والدتك! ـ صرخت.

ـ ولكن العمة "آنا"... ـ بكى، ولم يكمل الجملة.

ـ العمة "آنا" كذبت عليك ـ أسكتته "إيرنا" واستدارت نحوي: ـ أخبريه إذاً بأن "آنا" كانت تكذب.

التزمت الصمت. وبالرغم من أني لم أبعد عينيّ عن "إرينا"، وكنت بانتظار قبضتها، ورفستها، أمضيت لحظات حتى أدركت أن كلماتها الأخيرة موجهة إليّ. لقد نادتني لأصبح شاهدة على أمومتها...

أمضيت أسبوعين، وأنا أحضر نفسي لتلك اللحظة، تخيلت مجرياتها، وفكرت بما يجب قوله، ومع ذلك لم أعرف الآن ماذا بعدُ.

ـ أخبريه بأن "آنا" تكذب! ـ أمرتني "إرينا".

لم أتحمل النظر في عينيها، لقد نومتني مثما ينوم الثعبان الأرنب.

التفتُّ إلى الصبي.

ـ أنا... لم يسعفني صوتي. لم أتمكن، أو ربما خفت لفظ حتى تلك الحقيقة المؤكدة.

ـ تذهبين مباشرة في الصباح إلى المعسكر المركزي، ـ زعقت "إرينا".

توقف "ألكسي" أخيراً عن حبس دموعه.

لا أعرف ما إذا كانت الضابط المتقدمة تحدثت بجهاز الإرسال مع القيادة، وأبلغت أنها سترسل سجينة إلى المعسكر المركزي وتم رفض طلبها، أم أنها أدركت وحدها بأنهم لن يُطروا عليها إذا أرسلتني إلى هناك في تلك الأوضاع العصيبة بعد الحريق. لم أذهب في اليوم التالي إلى المركز، ولكن تم فرزي للعمل في الغابة مع المجموعة. تمشيت برفقة الأخريات على الثلج مسندة الفأس على كتفي. لحقت بي إحدى الحارسات. لقد أمرتها "إرينا" ألا تتركني أغيب عن نظرها، كما أخبرتها أني حظيت بسنوات من الراحة الطويلة، وحان الوقت لأعود إلى العمل الحقيقي. كررت كلمات الآمرة بأن العمل في سبيل الاشتراكية، يُحول الناس إلى أبطال، ولكنها لم تعرف من جديد كيف تُكمل.

لقد سبق أن عاقبتني الآمرة حتى في السنوات الأولى عدة مرات للعمل فترات قصيرة في الغابة، ولكن الأوضاع الآن كانت مختلفة تماماً. كان على "إرينا" أن تقاتل بكل ما أوتيت من قوة. كان أمامي عدة أيام في "أرتك" وبعد ذلك سيتم ترحيلي إلى المعسكر الرئيسي.

انحصرت أمومتي بأكملها في رغبتي برؤية ولدي على الأقل قبل أن أغادر. إنه بالتأكيد يتوق لرؤيتي أيضاً. لقد انتظر في مساء اليوم الأول خلف النافذة إلى حين بدء الاجتماع المسائي، وحين رآني، لوح لي فرحاً برؤيتي.

كان ابني مثل أبيه، ولا بد أنه سوف يعترض على ترحيلي، ويطالب بعودتي إليه. ولكنه طفل وسينسى عاجلاً أم آجلاً. سيكون ذلك أفضل من أن يتعذب. كلما تأقلم أكثر مع الأوضاع سيكون ذلك أفضل. كل ما أتمناه هو ألا يقف ضد حب "إرينا" له لأنها يمكن بسهولة أن تحقد عليه. لقد تميزت "إرينا" بمزاجها المتقلب، ولا يمكن لأحد توقع ما يمكنها فعله.

تبين لي من اليوم الأول في الغابة ـ بشكل مشابه كما في السابق ـ بأن الثياب التي حصلت عليها بالوساطة في السابق من "إرينا"، كانت ربما أجمل من ثياب السجينات، ولكنها أقل فائدة. كان حذائي خفيضاً، ويمكن للثلج أن يدخله بسهولة، ومعطفي كان ضيقاً، وحين أرتديه فوق السترة يصعب عليّ تبكيل أزراره في منطقة البطن. أخفيت لحسن الحظ في الشهور السابقة بعض الأشياء التي كان بوسعي الآن عرضها للمقايضة. كنت أعرف أن الشيوعية الصامدة "بلاكيا" التي أرسلت إلينا في الربيع تقوم بتسجيل مذكراتها، ولهذا فإنها بحاجة على الدوام إلى الأوراق والأقلام. عرضت عليها مقابل جزمتها الطويلة، شبشبي إضافة إلى دفتر بكامله مع قلمي تلوين. ولكن "بلاكيا" لم تثق بي.

ـ رأيتك قبل البارحة تربطين الأوراق بفخذك، لا بد أنها هناك الآن، ـ قلت وأمسكتها من فخذها. ـ لو كنت أريد الوشاية بك لفعلت ذلك منذ زمن طويل.

تطلعت "بلاكيا" خائفة من حولها.

ـ لا تخافي ـ هدأت من روعها ـ لا يوجد من يسمعنا. لا أريد الوشاية بك ولكني أريد جزمتك الطويلة. لديك غيرها في المستودع.

حين تمت الصفقة وجرى التبادل، أطلعتني "بلاكيا" على ما كتبته، وحسب زعمها فإنها تكتب عن تأملاتها في الثورة وفي دكتاتورية البروليتاريا.

ـ وهل تكتبين عن الحياة في المعتقل؟ ـ أردت مضايقتها.

ـ أبدأ بمقولة لينين: الثورة لا يمكن صنعها بقفازات بيضاء ـ أجابتني.

وجدت في صوتها شيئاً من الكبرياء. كان من الصعب تغيير رأي بعض الشيوعيات. إحداهن تحديداً مثلها سجينة من المركز، عهدت إليها "إرينا" برعاية "ألكسي". كنت سعيدة لأنها لم تختر له إحدى المومسات. إن تلك البولشفية على الأقل لن تؤذي ابني. وبما أن المربية الجديدة كانت تحضر الاجتماعات، لذا لم يكن بوسعها منع الصبي من الانتظار خلف النافذة والتلويح بيده حين يراني. لاحظت "إرينا" بعد عدة أيام فعلته ومنذ ذلك الحين لم يظهر خلف الزجاج.

جاءتني "أكافيا" في إحدى الأمسيات وهمست في أذني قائلة أن ابني ينتظرني خلف الكوخ. خرجت في الحال. كان يختبىء خلف الزاوية ولم يكن بوسعي رؤيته.

ـ العمة "سوزا"، ـ نادى عليّ، كان بلا معطف وقبعة.

ضممته إلى صدري، ولكنه تخلص من عناقي:

ـ جلبت لك هذا، ـ أعطاني قطعة من فطيرة.

ـ كلها أنت.

ـ أكلت الكثير وكدت أنفجر... المربية الجديدة تجيد صنع الحلوى. اسمها العمة "أولغا".

ـ هل سمحت لك برؤيتي؟

ـ أخبرتها بأني ذاهب إلى المرحاض. يجب أن أعود بسرعة. سأجيء في الغد.

الوقت لم يسعفني حتى لأن أقول له بأن يسأل الآمرة عما إذا كانت "آنا" لا تزال على قيد الحياة في المركز.

أكلت نصف الفطيرة، وتركت القسم الثاني لـ "أكافيا".

# ديافول

## (الشيطان بالروسية)

كانت "ِأكافيا" في أكثر الأحيان تشاركي نشر الشجر في الغابة في حين بذلت ما بوسعي لتجنب بقية النسوة اللاتي يعتبرنني واشية. السجينات المومسات لم يخفين عداوتهن لي. أول العارفات بأني أصبحت الآن العدوة اللدودة للآمرة بشكل نهائي كانت "يلينا"، وهذا الخبر انتقل أيضاً إلى "كلاوديا" التي لم تعد تهابني، وأصبحت اليد الطولى لـ "يلينا" وحارستها الشخصية بعد إطلاق سراح "تانيا". كانت إمرأة قاسية، وضخمة، تماماً مثل سابقتها. لقد تجرأت الآن وأصبحت تنحرني بمرفقها أو ترفسني في كل مناسبة تلتقيني بها، كنت أتوقع قتالاً ضارياً معها عاجلاً أم آجلاً، وربما لهذا السبب تركتني الآمرة حتى الآن في "أرتك". كنت أعرف منذ مدة أن "إرينا" زرعت جاسوستها الخاصة في كل مجموعة، و شككت بأن تكون "يلينا" إحداهن في مجموعتنا.

كنت غارقة في مصيبتي التي تمثلت بانعدام الأمل لهذا لم يبق عندي قوة الإرادة كي أساعد "أكافيا" في التخلص من نوبات حزنها وعذابها.

ـ هل لاحظت بأن الغالبية هنا من السيئات؟ سألتني حين توقفت عن النشر، وجلست فوق الثلج كي ترتاح قليلاً.

لم أجبها بشيء، وتابعت عملي كي لا تلاحظ الحارسة توقف صوت المنشار خلف ظهرها.

ـ الحارسات والسجينات سواسية، وجميعهن سيئات، ـ تابعت "أكافيا"، ـ وهل تعرفين السبب؟ لأننا جميعنا في جهنم! لقد أصبحنا أموات، وضائعات، ولا يوجد بانتظارنا سوى العذاب. سندفع إلى الأبد كفارة ما ارتكباه من خطايا... بكاءً وصرير أسنان. إن حياتنا على الأرض كانت في عالم آخر، ويمكن القول بأننا لم نعد نعرف كيف نتذَكرها، وإذا صدف وتذكرنا شيئاً، فإن تلك الذكرى ستحرض الألم في نفوسنا، وفي جهنم لا يوجد سوى العذاب.

ـ انهضي وهيا للعمل، الحارسة تقترب منا،-ـ قاطعتها.

أمسكت "أكافيا" بطرف المنشار، وتابعت كلامها:

ـ هل سمعتِّ عن السموات السبع؟ جهنم أيضاً لها سبع سموات. إننا الآن في الأولى. حين سنموت سننتقل إلى الثانية، هنا يسيطر البرد، وهناك سيكون

الجو حاراَ...

سبق أن ذكرت أن "أكافيا" عادت إلى جنونها، ولكني كنت في وضع جعلني أجد في كلماتها شيئاً من الحقيقة.

ـ ربما لا نكون في جهنم، بل في مكان نُطهر فيه ذنوبنا ـ قلت لـ "أكافيا" أخيراً.

ـ الحارسات شريرات، ملائكة ساقطون، ـ أسَرَّتني باكتشافها الجديد.

حضر "ألكسي" في المساء من جديد.

ـ ستذهبين إلى المركز يا عمتي "سوزا" ـ بدأ.

ـ متى؟

ـ في أقرب وقت، حين سينهون بناء البيت المحترق...

ضمني وقال:

ـ لا أريدك أن تذهبي.

شددته إلى جسمي.

ـ قالت أمي إنكم في البلاد الرأسمالية تستخدمون العنف ضد الطبقة العاملة. لماذا علينا نحن الشيوعيين أن نكون إنسانيين مع هؤلاء المعقدين من أعداء الشعب؟ ولكني مع ذلك لا أريدك أن تذهبي. إنني اريدكما... أريد أمين حين لا يكون عندي أب.

أغلق "ألكسي" كفي، وجعل يمرر إصبعه على الندبات التي أحدثها الصقيع.

ـ لا تكوني أيتها العمة "سوزا" من دولة رأسمالية! انضمي إلينا وكوني مع الشيوعيين، وسنبقى معاً إلى الأبد.

كنت في اليوم التالي حقيقة مع "إرينا" التي رافقت مجموعتنا إلى الغابة كي تراقب سير العمل. صرخت في وجهي مرتين في الطريق، وذكرتني بأني متأخرة عن الركب، ولم يكن ذلك لم يكن صحيحاً. وقفتْ بعد ذلك خلف ظهري وراقبتني كيف أنشر الشجر. المسكينة "أكافيا" المسنة لم تتمكن من مواكبتي في العمل. ضاق نفسها، واحمر وجهها وتوسعت عيناها بعد نصف ساعة من العمل. استلقتْ بعد النصف الساعة التالية على الثلج، وبالرغم من الرفسات القوية التي تلقتها إلا أنها لم تجد القوة لتتحرك من مكانها. أمرتني الملازم إرينا أن أتابع العمل مع "زينا" القوية، واختارت لمراقبتنا مرتفعاً كنا نعمل فيه. سمعنا بعد لحظات صراخها الذي يشير إلى غضبها. لم تكن غاضبة من السجينات، ولكن من طريقة تنظيم العمل في المركز. حين أمرت برفع الثلج عن بعض الخشب المصفوف بالقرب منا، تبين لها حسب

العلامات الموجودة على الجذوع أن السجينات قمن بتقطيع تلك الكمية في خريف عام 1951، وبقي الخشب منذ ذلك الحين في مكانه، وتعفن في الغابة لأن القائد المسؤول في المعسكر المركزي نسي إرسال المساجين ليسحبوه إلى الأسفل. تحدثت "إرينا" بصوت مرتفع عن الجهود التي تبذلها الأمة من أجل بناء الاشتراكية، وعن وجود أفراد أغفلوا واجباتهم... أخذت بعد لحظات طريقها باتجاه معسكرنا ونسيتني بشكل كامل.

ـ أراهنكم بثلاث وجبات من حصتي اليومية بأنها هرعت لإخبار "جورافين" عن وجود مؤامرة ـ ابتسمت "زينا" بتكلف وأضافت: إذا لم تجد استجابة، سوف تكتب مباشرة إلى ستالين لتشي بـ "جورافين" بوصفه أكبر متآمر.

كانت "أكافيا" تتمتع بجذور قوية، لا سيما وأن جميع اللاتي أتذكرهن من السنة الأولى لإقامتي في المعسكر وكنَّ في مثل عمرها ـ أصبحن منذ مدة في عداد الأموات، لكن تلك المهمة الصعبة اليوم قضت على آخر ما تبقى لديها من قوة. سقطت لحظة على الأرض ونحن في طريق العودة إلى المعسكر، وبالرغم من أنها عادت إلى وعيها إلا أنها لم تتمكن من الانتصاب على قدميها. توجب علينا حملها على نقالة قمنا بتأمينها من أغصان الأشجار. كانت تتنفس في الليل بصوت مرتفع، وترتجف من شدة الحرارة.

ـ الشياطين يحلقون، والعفاريت يذهبون! ـ كانت تهذي.

جلست لحظة بالقرب منها كي أهدئها، وأجفف العرق عن جبينها، لكن التعب أضناني وجعلني أذهب لأنام. نمت وكلي قناعة بأني سأستيقظ وأجد "أكافيا" ميتة.

لكني وجدتها في الصباح مستيقظة. كانت تبتسم. نادتني بحركة من سبابتها.

ـ أشعر الآن بتحسن، ولكني سأقول بأني لا زلت منهكة القوى كي يتركوني أرتاح على الأقل ليوم واحد. ابتسمت وأضافت: حتى لو كنت لا أعرف إلى أين سيرسلوني لأن سريري محجوز أثناء النهار لإحدى اللاتفيات من المعسكر المركزي.

شعرت بسعادة لأن "أكافيا" تعافت. أدركت بعد عدة أيام من فقدان الأمل والحزن أن الأمور ليست بهذا السوء كما تخيلت في البداية، وكنت حتى الساعة لا أعرف ما ينتظرني بعد لحظات. حين مررنا ونحن نحمل أكياسنا وكنا منتظمات في رتل رباعي بالقرب من مبنى القيادة، لمحت "ألكسي" خلف نافذة "إرينا". كان يمسك بيده ورقة كتب عليها بأحرف كبيرة ملونة: يا ليوبليو تيبيا. (أحبك أنت).

# كاتولوس

## (جروة، ذئبة باللاتينية)

ذاب الثلج عند الظهيرة في السهول التي انتشرت فيها أشعة الشمس، لكنه عاد ليتجلد من جديد مع حلول المساء. لقد غطته طبقة من الصقيع عدة أيام. كانت أقدام الغزلان النحيلة تنغرز فيه بحيث يصل الجليد إلى بطنها. لقد تبدل ركضها الآن وتحول إلى قفزات طويلة.

عرفت الذئبة أن فريستها سوف تشعر بالتعب، وسوف تبطىء من حركتها. كانت تركض خلفها في الغابة مهتدية بدهساتها التي جهزت لها الرصيف، ولكنها بالرغم من ذلك قررت التقدم في الطريق الذي اختارته لنفسها فوق الثلج المُتجمد. لم تنغرز أطرافها بأكملها في الثلج، وإن حدث في بعض الأماكن، فقد كان ذلك بنسبة أقل من أطراف الغزال. حسبت من خلال نظرة قصيرة واحدة المسافة التي تفصلهما عن بداية أقرب غابة. كانت المسافة لا تزال بعيدة، وكان واضحاً أن الغزال المتعب قد أبطأ من حركته. حتى الذئبة كانت منهكة، وكانت ترغب في أن يتناوب معها الركض عنصر آخر في القطيع، ولكنها لم تعد تنتمي منذ زمن إلى أي قطيع.

كان عليها أن تتطلع إلى الخلف كي تراقب صغارها، ولكنها أجبرت رأسها على عدم الدوران كي لا تُضَيِّع الفريسة. لقد علمت صغارها طويلاً كيف يقتفون أثر الفريسة عن طريق رائحتها، وكان عليها الآن اختبارهم. إذا حدث وهربت منها تلك الفريسة الآن فسيكون مصيرهم الموت. لم يكن بوسعها استعادة قواها بسرعة من أجل صيد جديد.

اقتربت كثيراً من الغزال بحيث تمكنت عيناها من معرفة المكان الذي يجب على أنيابها أن تنغرز فيه. اختارت الحوض. كان رأس الغزال عالياً عليها لاسيما وأنها لن تتمكن من الارتقاء على الثلج المتجمد. اشتمت فجأة رائحة إنسان. لم تكن رائحة بعيدة، ولكنها أحست كأنها موجودة مباشرة بين مجموعة من البشر. لا بد أنهم قريبون جداً. ترددت لحظة، وفكرت فيما إذا لم يكن من الأفضل لها أن تعود وتحمي صغارها، ولكن رائحة عرق الغزال في تلك اللحظة ضربت ثقبي أنفها، ولم تعد تشعر بشيء آخر. قامت بعدة قفزات أسرع من ذي قبل، وكانت سرعة يمكنها تحملها لمئة متر فحسب.

حين انقضت بأنيابها على فخذ الغزال حدث شيء أفقدها السمع.

وقفت الحارسة بالقرب مني، حتى إني فقدت سمعي بسبب ضجيج رشة "ساموبالها".

تكشف لنا فجأة حين خرجنا من تلك الغابة البرونزية الكثيفة منظر ذلك الصراع بين الحيوانين. وقفت إحدى السجينات الموجودات في الصف الأول، وأشارت إلى السهل الموجود في الأسفل، وفي الحال توقفت المجموعة بأكملها بما فيها الحارسات. وجدنا أمام أعيننا مشهداً للصراع على الحياة و الموت، وتابعناه ونحن نحبس أنفاسنا.

ـ أقل من مخزن، كان كافياً للغزال والذئب ـ قالت الحارسة متباهية.

ـ ما الذي أراه هناك؟ ـ أشارت إحدى السجينات إلى مكان تحولت فيه الأرض المغطاة بالثلوج في غابة.

ـ ذئب صغير! الزموا الصمت حتى لا يهرب! أمرتنا الحارسة.

كانت الذئبة الصغيرة يتحرك خائفاً بالقرب من الأشجار الأخيرة. كان نظره ينتقل بين جسم أمه النازف، وبيننا، وبين الغابة حيث يشعر بالأمان. أطلقت الحارسة النار. تدحرج الحيوان الصغير مرتين على الثلج، لكنه نهض فوراً محاولاً الهرب، غير أن الطلقة الثانية أصابت ساقه الخلفية، وبدلاً من الهرب جعل يدور حول نفسه.

سُمع صوت طقطقة السلاح الفارغ. شتمت الحارسة وبدأت بتغيير المخزن. رسمت الذئبة الصغيرة في تلك الأثناء خطاً من الدم الأحمر على الثلج. أغلقت أذنيّ حتى لا أسمع صوت زعيقه.

انضمت مجموعتنا في نهاية اليوم إلى الفرقة وكنا في مزاج أفضل. حملت النسوة للحارسة ثلاث فروات وأفضل قطع من جلد الغزال، وما تبقي يمكنه أن يكفي المومسات والعاملات المخلصات "ستاخانوفكي"، كما أن السياسيات هذه المرة سيكون لهن نصيب لوفرة اللحم المأخوذ من الذئب. حتى "ألكسي" بدا سعيداً في ذلك المساء. جاء لزيارتي لحظة وأخبرني أن الحارسة وعدته بلفحة دافئة من جلد الذئب. وهكذا بقيت الوحيدة التي التزمت بالحزن حين علمنا أن "أكافيا" فارقت الحياة حوالي الظهيرة.

# ديافوليتسا

# (الشيطانة بالروسية)

أبلغتنا "إرينا" أثناء الإجتماع الصباحي بأننا سوف نعمل في مكان قريب من سجناء المعسكر الرئيسي. نبهتنا إلى أن أي محاولة لللاتصال معهم ستواجه بأقسى العقوبات. توقعنا أن الرجال سيكونون هناك لحمل الأخشاب القديمة التي تم قطعها قديماً واكتشفتها "إرينا" في الغابة. اشتمت الغانيات بالطبع رائحة إمكان الحصول على المال.. حتى إنهن قمن بتنظيم أماكننا أثناء سيرنا إلى الهدف، وبدأن بالتشاور مع الحارسات على شكل ونسبة الرشوة. كنت أحمل على ظهري إضافة إلى المنشار، جلد الغزال الذي أرادت الحارسة إرساله مع سائق سيارة المركز لتصنيعه. حملت "زينا" جلد الذئبين. حين وصلنا إلى مكان العمل، أخذتهما الحارسة ومشت في الطريق المعاكس للتلة، حيث سُمع ضجيج محركات التراكتورات. وجدنا أنفسنا، أنا و"زينا" خارج المراقبة، كما إن أقرب ثنائي من السجينات كانتا بعيدتين خلفنا. توجب علينا بالطبع إنجاز بعض العمل لتنفيذ خطة اليوم، ولكننا لم نكن مضطرات للاجتهاد حين يكون الرقيب خلف ظهرينا.

أشعلت "زينا" لفافة تبغ ثم بدأت تحدثني عما ستوفره "إرينا" لولدي من عناية حتى حين سيرسلونني إلى المعسكر المركزي. كان ذلك حديث "زينا" المحبب لمعرفتها حاجتي الماسة إلى من يواسيني، لهذا السبب بدأت بتعداد الفوائد التي سيجنيها "ألكسي": سقف فوق رأسه، طعام وفير، إضافة إلى أم حنون بالتبني. حين تطلعت إلى حديثها بكثير من الشك، شتمتني ووصفتني بالأنانية التي لا تشبع، وقالت إن واجبي تفهم شعورها لاسيما وأنها فقدت بنتيها في المعسكر.

تابعت عملي في نشر الأخشاب. لا يمكن القول بأننا أتعبنا أنفسنا بالعمل لأن هدفنا الأساسي كان الشعور بالدفء، ولكي نبرهن في ذات الوقت للحارسة بأننا نعمل حين تعود. لم نسمع بسبب صوت المنشار صوت أقدام على الثلج. ولكني أدركت أن أحدهم قد جاء إلينا في اللحظة التي شاهدت فيها وجه رجل يطل من وراء رأس "زينا".

أمسك الرجل بـ "زينا" من الخلف وطرحها أرضاً، وقبل أن أتمكن من فعل شيء أو أصرخ على الأقل، أطبقت يد قوية على فمي، في حين تمكنت الثانية من إدارتي وتثبيت ظهري إلى الجذع الذي كنا ننشره.

تطلعت في العينين الكبيرتين المخيفتين اللتين امتلأتا بكدمات هلامية عكرة بدلاً من البياض، وفي الأنف البنفسجي الصغير المزروع بالمسامات والندبات، وفي اللسان الأبيض المتدلي من الفم الخالي من الأسنان، وأسوأ ما رأيته كانت أذناه اللتان أكدتا لي بأن تلك القوة الرهيبة التي تضغط على جسمي لا يمكنها أن تكون لإنسان، حيث برزتا من طرفي رأسه الخالي من أي شعرة، وكانتا كبيرتين بلون الدم الداكن، وقد تدلى منهما شعر بطول الإصبع، لكأن شعر ذلك الكائن لم ينم في رأسه بل في أذنيه القبيحتين. تذكرت "أكافيا" في الحال. كانت على حق حين قالت بأننا في جهنم، وهذا هو الشيطان بعينه.

طرحني فوق الثلج، وبدأ يمزق ثيابي وهو يشخر بصوت مرتفع. لم يكن بوسعي مقابل تلك القوة الرهيبة، ـ وأساساً لأني وقعت بين يدي شيطان ـ أن أقاوم. فجأة أصبح له رأسان. رأيت فوق رأسه الأقرع وأذنيه الكبيرتين اللتين تدلى منهما الشعر رأساً له وجه "زينا". حين تنحى الرأس السفلي جانباً بسرعة، وسقط عليّ الوحش، أحسست أن صدري قد انطبق على بعضه بفعل ذلك الوزن الهائل، ولم يعد بوسعي التنفس، ولا حتى التحرك. لحسن الحظ وجدته يتدحرج جانباً بعد لحظات دون مقاومة، وتحديداً، قامت "زينا" بدحرجة جسم ذلك الرجل عني. قفزت من مكاني وهرعت هاربة.

ـ انتظري، لا تهربي، لقد غادرنا إلى وجه ربه! صرخت "زينا".

ركضت عدة أمتار، ولكني توقفت بعد ذلك وأسندت جسمي إلى الشجرة. كان عليّ أن ألتقط أنفاسي، وأرتاح قليلاً. بدأت بزرزرة ثيابي. كان معطفي وسترتي خاليتين تقريباً من الأزرار كما أن أحد أكمام معطفي كان شبه منتزع من مكانه وجعل يتراقص حول مرفقي. جاءت "زينا"، وأسندت الكُم على كتفي.

ـ لا تخافي ـ هدأتني.

ـ ما الذي حدث؟ ـ تطلعت من وراء كتفها إلى الجسمين الملقيين على الأرض.

ـ أرادا اغتصابنا.

ـ من؟

ـ مجرمان من المعسكر المركزي.

ـ وماذا بعد ذلك؟

ـ ماتا.

ـ هل أنت... حتى ماتا؟

رفعت "زينا"؟ رمانتي كتفيها.

ـ وكيف تمكنت؟

مشت "زينا" باتجاه الشيطان الذي أمسك بي بقوة قبل قليل. قبضت على كتفيه، ورفعته قليلاً.

ـ ليس ثقيلاً ـ قالت - اليد اليمنى حول رقبته من الأمام، واليسرى من الخلف، وإذا قاوم يمكنك أن تستخدمي الركبتين.

مثلت على الجثة الهامدة ما قالته لي.

ـ ولكن ماذا سنفعل الآن؟ سألتها خائفة.

ـ نسحبهما إلى هنا ـ أشارت "زينا" بيدها ـ ونتابع نشر شجرتنا التي سوف تقع عليهما مباشرة، وهذا ما علينا أن نقوله بالتمام. لم ننتبه متى جاءا، رأيناهما حين سقط عليهما جذع الشجرة.

ـ أيتها الشيطانة، لقد جُن بسببك! صرخت "إرينا" في وجهي.

بقينا وحدنا بالقرب من الجسدين الممددين، لأن الحارسة ذهبت لتنادي الجندي الذي هرب منه المجرمان، كما أرسلت "زينا" لإحضار المجرفة، والمعول من المعسكر.

ـ لم أفعل شيئاً كي أُجننه ـ دافعت عن نفسي ـ فجأة وجدته خلفي وأمسك بي. حتى إنني لا أعرف من أين جاء.

ـ لا أتحدث عن هذين ـ أدارت رأسها باحتقار باتجاههما ـ أتحدث عن "ألكسي". الصبي المسكين الذي حولته إلى مجنون، إنه يبكي، ويرفض الطعام، ويختبىء تحت السرير.

ـ أحبه ـ قلت لها.

ـ أحبه، أحبه ـ لوحت "إرينا" بيديها ـ كم أتمنى أن أطلق عليك النار في الحال، وأتخلص منك، ولكن الصبي بعد ذلك سوف...

بدا لي أن "إرينا" تقدم لي عرضاً للتفاهم بطريقتها السمجة الخالية من الحس، وربما لو أني تراجعت قليلاً، ووعدتها بشيء، يمكن لحياتنا أن تعود إلى السكة القديمة. إن عرضاً كهذا لا يسعني إلا قبوله:

ـ أعدك، إذا عدت وأصبحت مدرسة لـ "ألكسي" من جديد، فلن أقول له على الإطلاق بأني أمه...

احمر وجه "إيرينا" أكثر من شدة الغضب:

ـ ماذا؟ ماذا؟ هل أصابك مس من الجنون؟ أنت مدرسة؟ مستحيل!

اقتربت ـ لحسن الحظ ـ حارستنا مع الجندي الذي رافق المجرمين من المعسكر المركزي. اتجهت "إيرينا" لمقابلتهما. تحدثوا لحظة بصوت منخفض. انحنى الجندي بعد ذلك على الجثتين.

ـ أوي! هذا سيء! ـ بدأ يرثي لحاله ـ كان "جورافين" يريه لزواره بوصفه مخلوقاً غير عادي. كان رأسه ممسوحاً، وخصل الشعر تطل من أذنيه، مسخ بامتياز. "جورافين" سوف يغضب....

ـ نهض الجندي ومشى نحوي.

ـ هل سقطت الشجرة عليهما؟ ـ سألني.

ـ نعم ـ أجبته.

ـ وماذا كانا يفعلان؟ أحدهما كان بنطاله مسدلاً!

ـ كان يتبول، وفي تلك اللحظة بالذات سقطت عليه تلك الشجرة.

ـ كان يتبول بالقرب من الشجرة التي كنتما تنشرانها؟ أدار رأسه مستغرباً.

اقترح علينا بعد ذلك دفنهما مباشرة في الغابة. أبلغته "إرينا" أنها أرسلت السجينة لإحضار المعول.

أبلغتنا "إرينا" أثناء الإجتماع المسائي أن السجينة "سوزانا لافكوفا" كما كانت تناديني دائماً، تسببت في حادث أدى إلى وفاة إثنين من مساجين المعسكر المركزي. لهذا السبب سوف تعاقب بالسجن في الحبس الانفرادي. حين اقتادتني الحارسة، سألت الآمرة عن المدة التي سأمضيها هناك.

ـ أسبوع، قررت الآمرة. ستخرج من الحبس الانفرادي في السادس من آذار، وفي السابع منه تغادر إلى المعسكر الرئيسي.

سمعت بعد لحظات كيف كانت الحارسة من خلف باب الحبس الانفرادي تقول لـ "ألكسي":

ـ "لايوش"، لا تأتِ إلى هنا! سأخبر أمك.

لكن الصبي تجاهل كلامها. كان يعرف أن الحارسات يضمرن له الحب، وفي النهاية، لن يحدث له شيء.

ـ العمة "سوزانا"، هل تسمعيني؟ ـ صرخ ـ لقد منعتني أمي من الذهاب إليك. قالت إنك تتسببين في سحري لأنك ساحرة. لا أعرف ما تعنيه، ولكن إذا كنت كذلك، حاولي أن تسحري أمي كي تخرجك من هنا. ولا ترسلك إلى المعسكر الرئيسي.

كان الجو بارداً جداً مع طلوع الفجر في الأكواخ بالرغم من إشعال النار في المدافيء الصغيرة. لم يكن في الحبس الانفرادي أي تدفئةٍ، ولا سرير ولا

حتى غطاء يقي من البرد. إن أردت الاستلقاء توجب عليّ أن أكور جسمي على الأرض. ولكني مع ذلك أمضيت غالبية الأيام السبعة في وضعية القرفصاء، ولم أقف إلا حين كنت أشعر بعدم تحمل البرد أو حين كنت أريد تمديد عظامي، ولكن لبرهة فحسب، لأن سقف الغرفة كان خفيضاً مما اضطرني لحني ظهري. كان السير مستحيلاً، كان بوسعي لمس الجدران الأربعة حين أكون في وضعية الوقوف.

كنت أصلي طوال الوقت، وأستغفر ربي وأطلب منه السماح لأني نسيته قبل ذلك، ولم أعتن بما فيه الكفاية بتربية ابني على تعاليم المسيحية. رجوته أيضاً أن يبطىء الزمن. لأني سأنتقل إلى المعسكر المركزي في اليوم التالي لمغادرتي الحبس الانفرادي، ومن ثم سأفترق عن ابني بشكل نهائي. وبالرغم من حضور "ألكسي" النادر إلى بوابة الحبس الإنفرادي، إلا أني كنت أشعر بقربه مني. لذا تمنيت أن يستمر هذا الوضع أطول وقت ممكن. فليعطوني حتى الموت حساء بارداً مفرغاً من الحبوب أو من سمك الرنكه، وليتركوني جالسة على الدوام بجانب المرحاض الذي امتلأ بالفضلات منذ أكثر من شهر لأنهم تعودوا تفريغه بعد أن يمتلىء بشكل كامل.

كررت في اليوم الأخير تلك الجملة مرات ومرات:

ـ أيها القادر على كل شيء، ساعدني على رؤية إبني قبل أن أغادر.

حين خرجت من الحبس الانفرادي. كانت الساعة تشير إلى الخامسة على مبنى الآمرة، وهذا يعني أن نساءنا سوف يرجعن بعد ساعة ونصف من الغابة، وأن سجينات المعسكر الرئيسي لا زلن في الأكواخ.. شعرت بدوار في رأسي من شدة إعيائي، وبالكاد تحملت الوقوف على قدمي، ولم يبق لي سوى التمني بأن تُخلي لي إحداهن نصف لوح الخشب كي أتمكن من الاستراحة.

ـ العمة "سوزا"!

أعادني صوت "ألكسي" في الحال إلى وعيي. حين استدرت وأنا أشكر ربي رأيته يهرع باتجاهي. كانت تنقصه القبعة من جديد، ولكن فولار الطلائع الذي جلبته له "إرينا" قبل مدة كان يلف رقبته فوق المعطف. حين اقترب مني، انتبهت بأن عينيه قد احمرتا من شدة البكاء.

ـ ما الذي حدث لك؟ انحنيت إليه.

ـ شيئ فظيع! ـ صرخ وبدأ يبكي من جديد.

تطلعت نحو نوافذ "إرينا". لم أرها. أخذت الصبي من يده ورافقته بين الأكواخ كي لا يرانا أحد. حضنته هناك وسألته من جديد:

ـ ما الذي حدث، "ألكسي"؟

ـ الرفيق ستالين! ولم يتمكن من متابعة حديثه بسبب نوبة البكاء الجديدة.

ضممته أكثر إلى صدري، وقبلته من خده.

بدأ يختنق من شدة بكائه:

ـ لقد مات الرفيق ستالين..

ـ حقاً؟ ـ صرخت..

شددته إلى جسمي، وفكرت فيما إذا كان عليّ أن أصدق كلامه، وهل يمكن أن يموت ذلك الرجل الخرافي الذي حكم تلك البلاد الواسعة الشيوعية العصية على الهزيمة؟

ـ وماذا تقول... الأم؟

ـ لا شيء، تجلس بالقرب من الراديو وجهاز الإرسال، تستمع وتبكي. وأنا ربطت فولار الطلائع حول رقبتي.

بقيت واقفة مع الصبي حتى عودة المجموعة. كنت أمرر يدي على رأسه، أقبله، وأضمه إلى جسمي إلى أن قال لي بأني سوف أسحقه. حاولت أن أشرح له بأنهم سينقلوني في اليوم التالي إلى المعسكر الرئيسي، وهذا ليس لرغبتي في ذلك بل على العكس، لأني لا أتوق إلى شيء أكثر من البقاء بجانبه، ولكن هذا كان قرار قيادة المعسكر. لم أرغب في شتم "إرينا"، وحاولت ألا آتي على ذكرها، لا سيما أن "ألكسي" سيبقى معها، ولن يكون من الحكمة جعله يحقد عليها.

ـ فليقتادوني إلى أي مكان يريدونه، ولكن تأكد من أني سأبقى أحبك أكثر من كل شيء... لأني أمك.

قلت له ذلك في النهاية بشكل مباشر، وشككت بطريقة رد فعله. ولكنه لم يجبني بشيء، مخط فحسب. لقد أحس منذ وقت طويل بأني أمه، ولكنه بدا مصدوماً الآن من خبر موت ستالين.

لم تحضر الآمرة اجتماعنا المسائي، كما لم تذكر المشرفة التي نابت عنها كلمة واحدة عن موت ستالين. أدركت حين استلقيت أخيراً على لوح الخشب أني أعرف سراً كبيراً، ولكن للأسف لا يوجد في المجموعة بأكملها من يمكنني أن أتقاسم معه هذا الخبر. "آنا" غائبة، وربما ميتة، تماماً مثل "أكافيا"، كما أن الثقة بيني وبين "ريتا" كانت بين بين، ومن جهة واحدة. كانت تأتمنني على أخبارها، ولكني لم أعاملها بالمثل. "زينا" مجندة سابقة، وشيوعية فقدت جميع أوهامها، وحين رأيتها تقتل إنساناً بدم بارد، خفت من التقارب معها، على الرغم من أني من المفروض أن أكون ممتنة لها، لا سيما

أن الأمر بدا لي واضحاَ، وبأنها هي، وبذات الطريقة قتلت في ذلك الوقت "بسنكا". لقد أنقذت طفلي منها لأنها فقدت ابنتيها الصغيرتين.

لم أتمكن من النوم على الرغم من الوهن الذي كنت أعانيه. كان جسمي يؤلمني بأكمله من الحبس الانفرادي، ساقاي، وظهري، وكتفي، ورقبتي، عيناي فحسب لم يتمكنوا من سجنهما. تذكرت من جديد اللحظات التي عشتها مع "ألكسي" والتي ستصبح بعد قليل شيئاً من الماضي.

إن تفكير الإنسان ينحو أحياناً باتجاه الكذب على نفسه، التماساً للعزاء، ومن ثم يَشْتَمُ الاحتمالات التي يمكنها أن تحصل، وهي ليست بهذا السوء كما تبدو في حقيقتها. أنا أيضاً بدأت أتخيل الوضع لو نسيت "إرينا" أمر ترحيلي. لقد سبق أن هددت السجينات عدة مرات، ولكنها لم تنفذ تهديداتها. مثلاً، لقد رافقت المجموعة منذ مدة إلى الغابة كي تجبرني على العمل وتبقى لي بالمرصاد، ولكنها نسيتني تماماً حين اكتشفت الخشب القديم. يمكن لذلك أن يحدث الآن أيضاً.

لا يمكن، وهذا ما يقوله العقل السليم، لاسيما أنها أعلنت عن ذلك صراحة في الاجتماع. ولهذا السبب وجد القسم الأكثر سذاجة من دماغي نوعاً آخر من العزاء. بدأت أتخيل سقوط الاتحاد السوفيتي بأكمله بعد موت قائده الكبير. ربما لهذا السبب أخفوا عنا موت ستالين لأنهم باشروا في موسكو بتغيير الأشياء. سنستيقظ في الصباح، ونجد بوابة المعسكر مفتوحة على مصراعيها. سأمسك ولدي من يده، ونسافر معاً إلى الوطن: حلمتُ.

خبر موت ستالين، أطلعتنا عليه الآمرة أثناء الاجتماع الصباحي. ضجت الصفوف مثلما يحدث في خلية النحل. أول رد فعل جاء من الشيوعيات السابقات.

ـ اسمحي لنا أن نعلن الحداد ونكتب رسالة تعزية موجهة إلى اللجنة المركزية ـ طلبت "بلاكيا".

ـ العمل أفضل من العزاء ـ ردت عليها "إرينا".

هنا اعترضت "زويا":

ـ توجد بين السجينات عضوات مطرودات من الحزب الشيوعي. لذا فإننا في تلك اللحظات العصيبة، نريد الالتحام مع الحزب، ونحزن معاً!

ـ تقولين مطرودات من الحزب؟ إنكن أسوأ من الفاشست، تفضلن، وأعلنّ الحداد... وأنا أبكي أيضاً. أنهت "إرينا" الحديث، وأنهت الاجتماع أيضاً، وعادت أدراجها إلى المكتب.

حين رافقتُ المجموعة إلى الغابة بعد أسبوع من الحبس الانفرادي، تمكنت بصعوبة من الإمساك بالمنشار. لحسن الحظ عملنا وقتاً قصيراً. تركتنا الحارسات ولم يتشددن في مراقبتنا. كان واضحاً أنهن فقدن الشجاعة. كن يتدفأن حول النار ويتحدثن عن المستقبل. لقد فاجأهن موت ستالين تماماً كما فاجأنا. لم تتوقف السجينات عن الفلسفة والافتراضات والتوقعات. بعضهن خططن للعودة إلى الوطن لأنهم سوف يقفلون المعسكر في أقرب وقت، وأكدت أخريات أن "بيريا" سوف يأمر الآن بإطلاق النار علينا.

# مارت

# (آذار بالروسية)

أمضت النسوة شهر آذار بأكمله بانتظار نتائج التغييرات بالرغم من أن كل شيء في حياتنا بقي على حاله، إذ كان علينا كما في السابق أن نعمل مثل العبيد، ونأكل ذات الحساء الكريه المحضر من الأحشاء والحبوب التي كانت تتناوب مع الخضار العفنة والنخالة المحضرة تحت البخار، حتى إن سجينات المركز بقين في "أرتك". الشيء الوحيد الذي بدا مختلفاً، كان توزيعهم علينا بعد يوم من موت ستالين أعداداً من صحيفة البرافدا التي خُصصت للحديث عن ذلك الخبر.

ولكن، وبالرغم من أن شيئاً لم يتغير، توقعت النسوة حدوث شيء كبير، وحاسم: سقوط الشيوعية، عفو عام، حرب عالمية جديدة أو إعدامات جماعية لأعداء الثورة الموجودين في معسكرات الاعتقال.. وحين لم يحدث أي تحول، انتشرت الشائعات. مثلاً: تم طرد آمر المعسكر الرئيسي، أو تم نقل السجون لتصبح تحت رقابة وزارة أخرى. كنت أسمع تلك الأخبار من أذن وأخرجها من الأذن الثانية. عشت فقط للحظة التي يمكنني فيها رؤية "ألكسي"، وطبقاً لذلك قَسَمتُ الأيام إلى سعيدة وغير سعيدة.

تم تشديد الحراسة في الثلاثين من آذار. وصلت ناقلة جنود من المعسكر الرئيسي. لم يسبق أن رأيت هذا الكم من الرجال في "أرتك" من قبل.

أعلنت "إرينا" أنه سيتم تغيير تشكيل المجموعات في"لاكبونكت". باشرت إحدى الحارسات بقراءة أسماء النسوة اللاتي ستتألف منهن الصفوف الأربعة الأولى. جاء اسمي في الأخير. تسلمنا المعدات اللازمة وانطلقنا باتجاه الغابة. شكلت السجينات الآتيات من المعسكر الرئيسي نصف عددنا، وكن قد أنهين ورديتهن المسائية.

انتشر بيننا أثناء العمل خبر مفاده بأننا جميعنا سجينات سياسيات، وهذا لم يكن فألاً حسناً، و لم يكن أصلاً حقيقة بالتمام، لوجود مجرمات بيننا، وغياب أي مومس أو سارقة. لو أنهم تلقوا أمراً بإطلاق النار على أعداء الثورة لكان الأمر سهلاً لأننا كنا في كومة واحدة. المجرمات كن سيعدمن معنا. ربما حصل خطأ في الإدارة.

لكن شيئاَ من هذا لم يحدث. جمعتنا الحارسات مع حلول المساء وعدنا أدراجنا إلى المعسكر. حملنا على حمالات صنعناها من أغصان الأشجار سجينات نصف ميتات من المعسكر الرئيسي لعدم تحملهن ذلك العمل المضني الذي استمر أربعاً وعشرين ساعة.

المفاجأة الحقيقية كانت تنتظرنا في "أرتك". الجنود من المعسكر الرئيسي بقوا هنا في حين تم نقل المجرمات. لم تشرح لنا "إرينا" سبب غيابهم أثناء الاجتماع، وكل ما في الأمر أنها أبلغتنا بأننا سنسكن في الأكواخ حسب التوزيع الجديد. بدأ الانتقال الكبير. تعاركت النسوة فيما بينهن على وسائد التبن، وعلى الفرشات الملأى بنشارة الخشب الباقية من مخلفات أشهر السجينات المومسات، ورحن يفتشن بين ألواح الخشب الفارغة على أمل أن تكون إحداهن قد نسيت هناك أي شيء نافع أو له قيمة. كشفت الشتائم أن الأمور كانت على عكس توقعاتهن. لم يبق من بعد المجرمات أي شيء، لأنهن حملن معهن كل ما يمكن حمله.

استغل "ألكسي" تلك الفوضى، والصخب والحركة الزائدة في المعسكر كي يبحث عني.

ـ ما أكبر سعادتي لأنك لم تحصلي على عفو، ـ قال لي وهو يقفز ويعانقني.

ـ عن أي عفو تتحدث؟ قلت مستغربة.

ـ النسوة اللاتي غادرن عند الظهيرة بسيارات النقل، حصلن على عفو ـ أجابني.

حين عدت إلى الكوخ قبل صفارة المساء، وجدت الساكنات الجديدات يتحدثن عن ذات الشيء. لقد عرفن من الحارسات بصدور عفو عام يشمل جميع جرائم السرقة، والدعارة، وإهمال الواجب، واستثنى الجرائم المرتكبة ضد الثورة. هذا هو إذاً سبب حضور الجنود إلى "أرتك" من الأسفل، حيث كان هناك خوف من غضبنا وإمكان انتفاضتنا ومطالبتنا بإطلاق سراحنا. ولكننا في ذلك المساء، وكما يحدث معنا في أمسيات أخرى كنا في غاية التعب والإنهاك. السجينات الآتيات من الأسفل وبعد ورديتين من العمل المضني في الغابة، ارتمين على الألواح الخشبية، ونمن في الحال. ونحن لحقنا بهن بعد وقت قصير.

حين لم تكن لديهن الرغبة في المساء لفعل شيء، وجدنها في الصباح. لقد تحمست النسوة أثناء الاجتماع الصباحي، ولا سيما حين عرفن بمغادرة جنود المعسكر الرئيسي. تحدثت الواحدة منهن بعد الثانية وطلبن شرحاً من الآمرة عن مصيرهن، ومتى سيتم العفو عنا. توقعت "إرينا" ردود أفعالنا وجهزت نفسها، وكانت على أتم الاستعداد. سحبت فجأة الصفارة من جيبها،

واستنفرت بصفرة واحدة حارسات أخريات، كن واقفات باستعداد مع أسلحتهن خلف البناء الذي كان فيه مكتب "إرينا".

زجت ببعض المعارضات القويات من السجينات في الحبس الانفرادي. الباقيات اللاتي حصلن في السابق على المناشير والفؤوس، لم يتسلمنها في ذلك اليوم خوفاً من محاولة استعمالها ضد الحارسات. حين كنا نسير بانتظام في طريقنا إلى الغابة، انتبهت "إرينا" إلى وجودي في الصف الأخير من المجموعة.

ـ لافكوفا! ـ صرخت.

حين كنت في طريقي إليها، لم أرغب في مناقشتها بما ينتظرني.

ـ أنت لا زلت هنا؟! ـ سألت وهي تدير رأسها مستغربة وجودي.

ـ إلى الحبس الانفرادي في الحال. هل علينا في النهاية أن نطلق النار على ظهرك، كي أتخلص منك؟!

# إينوسترانكا

# (أجنبيه بالروسية)

أمضيت في حينها يومين الحبس في الانفرادي، وفي صباح اليوم الثالث جاءتني الحارسة. كان ذلك في وقت الاجتماع الصباحي. دفعتني باتجاه صف السجينات الذي تشكل أمام المجموعة المغادرة إلى الغابة. أمرت "إرينا" بعد ذلك مجموعة العمل بالتحرك باتجاه الغابة. نحن الباقيات أخذنا نتطلع احدانا بالأخرى.

ـ ما الذي يحصل؟ ـ همست في أذن المرأة الواقفة بجانبي.

ـ لا أعرف، ـ أجابتني.

حين اختفت مجموعة العمل خلف بوابة المعسكر، التفتت الملازم القديمة إلينا. قالت إن علينا الذهاب إلى مستودع الأشياء الخاصة كي تستلم كل واحدة منا كيس حاجياتها. هذا يعني شيئاً واحداً وهو أننا سوف ننتقل إلى مكان آخر.استدرت باتجاه نافذة "ألكسي" ولكنه لم يكن هناك.

بينما كنا نتسلم الأكياس، وصلت ناقلة "كراوزافيك". أمرتنا "إرينا" بالصعود على ظهرها في الحال. صرخت بأعلى صوتي "ألكسي"...، ولكن الحارسة ضربتني بقبضة يدها على وجهي. وَجهتُ عيني المندهشتين المليئتين بالدموع نحو النافذة، ولكن ولدي لم يظهر خلفها. صرخت الحارسة في أذني، وأمرتني بالصعود، ولكني لم أعبأ بصراخها. اضطررن لحملي ووضعي على ظهر الناقلة. تحركت السيارة. بقيت أتطلع باتجاه مبنى القيادة، ولكن دون فائدة. لم أر إبني بعد ذلك.

حصل ما هو متوقع... أُبعدتُ عن ابني دون أمل بلقياه من جديد. أمضيت سنوات وأنا أعرف أن تلك اللحظة آتية لا محالة، لأنها يجب أن تأتي. كنت أتوقعها في الأسابيع الأخيرة بشكل دائم، وحين جاءت فهمت حقيقة معناها. لقد أخذوا الآن مني ولدي إلى الأبد. أبعدوني عن ابني. لم أستطع تخيل حياتي منذ تلك اللحظة بدونه، كما أن استمرار حياتي مع إدراكي لتلك الحقيقة بدا لي أمراً مستحيلاً. لم يعد باستطاعتي الأكل أو النوم أو حتى قطع الأشجار، وأنا أعرف بأني لن أرى "ألكسي" من جديد.

هذا ما كنت أشعر به، لم يكن حزناً أو أسى، لأن هذين الأمرين يمكنهما أن يزولا مع مرور الوقت. كان بانتظاري شيئ أسوأ بكثير: فقدان الأمل. إن تفكيري لم يمنحني أي فرصة، ولم أجد هناك ما يواسيني، وكأني أقف عند

نهاية الجسر أمام الهاوية. لم يعد الجسر يؤدي إلى شيء، ولكن الهاوية مستمرة إلى أن تختفي في الأفق. لا يوجد مكان لأذهب إليه.

أمضيت الطريق بأكمله غارقة في اليأس، حتى إنني لم أنتبه إلى الحوار المعقد الجاري بين السجينات الجالسات على ظهر الناقلة.عرفت أن بعضهن كن يبكين، والأخريات يواسنهن، ولكنها كانت مجرد صور تعبر عيني في طريقها إلى دماغي دون أن تتحول هناك في أي شعور، إلى أن وصلنا إلى المعسكر الرئيسي حيث فهمت ما جري بينهن طوال الوقت من حديث.

ـ انظروا إلى تلك الحفرة! ـ صرخت إحداهن.

تحركت بشكل أوتوماتيكي مع البقية إلى المكان الذي أشارت إليه السجينة بيدها. وجدنا في الحفرة الكبيرة التي تم تجهيزها بالقرب من الطريق جثثاً مرمية بشكل عشوائي. كانت إحداها مرمية فوق الأخرى كما لو أنها تمارس رقصاً جنونياً، حيث الرؤوس مقلوبة إلى الأسفل والأطراف تلوح في الأعلى، كما طليت وجوه وأجساد بالكلس مما جعلها شبيهة بوجوه المهرجين الذين رأيناهم حين رافقنا مدرسنا في الماضي لمشاهدة السيرك.

ـ هل ترون؟ كنت محقة ـ قالت سجينة أخرى مؤكدة توقعاتها. ـ سوف يطلقون علينا النار.

تلقيت الخبر براحة كبيرة. لقد وُجد الحل لمشكلتي التي لا أمل منها.

ولكنهم لم يطلقوا علينا النار. دخلت الناقلة من بوابة القسم النسائي للسجن حيث ساقونا إلى بناء واسع تم بناؤه حديثاً. كان نظيفاً من الداخل، حتى إن رائحة الخشب كانت تفوح منه. أمرننا باختيار لوح الخشب. تابعت النسوة النقاش حول المصير الذي ينتظرنا بعد مغادرة الحارسات. وحين انتبهن بأننا جميعنا أجنبيات، رحن يفكرن فيما إذا كان ذلك لصالحنا أم لا. تغلب أخيراً الرأي القائل بأنهم أصبحوا بعد العفو بحاجة لزيادة عدد السجينات في المعسكر الرئيسي كي يكون لديهم ما يكفي من القوى العاملة.

فُتح الباب بعد لحظات. اندفعت إلى الداخل سجينات أخريات. كن محليات من المعسكر الرئيسي. لم تمض دقيقة واحدة حسب ظني حتى علمنا منهن خبراً لا يمكن تصديقه، وحسب زعمهن سوف يطلقون سراحنا. وقفت إحدى السجينات القديمات في منتصف الغرفة، وأقسمت بأنها حصلت على تلك المعلومة من جندية برتبة كابتن. تابعت النسوة النقاش وطرح الآراء حتى بعد الظهيرة إلى أن دخلت إحدى الحارسات وأمرتنا بالخروج والانتظام في رتل رباعي. اقتادتنا بعد ذلك إلى أمام قاعة الطعام، حيث اكتشفت هناك أنها نسيت اخبارنا بضرورة جلب الصحون والكؤوس. عادت النسوة فرحات إلى

المبنى. أخيراَ وبعد سنوات كان بوسعهن تناول وجبة غداء بعد الفطور، ولسن مجبرات على الانتظار حتى المساء، وبعد كل هذا لم يعرفن بعد ما ينتظرهن من لذيذ الطعام.أعطونا " بورشت"(11) كثيف تطوف فوق سطحه قطع من اللحم.

ـ ربما تكون الوجبة الأخيرة قبل الإعدام.

قالت إحدى النسوة، ولكن أحداً منا لم ينتبه إلى كلامها. عرفنا أن ذلك لم يحدث في المعسكر من قبل.

جمعونا بشكل استثنائي مباشرة بعد الغداء. وقف أمامنا الميجر "لبيديف ـ رانكوف" الذي أخبرنا بأن قيادة المعسكر قررت الطلب من الهيئات العليا إطلاق سراح السجناء الأجانب من الدول التي انتصرت فيها الأحزاب الشيوعية والعمالية، لأن الحكومات الشعبية الموجودة في تلك البلدان ستضمن عدم تورطنا في المستقبل بأي نشاط تخريبي. وبالرغم من أن الجواب على اقتراحنا لم يصل بعد، إلا أن مواطني البلاد الأجنبية من رجال ونساء قد تم عزلهم عن بقية السجناء، ومنذ هذا اليوم سوف ينتظرون في مباني خاصة. ذكرنا المسؤول السياسي بأن شيئاً لم يتغير حتى الساعة في أوضاعنا، وما زلنا نخضع للعقاب العادل الذي قضت به المحاكم السوفيتية. لن نذهب إلى العمل بشكل مؤقت، ولكن هذا يمكن أن يتغير. أي محاولة فرار أو خرق لتعليمات المعسكر ستعاقب بشدة.

حين عدنا إلى المبنى، استمر التخمين والتفكير. تبيّن لنا سبب غياب الألمانيات عن صفوفنا. إنهم لا يريدون إعادتهن إلى ألمانيا الرأسمالية. بدأ بعد ذلك التكهن بالوقت الذي سنذهب فيه حقاً إلى أوطاننا. ساد الرأي القائل بأن ذلك سيحدث في أقرب وقت. رفضت النسوة انتظار الرد من المراكز العليا الذي تحدث عنها المسؤول السياسي، وحسب زعمهن، قال ذلك كي يبقينا تحت سيطرة الخوف وتأمين الانضباط، لأننا إذا تأكدنا من أنهم سوف يطلقون سراحنا فسوف يوجد بيننا من يرفضن الانصياع للأوامر.

كنت الوحيدة الخائفة بينهن من نقلنا اليوم أو في الغد صباحاً، لأن ابني لم يكن معي. كان عليّ في أقرب وقت تخليص "ألكسي" من "أرتك" وإيصاله إلى المركز. المشكلة كانت في "إرينا" التي ستقف ضدي، إنها جندية وأنا لاأزال مُدانة، وتحت العقاب. يمكنها إخفاء الصبي والانتظار ريثما أصبح في تشيكوسلوفاكيا. كان عليّ التصرف بحذر. قررت أخيرا أنه سيكون من الأفضل لو تحدثت بالموضوع مع "ليبيديف ـ رانكوف". إنه يعرفني شخصياً، وقد رآني عدة مرات برفقة "ألكسي" حين كان برفقة "إرينا" في مكتبها. لم يسبق لي أن التقيت من قبل مع قائد المعسكر العقيد "جورافين".

حين أخبرت الحارسة عن رغبتي بمقابلة المسؤول السياسي، ردتني في البداية قائلة إن ذلك مستحيل. وجدت نفسي مضطرة للكذب.

ـ ولكني أعرف السجينة التي قامت بحرق المبنى في كانون الأول ـ قلت لها.

ـ ولكننا بالتأكيد أطلقنا سراحها نتيجة العفو الصادر ـ لوحت الجندية بيدها.

ـ لم يطلق سراحها!

تفتحت عينا الحارسة:

ـ لقد كانت إذاً سجينة سياسية؟

ـ هذا الأمر سأخبره للرفيق المسؤول السياسي فحسب!

أجلسني "ليبيديف ـ رانكوف" على كنبة عريضة في مكتبه. سألني عما إذا كنت أريد "بابيروسكا"(12). بهذه الطريقة كانوا يتعاملون مع الواشيات.

ـ أخبريني إذاً ـ طلب مني ـ من كان يقف خلف ذلك الحريق؟

ـ حريق؟ تصنعت الدهشة، ولكني تابعت بسرعة ـ إنني هنا من أجل ولدي.

ـ هل أنت حامل؟، سألني المسؤول السياسي وأضاف: ـ ستلدين في وطنك.

ذكرته بأن طفلي يبلغ التاسعة. إنه أجنبي، وبقي بالخطأ في المعسكر. بدا المسؤول السياسي مندهشاً الآن. لم يستوعب أن لي طفلاً في "أرتك". توجب عليّ أن أشرح له بالترتيب بأني حين وضعت، وأصبح عمر "ألكسي" ثلاثة شهور وضعته بأمانة "إرينا " كي تعتني به.

ـ أخ... نعم ـ تذكر المسؤول السياسي ـ الملازم القديمة لم تكن حامل في يوم من الأيام، ومع ذلك عندها صبي. إن ذلك الصبي اللطيف ليس ولدها.

ـ إنه ابني!

أومأ "ليبيديف ـ رانكوف" برأسه وقال:

ـ إذا كان ولدك فإنه سيذهب معك.

تمشيت وكأني في حلم. سوف يعيدون لي ابني، وسأذهب معه إلى الوطن. لقد قالها المسؤول السياسي ولا يمكن لـ "إرينا" أن ترفض قراره. تغيرت نظرتي تماماً بـ "ليبيديف ـ رانكوف". فجأة وجدته إنسانياً، وصادقاً، وفوق هذا وذاك: وسيماً.

التقيت أمام باب المبنى "مارجيت دويتش" المجرية التي كانت معنا في المجموعة السادسة. لم يرحلوها معنا في الصباح، وأحضروها الآن من "أرتك". قالت إن ضابطين حضرا إلى الغاية لترحيلها. شتماها في السيارة لأنها لم تنبههم إلى أنها مجرية وليست ألمانية. قاما بمرافقتها إلى هنا.

سألتني وهي لا تصدق عما، إذا كانوا سيطلقون سراحنا وسنذهب إلى الوطن!

أخبرتني "مارجيت" أن أمراً فظيعاً حدث اليوم صباحاً في الغابة. أسرّت إحدى الحارسات للسجينات الروسيات بأنهم سوف يطلقون سراح المعتقلات الأجنبيات، ولكنها نسيت أن تقول باستثناء المعتقلات الألمانيات. ارتعبت الغيورة "نادا" لأنها سوف تفقد حبيبتها "ريتا"، لذا قامت بضربها على رأسها بالفأس. كانت "مارجيت" ترتجف من الخوف حين وصفت لي كيف فُتح رأس "ريتا" من تأثير الضربة وخرج دماغها الرمادي من داخله. لوحت "نادا" مهددة بالفأس إلى أن تمكنت الحارسة من إصابتها بطلقة وأردتها قتيلة.

لم تمض ساعة واحدة حتى جاءت الحارسة التي طلبت مني الذهاب في الحال لمقابلة المسؤول السياسي. طرت مثل الرصاصة. خطر ببالي في البداية أنه أحضر "ألكسي"، لكني أدركت بعد ذلك استحالة وصوله لأن السيارة لا يمكنها قطع تلك المسافة من المركز إلى "أرتك" ومن ثم العودة إلى المركز بهذه السرعة.

ـ إسمعي، "لاوكوفا" ـ بدأ المسؤول السياسي حديثه بحدة مباشرة حين فتحت الباب - تحدثت مع "إرينا ميخايلوفنا". قالت إنك تخليت لها عن ابنك. لقد وقعت على وثيقة التبني، و"إرينا" من الناحية الرسمية هي أم الطفل.

ـ ولكن... أنا ـ بحثت عن الكلمات، ـ وكيف لي ألا أوقع... كانوا سيأخذون ولدي.

هز المسؤول رأسه متفهماً:

ـ معك حق، هذه هي التعليمات.

نهض بعد ذلك عن الطاولة، ومشى خطوتين في الغرفة. وحين عاد إلى كرسيه، جعل يقيسني طويلاً.

ـ لا تنسي أنك لا زلت سجينة ـ بدأ ـ يمكننا أن نضعك في الحبس الانفرادي أو ربما نطلق عليك النار... ولكن لا تخافي، إننا لا نحضر أنفسنا لعمل كهذا. ولكن إذا تعلق الأمر بالطفل فإن اسمه غير موجود في القائمة، ومن ثم لا يمكنه مغادرة المعسكر، ولا أتحدث هنا عن صعوبة مروره عبرالحدود السوفيتية.

ـ إنني لن أغادر بدون طفلي! ـ قلت له.

رمقني المسؤول السياسي بابتسامة:

ـ أخ، يالك من غبية وساذجة! إذا بقيت هنا فإنك لن تري طفلك في حياتك. ستذهبين الآن إلى وطنك، وبعد ذلك يمكنك أن تطالبي باسترجاعه. من أين أنت؟

ـ من تشيكوسلوفاكيا.

ـ عظيم! السفارة السوفيتية في براغ تعمل بنشاط! إنهم سوف يرتبون عملية إعادة الصبي. يمكنك الاعتماد عليهم.

عدت إلى المبنى مثل إنسانة صبوا عليها ماءً مغلياً. كل شيء معكوس. حين راجعت مشكلتي مع النسوة، نصحتني غالبيتهن بالذهاب. سأكون في الوطن إنسانة كاملة الحقوق، أم لها الحق في طلب ابنها، ولكن إن بقيت هنا فسأكون سجينة لا حول لها ولا قوة.

ـ وماذا لو بقيت بعد إطلاق سراحي في الاتحاد السوفيتي، وتقدمت بطلب تطوع في الجيش، أو إلى ن ك ف د؟ سوف أعود إلى هنا بوصفي حارسة ومن ثم سأكون مع طفلي.

قرفت النسوة من كلامي وتركنني وشأني.

أطلقوا سراحنا بعد ثلاثة أيام. توقفت سيارات النقل التي ستنقلنا إلى محطة القطارات في "فورونيج". أثناء إحصاء السجينات في الاجتماع الصباحي، أغفلوا إسم "مارجيت دويتش"، واعتبروها ألمانية من جديد. هرعت خلف السيارة وهي تصرخ، ولكنهم رموها على الأرض وراحوا يضربونها بمسكات البنادق. حين سحبوها بقيت خلفها بقعة من الدم. تلك كانت آخر ذكرى عندي من "الكولاك".

# بريخاجو إز س س ر

## (إنني آتية من الاتحاد السوفيتي)

لا أعرف الزمن الذي استغرقته الرحلة بالقطار. ربما ثلاثة أيام، وربما ثلاثة أسابيع. سلمونا في "فورونيج" وثيقة إخلاء سبيل. وتركونا بلا طعام أو مال. حين صعد حراسنا إلى الناقلات وغادروا، تطلعت إحدانا في الأخرى باستغراب. هل هذه هي بداية الحرية التي حلمنا بها لسنوات؟ لقد وجدنا أنفسنا في مِزَق السجن، حاملين أمتعة لا قيمة لها من الأشياء الصغيرة ونحن في طريقنا إلى الوطن، حيث يقال إن الشيوعيين يتقلدون زمام الأمور هناك.

أخبرونا أن ـ كان عددنا يقارب المئة بين رجال ونساء ـ علينا ركوب القطار إلى موسكو. عشنا طوال الطريق على ما تكرم به علينا المسافرون. بعضهم قدم لنا الطعام بداعي الشفقة، وغيرهم بسبب الخوف. لابد أن منظرنا كان رهيباً، وكما لو أن القطار هوجم من قبل عصابة من البربر في ثيابهم الممزقة ونظراتهم المتوحشة. اكتسبنا بعد سنوات في المعسكر وجوهاً قبيحة ومخيفة، وهذا ما حصل أيضاً لقساوسة بولونيا الذين كانوا بيننا.

تشبه محطة قطار موسكو إلى حد كبير خلية النحل، ولكن بدلاً من العاملات كان الناس يصطدم أحدهم بالآخر وهم يحملون حقائبهم، وسلالهم أو أكياسهم، بينما تتسكع بينهم مجموعة كسولة شبيهة بملقحي النحل من المساجين الذين أطلق سراحهم. رجال مُقرفون وخطرون ينتمون إلى "الأوروكيين" يعترضون أحياناً أحد المسافرين ويتسولون المال أو السجائر. ومن يمكنه أن يرفض إذا كان محاطاً بأربعة أو خمسة رجال مخمورين يتطاير الشر من عيونهم؟. لم يعترضوني ولو مرة واحدة. ثيابي، وشعري القصير، وربما تعابير وجهي، أشعرتهم بأني جئت من هناك، وبأني واحدة منهم.

أردت في موسكو صعود القطار المتجه إلى براغ، لكن مراقب التذاكر رفض السماح لي بالصعود لأني لم أكن أحمل بطاقة سفر. أكد بأن عليّ السفر في البداية إلى "كييف" لوجود قطار آخر يمكنه أن يوصلني إلى وطني. لذا سافرت من موسكو إلى "كييف" وأصبحت من جديد تحت رحمة المسافرين. سألتني الجدة التي قدمت لي الخبز والدهن، عما إذا كنت لم أسمع حين كنت في السجن، شيئاً عن ابنها "إيغور"، وحسب قولها، سافرت إلى موسكو سبع عشرة مرة كي تعرف عنه شيئاً. سألت في ثلاث وزارات،

وخمس محاكم، وتكلمت مع ثلاثة أعضاء في اللجنة المركزية للحزب، وسبعة مدعين عامين. اثنان منهم سُرِّحا، وأعدم ثالثهم.

تبين في "كييف" أن القطارات المسافرة إلى تشيكوسلوفاكيا هي ذات القطارات المتجهة من موسكو، وبالرغم من خوفي الشديد من منظر بزتي الممزقة، قلت لو أني خفت أيضاً من مراقب التذاكر فلن أصل إلى بلدي على الإطلاق. وهكذا صعدت إلى القطار. حين دخل المراقب في النهاية ببزته الرسمية إلى المقصورة لتحري البطاقات، رماني بنظرة اشمئزاز، وقرف، ثم أدار وجهه وغادر.

فكرت أثناء الرحلة التي لا نهاية لها إلى الوطن بما عليّ فعله. قررت عدم إضاعة الوقت. لن أغادر القطار في سلوفاكيا، سأتابع الرحلة إلى براغ، وسأذهب من المحطة مباشرة إلى السفارة السوفيتيه كي أطالب بعودة ابني. سأسافر إلى البيت وإلى أمي في وقت لاحق.

شاب سوفيتي من حرس الحدود، طفل يرتدي بزة رسمية، تطلع إلى وثيقة إخلاء سبيلي من جميع الجهات، ثم ذهب بها إلى رصيف المحطة ليتداول في الأمر مع رئيسه. أحسست بتشنج في معدتي. خفت كثيراً من أن يلقوا عليّ القبض من جديد، ويرسلوني إلى مكان ما في سيبيريا.

لم أشك على الإطلاق بأن قرار أحد الضباط من أصحاب النوايا السيئة يكفي لذلك، ولكن المسؤول الذي وقف على رصيف القطار، أرسل الجندي وأمره أن يعيد إليّ وثيقتي وعدم إيلاء الأمر أي أهمية.

هكذا أيضاً رحبت بي تشيكوسلوفاكيا. زُينت المحطة بأعلام حمراء كُتبت عليها شعارات شيوعية، تماماً كما في روسيا مع اختلاف واحد وهو الاستعاضة عن الأحرف الأزبوكية بـ آ،ب،تسي. صرخ في وجهي مراقب البطاقات القاسي الذي صعد إلى القطار في "تشرنا ناد تيسا"، وأمرني بمغادرة القطار ما دمت لا أحمل بطاقة.

ـ انني قادمة من الأسر الروسي، ألا تفهم؟ لا يوجد معي كورون واحد، وكيف لي أن أشتري بطاقة إذا لم يكن معي ثمن كسرة خبز!

شرحت له دون خوف لمعرفتي بأن سيبيريا لا تنتظرني هنا.

ـ من الأسر؟ ـ أنبني الرجل ـ وبدون بطاقة؟! لا بد أنك ستبدأين حياة جميلة وأنت حرة. لا بد أنك ستعودين بسرعة إلى السجن.

ـ بريخاجو إز س س س ر، قلت له مهددة. (آتية من الاتحاد السوفيتي)

حين سمع الموظف لغتي الروسية، لملم نفسه، وكأنه تلقى ضربة.

حين عبر القطار وهو في أقصى سرعته "سبيشسكا نوفا فس"، أحسست بضربات قلبي.عرفت أن القطار سوف يتوقف بعد قليل في "بوبراد" حيث الطريق من هناك إلى "زالسنا بروبا" ليس بالبعيد. إذا نزلت من القطار الآن فسأتمكن بعد ساعات من معانقة أمي. ولكني بقيت في القطار. حين نظرت إلى قمم التاترا التي يغطيها الثلج أحسست بالدمع ينفر من عيني. لم أشعر في "تشرنا ناد تيسا"(13)، ولا في "كوشيتسي" بأني اصبحت في وطني، ولكن هنا: نعم.

# أسمباك

## (عنصر من الأمن القومي ـ شرطي، رجل أمن) SNB

وصل القطار إلى براغ في وقت متأخر من المساء. لم أعرف إلى أين أذهب، ولكني تشجعت في لباسي القذر وتحدثت إلى متسولة كانت تفتش بين الفضلات. نصحتني أن أقضي ليلتي معها في المحطة. سنذهب في الصباح إلى مكتب البريد ونفتش هناك على عنوان السفارة في دليل الهاتف. تقاسمت معي خبزها، ومقانقها. عرفت منها أخبار تشيكوسلوفاكيا وما يجري فيها. حتى هنا يمكنهم اعتقال الناس لأسباب سياسية، ويمكن أن يُحكم عليهم بالموت. لم أصدق ما قالته عن منع التسول. لهذا السبب خافت "كلارا" وهو اسم المتسولة من عناصر الأمن، وهذا يعني من الـ "إسمباكي" كما أطلقت عليهم.

قادتني زميلتي في الصباح إلى شارع "بود كشتاني" حيث يوجد مبنى السفارة السوفيتية. أرادت مرافقتي إلى الداخل، ولكني أقنعتها بانتظاري في الخارج.

كان الرصيف المؤدي إلى السفارة السوفيتية محروساً من قبل عناصر أمن الدولة التشيكوسلوفاك الذين اعترضوا طريقي بحزم، ولكني حين خاطبتهم بالروسية وأخبرتهم أني قادمة للتو من الاتحاد السوفيتي، ولوحت بوثيقتي المكتوبة بالأحرف الأزبوكية والموثقة بخاتم سوفيتي، أفسحوا لي الطريق مع قليل من الشك.

وقف خلف بوابة السفارة حراس سوفييت. حتى إن النَّمل قفز إلى ظهري. كانوا يرتدون ذات البزات التي تعودت رؤيتها ثماني سنوات. لم تؤثر بهم وثيقة مكتوبة بالروسية. حين اطلعوا عليها، طردوني مباشرة. ـ مهما كان طلبي، يجب أن أرسله إلى السفير بالبريد. وصلت لحسن الحظ في تلك اللحظة موظفة في السفارة. أرادت الدخول. لم يكن ذلك ممكناً لأني وقفت في طريقها، وهذا جعلها تسمع بعضاً من توسلاتي التي حاولت فيها التأثير على الحراس. قالت لي بأن أدخل معها فوراً، وبالرغم من أنها كانت شابة بلباس مدني إلا أن الحراس انصاعوا وأفسحوا لنا الطريق.

توقعت أنها ربما تكبرني بضع سنوات. كانت في حوالي الثلاثين، ولكن كلمتها هنا مسموعة. حين أجلستني في مكتبها طلبت لي الشاي الذي أحضرته موظفة أكبر منها سناً تعمل تحت أمرتها.

طلبت مني تلك المرأة الشابة أن أشرح لها سبب حضوري إلى السفارة السوفيتية، وأخبرتني سلفاً بأنها ستبذل قصارى جهدها لمساعدتي. حين رأت الندبات التي خلفها الصقيع على يدي، مررت يدها عليها بنعومة.

ـ أبي أيضاً كان عنده مثلك ـ تنهدت.

شعرت وأنا جالسة في ذلك المكتب الدافيء وبيدي فنجان الشاي المحلى بالأمان والثقة. أخبرتها كل شيء عن حياتي، بدءاً من آخر خريف في الحرب وحتى الساعة. حدثتها كيف كان يتوقف عندي "ألكسي" وهو في طريقه لتأمين المواد الغذائية للثوار، وكيف حضر الألمان في أحد الأيام، وأطلقوا عليه النار، وكيف اتهموني بعد الحرب بالخيانة، وكيف نقلوني إلى المعسكر حيث ولد ابني "ألكسي"، وكيف وافقتُ على أن تتبناه "إرينا" خوفاً من فقدانه، وكيف تابعت تربية ابني، وهو يحبني كثيراً، ولكنهم حين أطلقوا سراحي، لم يسمحوا لي باصطحابه. حاولت أن أشرح لها كل شيء بأدق التفاصيل. سمعتني الموظفة الشابة دون مقاطعة. كانت أحياناً تهز رأسها موافقة، أو كانت تصب لي الشاي. حين بكيت، أعطتني منديلاً لأجفف دموعي.

ـ لقد ورثتنا الحرب حملاً ثقيلاً، سوف نعاني منه فترة طويلة حتى نتمكن من إصلاحه ـ أكدت في النهاية.

ـ أخاف كثيراً ألا أرى ابني ـ بكيت من جديد.

أومأت الشابة برأسها تعبيراً عن تفهمها وقالت:

ـ إذا كنت حقيقة قد تخليت مجبرة عن ابنك، وتحت تأثر الضغوط، فسوف يمكننا بالتأكيد فعل شيء.

ـ هل تقولين إن هناك آملاً؟

ـ لقد وعدتك بأن أفعل ما بوسعي... سوف أستخدم كافة الإمكانات التي تنص عليها القوانين السوفيتية. سنكتب الآن الطلب. أحتاج منك جميع المعلومات الأساسية: اسمك، وتاريخ اعتقالك، وتاريخ محاكمتك، اسم الطفل، وإسم الأم بالتبني، وإسم المعسكر. يجب أن أحضرك لتعرفي أن أمامنا قضية طويلة. لن نتسلم الجواب من موسكو قبل شهر من الآن. سوف نحتاج إلى إعادة دراسة للعديد من التقارير والمعلومات. ربما سيتوجب علينا الاستئناف. هل تشكين بأحد... يمكنه أن يشي بالثائر؟

رفعت كتفي:

ـ كان في قريتنا بعض "الكاردسيتي"، ولكن لن أشير إلى أحدهم بإصبعي، هذا أمر لا يمكنني فعله. افهميني أرجوك، لقد سبق واتهمت بالوشاية بغير

حق.

كانت "كلارا" لا تزال بانتظاري حين غادرت مبنى السفارة. جلست على الجدار الخفيض في الطرف الثاني من الطريق وكانت تشعل عقاب سيجارة من مخزونها الكبير. رافقتني من جديد إلى محطة القطارات، نبهتني في الطريق، وطلبت مني أن أرمي جانباً جميع أوهامي، لأن الشيوعيين، وبالتحديد الروس، لا يمكن الوثوق بأقوالهم.

ـ حين ستُخيب النجمة الحمراء أملك، عليك الاستعانة بالصليب الأحمر ـ أنهت حديثها.

لم يفاجئني كلامها، لأني عموماً توقعت ذات الشيء، ولكن موضوعي وموضوع ابني أخذته "ليدا تروفيموفا" على عاتقها، وهذا يعني الكثير.

صعدت إلى القطار الذي سيوصلني إلى "سبيشسكا نوفا فس" في الثامنة مساءً. إذا حالفتي الحظ ً فسوف يمكنني الوصول في ذات المساء إلى "لفوتشي"، ومن هناك سأتابع طريقي سيراً لعدة ساعات حتى أصل إلى "زالسنا بروبا"، أو ربما ستتوقف لي سيارة، أوعربة تجرها الأحصنة.

جلست في المقعد المجاور للنافذة، وكنت أتناوب أثناء ذلك النوم مع الصلاة وقد خبأت جسمي وراء المعطف المعلق فوق رأسي. خجلت لأنه لم يبق معي من كتاب الصلوات سوى بعض الصفحات الوسخة.

ألقى الموظف التشيكي نظرة على وثيقة إطلاق سراحي. لم يفهم على ما أعتقد النص المكتوب بالأحرف الأزبوكية، ولكنني فهمت من نظرته المواسية بأنه عرف من أين جئت، وتوقع أيضاً حجم المعاناة التي عشتها هناك. ولسوء حظي تبادل المهمة في "جيلينا" مع موظف سلوفاكي، أخذ يصرخ بأن لا أحد يملك الحق بالتنقل في الجمهورية مجاناً. لم يستوعب فكرة عودتي من الاتحاد السوفيتي لأني أسافر من براغ باتجاه الشرق، وهذا يعني في الاتجاه المعاكس. حين شرحت له بأني كنت في السفارة السوفيتية، ضحك مستغرباً كلامي.

أمسك معطفي الوسخ الملطخ بالوحل بقرف بين إصبعيه وسألني:

ـ في هذا؟ هل أنت متأكدة أنهم استقبلوك باحترام كما يفعلون مع أعضاء قيادة الحزب وممثلي الدولة!

حين أنزلني من القطار في "روجمبرغ"، كان عليه أن يبذل جهداً كبيراً كي يسلمني في المحطة إلى الشرطة، حيث لم يعرفوا ماذا يفعلون بي. أصغرهم سناً كان يعرف الروسية قليلاً، لذا أكد لهم أن الوثيقة تتحدث عن إخلاء سبيلي من المعسكر، ولكن حسب التاريخ المكتوب فإن ذلك قد حدث قبل أسبوعين تقريباً. قاموا بعد مداولات طويلة في النهاية بإصدار وثيقة

ثانية، تخولني استخدام وسائل النقل بالمجان لحين وصولي إلى مكان إقامتي. حدث خلاف في الرأي بين عناصر الأمن حول ضرورة كتابة مكان سكني، وإذا لم يكن من الأفضل تدوينه في الوثيقة، ولكن أكبرهم سناً حسم الأمر، وقال بأنه لا يمكنهم الوثوق بكلامي، وليسوا متأكدين من أني حقيقة أتحدر من "زالسنا بوروبا". لفتوا انتباهي، وأكدوا على ضرورة حصول إنسانة مثلي في أسرع وقت على هوية شخصية. وصلت بقطار مسائي بطيء إلى "سبيشسكا نوفا فس"، وسافرت من هناك في الصباح بالحافلة إلى "لفوتشي".

نزلت من الحافلة مباشرة مقابل المبنى الذي شغلته القيادة السوفيتية في عام 1945. من هذا المكان بالذات بدأت رحلة عذابي التي سوف أتمكن من القول بأنها انتهت بعد رؤية ابني جالساً بجانبي. وقفت في المكان الذي رأيت منه قبل سنوات في إحدى النوافذ الموظفة الروسية في البلوزة التي أخذتها مني في اليوم السابق لترحيلي. ولكني لم أتذكر أي نافذة كانت بالتحديد.

تفاجأت حين قرأت بأن الحافلة تقوم برحلتين في اليوم إلى "زالسنا بروبا". تحركت الرحلة الصباحية بعد دقائق من وصولي، وكانت الحافلة نصف فارغة، وفرغت بالتدريج من الركاب ولهذا أصبحت الراكبة الوحيدة المسافرة إلى مسقط رأسي. حين وصل السائق بالحافلة إلى الموقف القريب من الكنيسة. استدار نحوي وقال:

ـ المحطة الأخيرة.

# دونتشو

## (في السابق كان هذا هو أحد أكثر أسماء الكلاب شيوعاً في الريف السلوفاكي)

وصلت في صباح ربيعي مشمس. اخترقت أنفي رائحة الهواء المعبأ بمزيج غني من الروائح العطرة التي رافقت طفولتي: قشرة الصنوبر، المرج المقصوص حديثاً، والحقول التي غطاها الند،ى وحتى رائحة حليب البقر الطازج الذي تم تجميعه في الصباح، إضافة إلى رائحة القريص المغلي، ورائحة خشب السياج. لقد وجدت نفسي بعد تلك السنوات التي أمضيتها في الرائحة العفنة للسجن، أتنفس فلا أرتوي، وكأني خرجت من قعر البئر.

كان الوقت مبكراً بعض الشيء. الطريق خال من المارة، ولكن بعض الأصوات الخارجة من بعض البيوت تشير إلى أن ساكنيها بدؤوا يستيقظون. سمعت أصوات نقر الدجاج للذرة، وقباع الخنزير الجائع الذي لم يعد بوسعه الانتظار، ووقع الخطى على الأدراج الخشبية، وطرق الأبواب، وتناحر الأطفال البريء. ذكرتني نغمة صوت أحدهم بصوت "ألكسي".

وصلت إلى النهاية المرتفعة للقرية. علقوا علمين فوق بوابة البيت الكبير الذي كانت عائلة "جرونوالد" تملك فيه مخزناً كبيراً حتى المصادرة، أحدهما تشيكوسلوفاكي والآخر سوفيتي، ولكن اللوحة التي تشير إلى مكان المجلس البلدي كانت معلقة بشكك مائل.

حين فُتحت بوابة في الطرف الثاني من الطريق. رمقتني الصبية التي كانت تحمل سلة في يدها وهي خارجة منها بنظرة فضول.

ـ "بتكا"، هذه أنا، ـ قلت لها.

اقتربت منها. كانت "بتكا هورتوفا" في السابق أفضل صديقاتي.

ـ يا إلهي! أنت؟! ـ بحلقت في وجهي ـ ظننا أنك... لقد عدت إذاً؟

رغبت في معانقة صديقتي، ولكن ذلك لم يكن ممكناً لأنها كانت تمسك بالسلة أمامها.

ـ ما أحوالك؟ ـ سألتها.

ـ لقد تزوجت من "يوجكا شترب" وأصبحت "ألجبتا شتربوفا"، وأنا الآن في طريقي إلى منزل عائلة زوجي. عندهم قبو جيد، أريد جلب بعض التفاح

لأولادي.

ـ عندك أولاد؟

حاولت تطويل الحوار بالرغم من أن وجه صديقتي كان يعبر عن بعض شكوكها. إن اللقاء معي بالتأكيد لم يكن مريحاً.

ـ ولدين، حتى الآن. وأنت؟ ـ مررتْ "بتكا" نظرها بسرعة على الثياب الرثة التي ألبسها ـ كيف تعيشين؟

ـ أنا؟ ـ لوحت بيدي. ـ سنتحدث عن ذلك في وقت لاحق. إنني مسرعة للقاء أمي.

بالفعل، ركضت في القسم الأخير من الطريق الصاعد. رأيت بيتنا الموجود خلف المنعطف. كان واضحاً من النظرة الأولى أن أمي ليست بأحسن حال، لأني وجدت سقف القرميد محني في منتصفه، وطين الجدران الخارجية مقشّر، وعوارض السياج الخشبية ناقصة.

حين اقتربت من بوابتنا الصغيرة، هرع باتجاهي كلب أبيض من الفسحة الموجودة أمام البيت وأطلق أنيناً عدائياً. لكنه راح ينبح بعد ذلك بقوة حين ضعت يدي على قبضة البوابة. آثرت التراجع إلى الخلف، خطر ببالي في تلك اللحظة أن أمي ربما لم تعد تسكن هنا. ربما تكون قد انتقلت، أو إنهم ربما أرغموها بعد اعتقالي على الانتقال. لقد سمعت في السجن حكايات عديدة مشابهة.

كان الكلب يركض على طول السياج وهو ينبح، وأصبح أكثر عداوة.

ـ دونتشو! جاء الصوت من داخل البيت.

صوتها لم يتغير، لقد ظلّ محافظاً على قوته وصرامته. نظرت إلى أمي عبر دموعي التي بدأت تنسكب من عيني وهي تتجه نحوي. لقد زاد وزنها خلال تلك السنين، وتحدب ظهرها قليلاً. وجدتها أقصر من السابق.

حين عرفتني، وصَدقت عينيها بأن تلك الإنسانة التي تقف أمامها في ذلك المعطف الملطخ بالوحل وفي ذلك الشبشب المهترىء، هي ابنتها، التوت ركبتاها، وكان عليها أن تستند على الجدار. خرجت من فمها بضع كلمات غير مفهومة، وغلب القلق على نظراتها أكثر من الفرح. صلبّت وصرخت:

ـ دونتشو، أصمت. إنها "سوزكا". لقد عادت إلينا ـ تنهدت.

حين فتحت البوابة، ارتميت عليها وعانقتها.

ـ تعالي ـ شهقت أمي باكية، دعينا لا نبكِ في الطريق.

لم يتوقف الكلب عن النباح الشديد وجعل يدور حولي ويقفز حتى دخلنا إلى البيت. لم تتمكن أمي من تهدئته. حين جلست أخيراً في المطبخ، اكتشفت ثقباً جديداً في تنورتي، وحرقة في الجلد من تحته. كان هناك جرح ينزف. لقد عضني الكلب بالتأكيد حين كنت أعانق أمي.

جلست إحدانا مقابل الأخرى وراحت إحدانا تراقب الثانية، كأن عيوننا لم ترتو من المنظر الذي حُرمتْ منه فترة طويلة.

ـ هل التقيت أحداً في طريقك؟ ـ سألت أمي أخيراً.

ـ التقيت "بتكا هورتوفا".

ـ خافت منك، أليس كذلك؟ جهزي نفسك منذ الآن، الناس سوف يتحاشونك في البداية. إن اللقاء مع إنسان ضد الدولة يعتبر أمراً في غاية الخطورة. حتى "فينكو يوراي"، "الغارديستا"(14) وجد صعوبة كبيرة

بعد عودته من الأسر الروسي. تحاشاه الناس في البداية، ولكنهم تعودوا بعد ذلك وقبلوه بينهم. كان محظوظاً لأن النظام تركه وحاله ولم يزعجوه. كان ممكناً أن يكون الأمر أسوأ. مثلاً حين عاد "جرونوالد" بعد الحرب من معسكر الاعتقال قام الأولاد في الليلة الأولى بكسر زجاج نوافذ بيته بالحجارة. لقد تعودنا الحياة في القرية دون يهود... والآن دون الألمان أيضاً.

ـ ولكن يا أمي، أرجوك، كيف يمكنكم...

ـ "جرونوالد" لم يعد ينتمي إلينا. لم يتأقلم، وغادر القرية بعد شهور. ربما انتقل إلى مكان آخر، حيث يوجد له أقارب، هذا إذا كانوا لا يزالون أحياء، وإذا لم يكونوا فليتعمدهم الرب برحمته.

أدرت رأسي. أمي لم تتغير، ولم تعلمها التجارب. كان بوسعها أن تتحسر على إنسان وتحقد عليه في ذات الوقت.

ـ فلنأمل أن يتركوك وشأنك كما فعلوا مع "يوراي"، لا سيما أنك سلوفاكية، ـ ختمت أمي حديثها.

حين انتهيت من الأكل، طلبت من أمي أن تُسخن لي الماء لأستحم. ذهبت في تلك الأثناء إلى التلة القريبة من البيت، حيث شاهدت من بعيد قبر " ألكسي" الذي تم تعميره. كانت تغطيه قطعة جميلة من المرمر نحتت عليها نجمة حمراء، وكتب عليها بخط ذهبي. حين اقتربت أكثر قرأت: هنا يستريح الثائر الروسي المجهول الذي سقط في القتال ضد الفاشست في 27.كانون الأول 1944. شهادته لم تكن بلا معنى. لن ننساه أبداً!

المجهول... بكيت من جديد. كيف يمكنهم فعل ذلك؟ كانوا يعرفون اسمه في الآمرية السوفيتية. ركعت وصلَيت ثم أخرجت من جيب تنورتي كتاب

الصلوات القديم. لم أكن بحاجة لفتح الكتاب من أجل الصلاة على زوجي الميت.

لم أذهب مباشرة لزيارة قبر والدي لأني كنت متأكدة من أني سأذهب اليوم أو في الغد مع أمي إلى هناك.

الكولخوز (اختصار بالروسية لما يعني: الاقتصاد الجماعي،وبالتشيكية لما يعني: الجمعيات التعاونية الفلاحية)

حين عدت إلى البيت كانت أمي خارجه. وجدت بانتظاري حلة كبيرة من الماء الساخن إضافة إلى كومة من ثيابي القديمة. حين انتهيت من الحمام شعرت بجوع كبير. وجدت على طاولة الفرن الحديدية طنجرة ملأى بحساء الفاصولياء مع قطع من المقانق المدخن. بلعت محتوى الصحن الساخن اللذيذ بسرعة كبيرة كما تعلمت في المعسكر، وبعد الصحن الأول سكبت الثاني، وبعد ذلك الثالث. أدركت أن من واجبي ترك بعض الشيء لأمي، ولكني لم أتمكن من السيطرة على نفسي والتحكم بجوعي. شعرت حين انتهيت من الأكل بتعب شديد. الجسم بحاجة إلى تعويض تلك الليالي التي لم يذق فيها طعم النوم في القطارات وفي المحطات. تحملت بصعوبة الإبقاء على عيني مفتوحتين لحين وصولي إلى الغرفة حيث ارتميت على السرير.

استيقظت وكان الوقت ليلاً. سمعت من المطبخ قرقعة أدوات المطبخ.

ـ القرية بأكملها مقلوبة أعلاها سافلها بخبر عودتك. كنت في الحظيرة. أعمل الآن في الجمعية ـ شرحت لي أمي وهي تطبخ.- ربما لا تعرفين ما معنى الجمعية.

ـ كولخوز.

ـ الأوضاع هناك ليست بهذا السوء، لا تخافي، سنوظفك هناك. إنهم يقبلون توظيف أعداء النظام الديمقراطي الشعبي مع الحيوانات، وسوف نزوجك!

ـ ولكن يا أمي....

ـ أنت بحاجة إلى زوج، بدونه لا يمكنك العيش. انظري إليّ كيف أتعذب. لقد جاءوا بعد اعتقالك عدة مرات بذريعة تفتيش البيت. مرة اختفت حلقاتك الذهبية، وفي المرة الثانية محبس والدك الذهبي...

قاطعتها:

ـ ولكن هل هذا مهم؟ أريد إبلاغك خبراً أهم...

ـ وماذا يكون؟

ـ عندك ـ تكسر صوتي ـ حفيد.

ـ ماذا تقولين عندي؟ ـ سألت أمي دون أن تلتفت وتابعت العمل في تنظيف الصحون.

أسندت يدي على كتفها:

ـ قلت، أصبح عندك حفيد.

التفتت أمي، وقاستني وهي لا تصدق ما أقول.

ـ لقد أنجبته في روسيا ـ شرحت. ـ حفيدك يدعى "ألكسي". صبي رائع، شعره أشقر وعيناه غامقتان مثلك. لقد بلغ التاسعة في أيلول.

بِنفس أضناها الألم، جلست أمي على المقعد.عرفت أنها لن تتلقى بهذه السهولة ذلك الخبر. لذلك لم أفاجئها به في الصباح، وأجلته عن عامدةً حتى المساء.

ـ أبوه... ـ لم أجد الكلمات المناسبة ـ مدفون هنا على طرف التلة...حين أطلقوا سراحي من المعسكر رفضوا إعطائي الصبي. لقد تعقدت الأمور. وبالرغم من أني تشيكوسلوفاكية إلا أنه... مواطن سوفيتي.

ـ جلست بمحاذاة أمي. أخذت يدي بين راحتيها. تلمست أصابعها الندبات الموجودة على يدي.

ـ إنها بسبب البرد ـ شرحت لها.

ـ مثل الجذام ـ تنهدت أمي. ـ أخ، يا إلهي، هل كان هذا ضرورياً؟!

ـ لقد كنت في السفارة السوفيتية في براغ، والتقيت هناك موظفة شابة، كانت لطيفة، ومتفهمة، وساعدتني في كتابة الطلب. قالت إن هناك أملاً بعودة ابني.

انتقل نظر أمي ببطء من يدي إلى وجهي:

ـ قالت النسوة ألوف المرات بأنك لن تعودي. ولكني لم أصدقهن. كنت دائماً أتمنى عودتك، وكنت محقة في تمنياتي. إنك هنا. أفضل شيء تفعلينه هو أن تبدأي حياتك من جديد. لم تعودي صغيرة، بنات جيلك تزوجن منذ زمن، ولكنك لست كبيرة أيضاً. كما قلت لك، سنجد لك رجلاً، وسوف يحبك، وسنقيم حفل زواج صغير لا يثير الانتباه، وبعد ذلك سترزقون بالأطفال.

ـ أنا عندي ولد.

ـ من يدري إذا كان الروس سيعيدونه إليك؟ يصعب تصديق أنهم سيسمحون له بالسفر إلى بلد أجنبي حين تقولين إنه مواطن سوفيتي. بالطبع عليك أن تطلبيه، ولكن لا تتعلقي بهذا الأمل. غالبية الأمهات عشن فقدان أطفالهن: خناق، تيفوئيد، سل... المفروض أن نتعايش مع الأوضاع.

ـ لا يمكنني أبداَ أن أتعايش مع هذا الوضع!

عادت أمي إلى العمل بجانب الفرن.

ـ أنا أتفهمك بالطبع، كل أم تريد طفلها، ولكن الصبي ترعرع هناك، وعالمه هناك، روسيا، سيبيريا، الشيوعية...

ـ لم نكن في سيبيريا! والشيوعية موجودة هنا أيضاً.

ـ لا تصرخي، أنا أمك، وأريد لك الخير، ولكني أخاف أن تبقي وحيدة في النهاية دون زوج، ودون عائلة أيضاً.

ـ كيف دون عائلة؟ انفجرت ـ لقد قلت لكم بأن عندي ابناً.

ـ بالطبع عندك، ولكن تريثي، ولا تتحدثي عنه لأحد في القرية الآن....

بدا كلام أمي وكأنه خالٍ من المشاعر، ولكني عرفت أنها تتحدث الآن بهذه الطريقة لأنها لم ترَ حفيدها بعد. عليها أن تتأقلم مع الأوضاع الجديدة. تفهمت أن الإنسان بالطبع لا يمكنه أن يحب ذاك الذي لم يره في حياته، ولا يتوقع حتى وجوده. ربما ليس بين ليلة وضحاها، ولكنها مع مرور الوقت سوف تتقبله بحب. لم أشك أبداً بأن أمي تريد لي الأفضل في نهاية الأمر، ومن ثم فإنها تتفهم كيف أن سعادتي بأكملها تعتمد على وجود الطفل معي أو عدم وجوده، ولكن عدم تفهمها من ناحية ثانية آلمني كثيراً. لقد أحست والدتي بحالتي ولكن بطريقة مختلفة تماماً. لقد أطلقتْ على اعتقالي التعسفي كلمة "أسنتيركا"، وكأني كنت مطلوبة إلى مكان أو مفروزة. وتحدثت عن طفلي الحبيب وكأنها تتحدث عن صبي أجنبي روسي.

حين رأت أمي في المساء كتاب الصلوات الممزق الذي كنت أقرأ منه، طلبت أن أرمي ذلك الكتاب الممزق في فرن المطبخ.

سألت أمي في اليوم التالي في الجمعية عن إمكان توظيفي. أرسلها رئيس الجمعية إلى قسم الكوادر. أخبروها هناك أن ذلك ممكن، ولكن عليّ بدايةً استصدار هوية مواطنة، اعترضت أمي، وأخبرتهم أنها هي أيضاً تعمل دون هوية، ولكن ذلك لم يساعدها في شيء.

أعطتني أمي قيد ولادتي الذي أرفقته بمذكرة إخلاء سبيلي، واتجهت إلى مجلس بلدية "زالسنا بروبا". كان الرئيس هناك أهم مسؤول، تماماً كما هو الحال في الجمعية. لم أتذكره ولم أتذكر في الأصل عائلة تحمل هذه الكنية. يدعى "شيشكا"، انتقل حديثاً إلى المدينة. شعرت أنه لم يكن مرتاحاً في حديثه معي، لا سيما حين أخبرني بسرعة بأن إصدار الهوية يتم في المحافظة.

سافرت إلى "لفوتشي" حيث وقع حظي المتعثر على موظف شاب يخاف من خياله، ولم يكن في ذات الوقت يعرف شيئاً. وجد بعد طول انتظار تعميماً يتعلق بإعادة المواطنة إلى أسرى الحرب، وحسب رأيه عليّ التوجه إلى الإدارة العسكرية وغيرها من المديريات التي تم إلغاؤها. تمكنت أخيراً من إقناعه بأني لم أكن في يوم من الأيام جندية، وبناء عليه فإن هذا التعميم لا ينطبق عليّ.

ـ ولكن ماذا نفعل بك؟ ـ سألني الموظف الذي لم يعرف ماذا يفعل.

ـ أريد العيش مثل أي إنسان عادي، ولأجل ذلك أنا بحاجة إلى هوية مواطن.

أومأ برأسه، وعاد من جديد للبحث في التعليمات والقرارات.

ـ لا أعرف، ربما عليك الذهاب إلى محافظة "كوشيتسي"، ـ رفع رأسه برهة ثم أعاده بسرعة إلى الأوراق.

ـ عليك أن تذهبي لإجراء فحص طبي ـ قرأ في إحدى الأوراق.

ـ لقد سبق وفحصني طبيب سوفيتي، وهذا يكفي ـ اعترضت.

ـ بالطبع ـ أعطاني الحق - الأطباء السوفييت هم الأفضل في العالم.

وجد الموظف ورقة طلب، وضعها في الآلة الكاتبة. استغربت السرعة التي كان ينقر فيها على الأحرف. كنت أرى أحياناً "إرينا" وهي تكتب، كانت أثناء ذلك تبحث عن كل حرف.

ـ المذكورة أعلاه ـ قال بصوت مرتفع أثناء الكتابة ـ تمت معاينتها من الناحية الصحية العامة، وهي صحيحة الجسم. نسمح لها بالإقامة في مسقط رأسها في بلدة "زالسنا بوروبا".

ـ ولكني جئت من هناك، اعترضت.

أطلق زفرة قوية وخرج من المكتب. عاد بعد لحظات برفقة سيدة تكبره بسنوات. لم ترد على تحيتي، ولكنها باشرت في الحال بدراسة مذكرة إخلاء سبيلي، وغيرها من الأوراق التي كان الموظف قد نشرها على الطاولة وكان يشير بإصبعه إلى كل وثيقه دون أن يتفوه بكلمة.

حين انتهت السيدة من دراسة جميع الوثائق، أنزلت نظارتها إلى أسفل أنفها، ورفعت عينيها باتجاهي:

ـ سمعي أيتها المواطنة التشيكوسلوفاكية القديمة ـ الحديثة، أجد من واجبي في البداية أن أنبهك إلى وجود تعليمات جديدة حتى في بلادنا. إننا بصدد بناء جمهورية ديمقراطية شعبية. وَمَثَلُنا هو الاتحاد السوفيتي. لا تخبري أحداً ولا

كلمة عما عشته هناك.عندي تعليمات صارمة بحق من يحاول التشهير بالاتحاد السوفيتي، وهذا يجب ألا تنسيه.

لا أعرف كيف خطر ببالي ذلك، ولكني قلت لها:

ـ لاأريد التشهير بالاتحاد السوفيتي، ولكني بالعكس أريد مدحه. أظن أن هذا ممكن؟!

ـ بالطبع، أحست الموظفة بالراحة ـ المديح مسموح!

أومأت السيدة برأسها وبدا أنها تشك في صحة كلامي.

ـ لن تتحدثي لأحد على الإطلاق عما عشته في الاتحاد السوفيتي. وقعي هنا بأننا أحطناك علماً بذلك.

أحاطوني علماً أيضاً بأن الجهة التي تُصدر بطاقات الهوية هي الشرطة الوطنية. قدمت لهم هناك إضافة إلى الوثيقة التي حصلت عليها قبل قليل من المجلس البلدي، تلك الورقة التي تسلمتها من قسم الشرطة في محطة "روجمبرك". فجأة أنفرجت أسارير الرجل الجالس أمامي في بزته الرسمية. وكأنه شعر بالسعادة لوجود ورقة مختومة من زملائه في مديرية أخرى بين يديه. طلب مني بكل أريحية أن أقترب من النافذة ليريني المكان الذي يتم فيه التصوير. حين عدت مع الصور الشخصية، حدثت أزمة بيني وبين الشرطي اللطيف. أوقفته حين كان يمر بشكل روتيني على كل فقرة على حدة في دفتر الهوية الوطنية عند فقرة "الأولاد". رغبت أن يسجل لي "ألكسي". ظننت أن ذلك يمكن أن يكون مستنداً آخر على أني أم الطفل. رفض تسجيله من دون بيان ولادة. وصلنا بعد ذلك إلى فقرة المهنة. لم يدخل في عقل الشرطي أني حتى الآن دون عمل.، وكما حدث معي في مجلس المدينة، بدأ بتنبيهي قائلاً بأن من لا يعمل يعتبر عالة على المجتمع، وهؤلاء يعاقبهم القانون، وأنا أيضاً بدأت أشرح له بأنهم لن يوظفوني إذا لم يكن عندي دفتر هوية المواطنة. أخيراً، وكأنه يفعل من أجلي خدمة كبيرة، سلمني كتاباً صغيراً مغلفاً بالأحمر. أصبحت منذ اللحظة مواطنة في جمهورية تشيكوسلوفاكيا.

انتظرت حافلة بعد الظهيرة في "لفوتشي" حتى الرابعة والنصف. تمشيت في الساحة الرئيسية، وفي الطرقات الفرعية منها. صرفت المبلغ الذي أعطته لي أمي على الصور الفوتوغرافية، وبقي معي مايكفي لبطاقة العودة فحسب. كنت أتطلع برغبة كبيرة في فترينات الجزارين، والخبازين، وبائعي الحلويات. وبالرغم من أني أكلت ما فيه الكفاية بعد عودتي من السجن إلا أني لم أشعر بالشبع الحقيقي، كنت دائماً أحس بالجوع. لم يكن جوعاً حقيقياً

بقدر ما هو رغبة في الأكل. هذا ما شرحته لي أمي. كانت سعيدة جداً من رؤيتي وأنا آكل بشراهة. قالت إن الرغبة في الأكل تعني الرغبة في الحياة.

غالبية الناس الذين تجمعوا في محطة الباصات كانوا مسافرين إلى "زالسنا بوروبا". تذكرت العديد منهم، وهم أيضاً عرفوني، وحيوني بإيماءة من رؤوسهم، لكن أحداً منهم لم يحاول التحدث معي. أحياناً كانوا يرمقونني بنظرات خائفة، وكأنهم يراقبون ما إذا كنت لا أزال هناك.

كنت أضغط خلال الرحلة بأكملها على بطني كي أخفف من تشنجات الجوع التي تعذبني. لحسن الحظ كان صوت محرك السيارة يحجب القرقعة التي تصدرها أحشائي. حين نزلت من الباص، هرعت مسرعة إلى البيت. كنت أتوق لدهن قطعة خبز بالدهن، ووضع البصل المفروم عليها.. كانت تلك ألذ وجبة عندي في طفولتي، ولم أتناولها بعد منذ عودتي. حين وصلت إلى البيت، تذكرت أن أمي ستكون في ذلك الوقت في الجمعية. كان دوامها في العمل مرتبطاً بحياة الأبقار، وبأوقات الحلب، والإطعام، والتنظيف.

أحس "دونتشو" بحضوري من بعيد. وقف بمحاذاة السياج، وتبدل أنينه بنباح يعبر عن الكراهية، وتجعد الوبر الذي كان يغطي رقبته بسرعة. خفت منه، ولم أتجرأ على عبور البوابة الصغيرة بالرغم من إمكان الدخول إلى البيت، لا سيما أن أمي أخبرتني بمكان وجود المفتاح. بقيت أراوح في مكاني لحظة إلى أن تحركت في النهاية باتجاه حظائر الجمعية. ودعني الكلب بنباح قوي.

حين مررت بالقرب من الكنيسة، وجدت بوابتها الثقيلة مفتوحة. دخلت. لم يكن هناك أحد. ركعت في المقعد الأخير، وفجأة لم أعرف بماذا أبدأ. كان هناك الكثير من الأشياء: شكر الرب القادر على كل شيء لأني عدت، الصلاة وطلب العون من أجل ابني، طلب المغفرة لأني تأخرت في المجيء إلى خيمة الرب. صَرَّ من خلفي باب صومعة الاعتراف. البدء بالاعتراف بالذنوب سيكون بالتأكيد أفضل شيء، ولكني تريثت لأني لم أعرف ما إذا كنت مستعدة لذلك الآن. ولكني دخلت في النهاية.

ـ آخر مرة اعترفت فيها كانت في عام 1944 ـ همست بدلاً من الكلمات التقليدية.

ـ كان ذلك، راح الكاهن يحسب، ـ قبل تسع سنوات، هل أنت من هنا؟

ـ من هنا.

اعترفي بخطاياك، طلب مني الكاهن.

بدأت معدتي الخاوية تنذرني بتشنجاتها.

ـ كنت بخيلة في بعض الأحيان، ورفضت تقاسم الخبز مع الآخرين، ـ بدأت اعترافي.

ـ في أي ظرف حدث معك ذلك؟ سألني الكاهن.

ـ كنت في روسيا. في أحد المعسكرات... السجن.

ـ يا إلهي، ـ همس الكاهن، لقد سمعت عن تلك الأماكن. ولكن عليك ألا تتوقفي عن الإيمان بالرب بسبب ما عشته.

ـ لم أتوقف ـ قاطعت الكاهن، ولكنه تابع.

ـ لقد تم تطهيرك من قبل الرب على الأرض، ولا بد أنك تسألين لماذا اختارك الرب أنت بالذات لهذا الامتحان. لا أحد يعرف. الرب يمهل، ولا يهمل. لقد تعذب السيد المسيح على "الجلجلة"، وتعذب معك من جديد أيضاً. إنه يعتبر عذابه خدمة للرب.

ـ لقد كذبت كي يتحسن وضعي...

ـ الوصية الثامنة تقول: لا تشهد زوراً ضد الناس، وهذا يعني شيئاً آخر يختلف عن الكذب! الآن سوف يطلبونك إلى التحقيق. هل يحق لك أن تكذبي هناك؟ إذا كان ذلك لهدف نبيل، يمكنك. إذا أردت حماية إنسان عليك أن تخدعي الشيطان. إن ما حل بنا في السنوات الأخيرة مصدره الشيطان... هل تتذكرين خطايا أخرى؟

ـ أتذكر الكثير منها.

ـ هل ارتكبتها عن سابق إصرار وتصميم؟

ـ هناك، لم يكن شيئاً باختياري.

حين رجوت أمي في المساء أن تطرد "دونتشو"، صدتني قائلة بأنه حارس ممتاز، وأردفتْ:

ـ تعرفين، كيف كنت خائفة وحدي هنا؟

ـ ولكنك الآن لم تعودي وحيدة، لقد رجعت - أجبتها.

ـ لو كان عندنا كلب جيد أثناء الحرب لما تمكن ثائرك من المرور بالقرب من بيتنا... وكل شيء كان سيترتب بشكل مختلف.

بدأت العمل في الجمعية التعاونية في الأول من أيار، وهو اليوم الذي يشارك فيه غالبية العمال في مسيرة "لفوتشي"، ولكننا نحن المعنيين بالعمل مع الحيوانات والدواجن بقينا في العمل. الحيوانات بحاجة إلى العلف حتى لو كانت الطبقة العاملة تحتفل. لقد فرزوني للعمل في وردية أمي.

جاء "ميشو شفيكروها" بعد عدة أيام لرؤيتي في الزريبة. كان يعمل في الجمعية بوصفه سائق تراكتور، ولكنه لم يجلس خلف مقود التراكتور في حياته. حذرتني أمي منه. كان في عمري، لكنه أصبح مسؤول الفرقة الحزبية في الجمعية التي يعتبر مؤسسها في القرية قبل عامين. كان يطوف في المزارع برفقة المروجين للجمعية من المدينة. لم يجد صعوبة في إقناع أمي. جاءت إليه وحدها ووقعت لاعتقادها بأن ذلك سيكون أفضل لامرأة مسنة من العمل الانفرادي. ـ تشت براتسي(15)، "لاوكوفا"، حياني "ميشو".

كنت منهمكة أثناء ذلك في حلب البقرة.

ـ تشست براتسي، "شفيكروها" ـ أجبته.

فكر "ميشو" لحظة فيما إذا كان عليه أن يغضب لأني بتحيتي تلك كنت أسخر منه، لكنه وازن الأمر ووجد أنه

من الأفضل عدم إعطاء الجواب أهمية تذكر، ولهذا تابع:

ـ يوم الجمعة كان الأول من أيار. كنا في المسيرة.

ـ كنت مضطرة للبقاء مع الأبقار.

ـ هذا شيء عظيم. لقد احتفلت بعيد العمال في العمل، ولكن بعد الأول من أيار سيأتي التاسع منه.

أومأت برأسي:

ـ معك حق. هذا يحدث كل سنة.

ـ علينا تبديل زينات الأول من أيار، وتفعيلها. الوقت يداهمنا.

ـ الزينة أسهل في أيار ـ قلت ـ كل شيء يزهر، وما عليك سوى قطع الأغصان الصغيرة وتعليقها، لتكون قد زينت.

ـ الأمر ليس بهذه السهولة ـ شكك "ميشو" بكلامي ـ إننا نتذكر في التاسع من أيار انتصار الجيش الأحمر على الفاشية. وهناك لا تكفي الأغصان.

ـ ربما لا تكفي ـ أعطيته الحق.

انحنيت لأمسك حلمة جديدة. اندفع الحليب إلى قعر السطل. خطا "ميشو" عدة خطوات ودار حولي.

ـ اسمعي ـ تابع أخيراً ـ لقد جئتِ للتو من الاتحاد السوفيتي، وشاهدتِ بالتأكيد كما يقال كيف يحتفلون بشكل كبير في ذلك اليوم المشهود. ألا تريدين المساعدة في ترتيب الزينة؟

ـ هناك، حيث كنت، لم يكونوا يزينون، والعكس هو الصحيح.

ـ لن تساعدي إذاَ؟

ـ أخبرني ما عليه فعله، واجلب لي المواد، وسأعمل.

ـ ليس بهذه الطريقة! الأمر يحتاج إلى مبادرات.. سأجد رفيقة أكثر عزيمة.

غادر ولم يتعب نفسه حتى بالقاء التحية.

# لتشنوي ديلو زاكليوتشنوفو

## (بالروسية: الملف الخاص بالمحكومين)

إذا قلت إني أتذكر "ألكسي" كل يوم فإن ذلك الوصف لن يكون دقيقاً. كنت أفكر به دون توقف، من الصباح إلى المساء. كنت أتخيل ابني طوال الوقت، وأسأل نفسي عما إذا كان بصحة جيدة، وماذا يفعل، ومن هي مدرسته، وأهم من هذا وذاك، ألا يزال يحبني أم إنه لا سمح الله بدأ ينسى؟ هل تكون "إرينا" أدخلت في رأسه أني تركته وتخليت عنه، أو ما شابه.

انتابني في منتصف أيار شعور بعدم الراحة، وسألت نفسي عن سبب تأخر رد السفارة السوفيتية، وبالرغم من أن "ليديا تروفيموفا" أكدت لي بأن الجواب لن يجيء قبل شهر، إلا أني شعرت بالخوف من أن تكون قد نسيتني. كانت في مركز مرموق، وربما تكون مشغولة بملفات أكثر أهمية، وواجبات لا يمكنها تأجيلها احتلت مكان الصدارة في عملها، في حين أصبح ملفي رهين درج مكتبها. أو ربما ضاعت رسالتها وهي في طريقها إلى موسكو.

تم وصل الهاتف في مركز بريد "زالسنا بوروبا"، لهذا قررت الاتصال هاتفياً ببراغ. وبالرغم من أني اتصلت عدة مرات، إلا أني لم أصل إلى نتيجة. لم يوصلوني ولو مرة واحدة بـ"ليديا تروفيموفا". تم في البداية قطع الاتصال الذي لم تتمكن عاملة الهاتف من إعادته، وفي مرات أخرى أخبروني بأن "ليديا تروفيموفا" خارج مكتبها، أو إنها لا تستقبل مكالمات هاتفية لأنها مشغولة جداً. كانت الأيام تمر، وبمرورها إزداد خوفي حتى وصل إلى أقصى درجات الشك، كما توترت أعصابي إلى حدود الانفجار. كانت الكوابيس توقظني من نومي، والأحلام تصور لي أشياء مرعبة تحصل لـ "ألكسي". حتى إني بدأت أهذي أثناء النهار، وكنت أسمع بكاء إبني أو صوت أمي من بعض البيوت أثناء نزولي من القرية.

تمكنت من الاتصال بـ "ليديا تروفيموفا" في الثامن عشر من أيار. وبالكاد نطقتُ اسمي، وإذا بها تصرخ بانزعاج:

ـ تهمتك مثبتة ولا يوجد أي سبب لاستئناف قرار السلطات السوفيتية!

لم أتمكن من قول كلمة واحدة. بدأت السماعة بإصدار صوت تك، تك. بقيت متحجرة في كابينة الهاتف فترة طويلة بانتظار شرح يأتيني عبر السماعة. تساءلت عما إذا لم تكن "ليديا تروفيموفا" قد خلطت بيني وبين شخص آخر.

وعما إذا كانت هي من تحدثت إليها؟ بدا لي الصوت في الهاتف مختلفاً، غليظاً وممطوطاً. تحولت شكوكي بسرعة إلى قناعة بأن الخطأ في جهاز الهاتف، وأن قضيتي من الأهمية بحيث لا يمكنها أن تُحل عن بعد.

قررت وأنا في طريقي إلى البيت السفر في أقرب وقت إلى براغ. حين أخبرت أمي بقراري، حاولت في البداية ثنيي عنه. كانت تخاف من حدوث مشكلات في الجمعية:

ـ لا يمكنك الغياب عن العمل دون سبب.

ـ دون سبب؟ ـ الموضوع يتعلق بابني.

ـ وهل يمكنك الحصول على تبرير غياب؟

ـ أي تبرير، أرجوكِ؟

ـ إذا كنت تريدين السفر إلى براغ مهما كلف الأمر، أطلبي منهم في السفارة وثيقة تثبت أنك كنت هناك. ربما سيأخذها الرئيس بعين الاعتبار.

كنت أستمع إليها بأذن واحدة، وأفكر بطريقتي:

ـ سأطلب في الغد من السائق الذي ينقل الحليب إلى "بوبراد" أن يصطحبني إلى هناك.

ـ ولكن لا تنسي طلب الوثيقة ـ شرحت لي بعد ذلك خطتها ـ سأخبر الرئيس بأنك تقومين بعمل لصالح الروس مما يجعلك مضطرة للسفر بين الحين والآخر إليهم. إذا حالفني الحظ فإنه سيرتعب، ويعتقد أنك جاسوسة.

ضحكنا من الفكرة. أحسست أخيراً وربما للمرة الأولى منذ عودتي إلى البيت، أن أمي تقف إلى جانبي، ولا تريد استنكار فعلتي ولا حتى ثنيي عن الأمر، وسوف تساعدني.

حين نزلت من القطار السريع في براغ، لمحت صديقتي "كلارا" في بهو المحطة. كانت تتمدد على المقعد. هرعت إليها في الحال، ولكني لم أبق معها طويلاً. كانت ثملة إلى درجة جعلتها تجد صعوبة في النطق.

تهت وحدي في براغ إلى أن وصلت أخيراً إلى السفارة السوفيتية، وكان وصولي بعد انتهاء فترة المراجعات. بصعوبة كبيرة وبعد نقاش طويل مع الحرس، أخبرتهم بأن "ليدا تروفيموفا" أعطتني هذا الموعد في تلك الساعة، سمحوا لي بالدخول. لحسن الحظ لم يتصلوا بها ليتحققوا من الأمر.

بيد مرتجفة، قرعت باب غرفتها.

ـ أدخل ـ سمعت صوتاً من الداخل.

جلست "ليدا تروفيموفا" خلف طاولتها، محنية الرأس فوق الأوراق. حين لمحتني تيبس وجهها.

ـ أنتِ؟ ماذا تريدين؟

ـ لقد اتصلت بك، و...

ـ لقد أخبرتك، إن تهمتك ثابتة، ولا يوجد أي سبب يجعل السلطات السوفيتية تغير رأيها. لا أظن أنك تتوقعين من السلطات السوفيتية تسليم مواطنها إلى امرأة خانت الأنصار مع الفاشست.

ـ ولكن هذا مخالف للحقيقة! صرخت.

ابتسمت "ليدا تروفيموفا" بسخرية واضحة:

ـ الشيء الوحيد الذي علينا أن نتعلمه من الألمان هو الدقة في الإدارة.

نهضت من وراء الطاولة، وأخرجت من الخزانة مغلفاً من الكرتون القاسي كتب عليه بالأزبوكية "لتشنوي ديلو زاكليوتشنوفو"، وتحت العنوان، إسمي، ورقم ما. أخرجت من هناك صورة وثيقة.

ـ تعرفين الألمانية، أليس كذلك؟- سألتني بسخرية حين سلمتني الصورة.

كانت النسخة عبارة عن وثيقة ألمانية، قرات محتواها بسرعة. وإذا كنت فهمت ما قرأته، فإنها أشارت إلى تسلم "سوزانا لاوكوفا" تعويضاً لقاء الإدلاء بمعلومات عن تحرك الوحدات المعادية. توقيع المستلمة كان في الزاوية السفلية للوثيقة.

ـ سأعود إليك من جديد، ـ قلت بصوت منخفض، ووضعت صورة الوثيقة على الطاولة.

# بوريختوفات

# (من اللغة الألمانية العامية وتعني التحضير)

ـ لا تخافي أيتها العمة، سوف تنجحين، عليك أن تتصرفي كما تأمرك غريزتك فحسب، ـ قالت "لوتسيا" ومررت يدها بلطف على الندبات التي أحدثهاالصقيع، والروماتيزم في أصابع اليدين.

ـ يوي، أيتها الفتاة، إن غريزتي تقول لي بأن أطلب سيارة الإسعاف، وإرسالك إلى أقرب دار توليد.

ـ ولكني لن أضع الآن، بقي لدينا شهر كي نحضر أنفسنا لذلك، أو كما تقولين "بوريختوفات".

ـ التَحَضير أو بوريختوفات، ـ هممهمت العجوز، ـ ولكني أخبريني كيف؟!

ـ سندرس ذلك من الإنترنيت. لقد سبق وأخبرتك أن هناك كل شيء.

ـ إنني أصدق إنترنيتك تماماً مثل تصديقي المسؤول السياسي في المعسكر. الكثير من الكلام ولكن الحقيقة فيه غائبة.

أمسكت "لوتسي" العجوز من يدها:

ـ ولكنك لست غاضبة مني، أليس كذلك؟

ـ غاضبة، بالطبغ غاضبة! وماذا لو متِّ عندي أثناء الولادة؟ هذا أمر مؤكد، وماذا سيحصل لي بعد ذلك؟

ـ سوف تقومين بتربية الطفل - خففت عنها "لوتسيا". ـ سوف يسليك في ما تبقى من حياتك.

ـ لا تعذبيني، هل بوسعي أن أربي أحداً؟ سأموت بعد عدة شهور، وينتهي الأمر. كل شيء إلا الموت في السجن. إنك تعرفين جيداً... ولكن ماذا، وما فائدة الكلام! إنك تخلطين بين الولادة وقلع السن اللبني. لو كنت لا أحبك مثل ابنتي لكنت طردتك بالعصا من بيتي.

ـ ولكن يا عمتي، ـ ضحكت "لوتسيا"، ـ تضربين بالعصا امرأة حامل، في حين كان ذلك ممنوعاً حتى في "الكولاك"!

ـ كنت أنبت أمك على تربيتك ـ قالت العجوز ـ، ولكني أُفضل تأنيبك أنت بالذات لأن أكثر ما أزعجني كان ضحكك اللامبالي. إذا كنت لا تخافين على نفسك فعلى الأقل خافي على الطفل!

لوحت العجوز بيدها، وخرجت. همهمت، ما أحوجها الآن لابنها بجانبها، ولكن لوتسيا" لم تفهم ما إذا كانت بحاجة إليه لمساعدتها في الولادة أم لحملها إلى خارج البيت.

كانت "لوتسيا"تحضر نفسها منذ اليوم الأول الذي سكنت فيه عند العجوز للولادة عندها في البيت. قامت بغلي الشراشف، وكيها، ونظفت الطشت، حتى إنها سَنَتْ المقص لقطع حبل السرة، وسكبت عليه "بالنكا"(16) لتعقيمه. أدارت العجوز رأسها مستغربة ما تراه أمامها، ولكنها مع ذلك ساعدتها. كانت تعرف أن "لوتسيا"هاربة، وكانت تشعر في مكان ما من ضميرها، أو ربما كان هذا الشيء مكتوباً مباشرة في قلبها، بأن واجبها يحتم عليها مساعدة الهاربين تحت أي ظرف.

جاءت "لوتسيا" إلى "زالسنا بوروبا" دون أن تحمل معها أي شيء سوى "اللابتوب" الذي كان موصولاً بالهاتف النقال. لقد دفعت رسم تلك الخدمة بعد مغادرتها أمها، ومن ثم لم يكن هناك خوف من أن الشرطة يمكن أن تعرف المكان الذي تختبىء به "لوتسيا".

لقد وجدت في الإنترنيت عدداً كبيراً من الصفحات التي تروج للولادة الطبيعية. عرفت أن بوسعها الولادة في الماء وهي في وضعية القرفصاء، أو في أوضاع أخرى، ماعدا وضعية الاستلقاء على الظهر أو في المشفى. ولكنها وجدت صفحات أخرى عديدة تهتم بتحضير الولادة خارج المشفى، غير أنهم أشاروا إلى أن هذه الطرق يمكن استخدامها كحل في الحالات الطارئة، لأنها تتسبب بنسب عالية في موت الأم والطفل أيضاً. وهذا ما جعل دماغ "لوتسيا" في مكان ما من الخلف يشير إلى فكرة طلب سيارة الإسعاف، والذهاب إلى

المشفى حين تشعر بأول طلق. المسافة من "بوبراد" تستغرق عشرين دقيقة، ومن "لفوتشي" أقل.

كانت تحضيرات الولادة في البيت هي الوسيلة الناجعة لتأمين التواصل بين "لوتسيا" والعمة العجوز "سوزانا". لقد أحبت العجوز وأشادت بنشاطها من اللحظة الأولى التي التقتها فيها. وما زاد من تقاربهما هو اعتبارهما الولادة عملية مشتركة تحتاج إلى حل. استمرت "لوتسيا" في الأمسيات على إصرارها طالبة من العمة"سوزانا" تذكر حياتها في "الكولاك" أو على الأقل بعد خروجها منه، ولكنها لم تسجل تلك الحوارات بالرغم من أن ذلك كان ممكناً بوساطة الميكرفون الموصول مع الإنترنيت. لم تعرف "لوتسيا" السبب، ولكنها شعرت بالتدريج أن العمة "سوزانا" هي بمثابة قريبة لها، ومن ثم لا يصح إذاعة تفاصيل حياة الأقارب. لامت نفسها بعد ذلك لأنها بفعلتها عَقّدتْ إمكان الانتهاء في المستقبل من مشروع تخرجها.

ـ حتى لأجل طفلك سيكون من الأفضل لو أنهيت دراستك في أقرب وقت، ـ قالت لها في إحدى المرات العمة "سوزانا"، ولكنهما لم يتطرقا إلى هذا الموضوع مرة أخرى.

## سويوز

## (الاتحاد السوفيتي بالروسية)

ـ هل أحضرت وثيقة تؤكد أنك كنت هناك؟ ـ سألت أمي، حين كانت تُبعد "دونتشو" كي أستطيع المرور إلى الفسحة الموجودة أمام البيت.

لم أجبها بشيء. جلست في المطبخ على المقعد ورحت أتطلع في وجهها.

ـ بدلي ثيابك بسرعة، أمرتني، علينا في أقرب وقت أن نكون في الجمعية.

ـ أمي، قلت لها في النهاية، ـ أنت الواشية!

ـ أنا؟ شهقت، ـ أيتها المجنونة، لا أظنك تفكرين أن بإمكاني الوشاية بابنتي..

ـ لا أقول بي، بل بـ "ألكسي"! لقد رأيت توقيعك على الوثيقة الألمانية. لقد حصلت أيضاً على قروش "يوداش"(17).

ـ جلست أمي بالقرب مني. وضعت يدها على كتفي، ولكني دفعتها عني بعنف.

ـ لماذا فعلت ذلك؟ ـ بدأت أبكي.

ـ تسألين لماذا؟ لماذا؟! لأجلك، كي تتوقفي... مع البولشفي. لقد حميتك خوفاً من أن يشي بك أحدهم، وفي حينها سيقضي الألمان علينا. فكرت أنهم... سيضعون حراسة أمام بيتنا، وينتهي الأمر. لم أعرف أنهم سوف...

بقينا جالستين ربما ساعة دون أن نتلفظ بكلمة.

ـ انهضي، قالت أمي في النهاية، ـ علينا أن نسرع إلى الأبقار. إنها تجوز من شدة الجوع.

عملت إحدانا بجانب الأخرى، ومشت إحدانا بجانب الأخرى في طريق العودة إلى البيت لتناول طعام الغداء، وعدنا من جديد إلى الجمعية، ورجعنا في المساء من جديد إلى البيت. لم تنطق أي واحدة منا بكلمة طوال النهار.

حين كنت أتطلع في الليل في السقف شعرت بكراهية كبيرة نحو والدتي التي كان شخيرها يملأ المطبخ. لقد خربت حياتي بسبب تفكيرها العقيم وقلة إحساسها. تسببت في موت "ألكسي" وها هي الآن تريد منعي من استرجاع ابني والعيش معه. نهضت وذهبت إلى المطبخ.

هززت كتف أمي:

ـ عليك أن تعترفي!

أفاقت من نومها ببطء، ونظرت إليّ دون أن تفهم قصدي.

ـ أقول، عليك الاعتراف في أقرب وقت. مباشرة في صباح الغد.

أكدتُ حتى في الصباح على أمي أن تذهب إلى قسم الأمن الوطني وتعترف هناك. لم ترد عليّ بشيء. ارتدت ملابسها وكأنها تحضر نفسها للذهاب إلى العمل، وربطت لفحتها. اعترضت طريقها عند الباب:

ـ اذهبي إلى "لفوتشي" واعترفي! صرخت بها مهددة.

تطلعت أمي في عيني.

ـ لم أتوقع هذا الكم من القسوة من ابنتي. أظنك نسيت أني أمك.

ـ عليك أن تعترفي. بهذه الطريقة فحسب يمكنني استرجاع ابني، همست راجية. ـ وأنا أيضاً أم.

بكينا معاً. ذهبت بعد لحظات إلى الجمعية دون أن أودع أمي.

كان يوماً رهيباً. لقد أحسست بالأشياء وبالناس من خلال ضباب كثيف. شعرت بفراغ كبير لا نهاية له في روحي التي كانت تضج بنوع غير معروف من الحقد الموجه على ما أظن، نحو العالم أكثر من توجهه نحو أمي. كما أن قسماً لا بأس به كان موجهاً إلي بالذات. حاولت الصلاة عدة مرات في العمل، ولكني لم أصل إلى الكلمات الأولى.

جاء الرئيس قبل الظهيرة.

ـ انتظرت مجيئك كي تخبريني عن سبب غيابك البارحة عن العمل، ـ بدأ محتداً بوضوح.

ـ كنت في براغ في السفارة السوفيتية. عندي ابن في "سايوز" وأنا بصدد التحضير لعودته ـ أجبته.

ـ ابن؟ تفاجأ. ـ قالت أمك بأنك تعملين لصالح السوفيت... من منكما يكذب إذاً؟ ربما كلاكما...

ـ لا، كلانا قلنا الحقيقة. إني أساعد السوفيت في الكشف عن الواشي الذي قام خلال الحرب بخيانة الثوار عند الألمان.

ابتسم الرئيس بسخرية، وبدا أنه يشك في الأمر:

ـ سأعتبرك غائبة عن العمل. وكي أتأكد... أين أمك؟

ـ غادرت.

ـ تركت العمل؟ متى ستعود؟

ـ ليس لدي أدنى فكرة، ولكن يمكنك بكل هدوء اعتبارها غائبة.

تنهد الرئيس بقرف، وغادر.

ذهبت أثناء العمل لزيارة قبر "ألكسي". تلوت الصلوات المعهودة في البداية، ولكني عدت بعد ذلك في التمنيات لأتوسّل "ألكسي" وكأنه الراعي الإلهي. رجوته أن يتوسط لي عند القدير القادر أن يُرجع لي ابني. ولكني أدركت بعد ذلك أني أتصرف بأنانية نحو "ألكسي"، بل حتى نحو "الكسي الثاني". الاتحاد السوفيتي هو مسقط رأسه، ولو أن "ألكسي" الكبير بقي على قيد الحياة حتى نهاية الحرب لكنت تزوجت منه وسافرت معه إلى بلاده. والآن أريد جلب "ألكسي" الصغير من هناك.

حتى إن الصلاة زادت من بؤسي.

انتشر خبر اعتقال أمي بوصفها متعاونة مع الفاشست بعد بضعة أيام. إحدى النساء العاملات في قسم الأمن الوطني في "لفوتشي" نقلت الخبر إلى هنا. كما أن الرئيس ساهم أيضاً في نشره، وتذكر ما قلته له بأني أعمل مع السوفييت لكشف الواشين المتعاونين مع الألمان. وهذا ما جعل الناس الذين كانوا منذ مدة يتحاشون الاقتراب مني، ينظرون إليّ بقرف، وكراهية، وبالمقابل أصبحتُ في عيون بعض الشيوعيين المخلصين رفيقة.

أول من جاءني كان الرئيس:

ـ لقد ألغيت غيابك ـ مد لي يده مصافحاً ـ كما أريد نقلك للعمل مع العجول. إننا بحاجة هناك إلى كوادر مخلصة. العجول مثل الأطفال، وهي بحاجة إلى عطف الأمومة ورعايتها. لن تكوني مضطرة في الصباح للاستيقاظ، وحلب الأبقار، ما رأيك؟

ـ الاستيقاظ المبكر لا يزعجني ـ أجبته.

ـ بالطبع لا يزعجك، ولكنك ستكونين هناك أكثر نفعاً. اتفقنا إذاً؟! من أول حزيران.

توقف عندي "ميشو شفيكورا" أيضاً.

ـ مارأيك بالزينة التي جهزناها للتاسع من أيار؟ ـ سألني.

ـ جميلة ـ أومأت برأسي.

ـ اضطررت في النهاية للعمل وحدي في ترتيبها. ولكن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر. يجب أن يشارك عدد أكبر، والأفضل لو شارك الجميع. كما أني أريد اقتراحك أيضاً للدخول في منظمة "تش إس إم"(18).

ـ وماذا تكون هذه؟

ـ اتحاد الشبيبة التشيكوسلوفاك.

ـ وهل أنت جاد؟

شعرت بالخوف.

ـ لا تخافي، أعرف أنك لم تعودي شابة، ولكن حسب القوانين يمكنك أن تصبحي عضوة عدة سنوات. أعضاء الاتحاد أناس سعداء. اجتماعات، عمل طوعي، ترتيب أول أيار... أنا مسؤول الفرقة الحزبية، ومنظمة الشباب في الجمعية، وهذا فوق طاقتي. ما رأيك بهذا؟

ـ عندي عمل كثير ـ أجبته بلا تحديد.

ـ أعرف أن عليك الآن العمل مكان اثنتين لأنهم اعتقلوا أمك، ولكن عملك مع العجول سيكون أسهل. سأحضر لك الطلب.

ـ لا تحضر أي شيء. لا وقت عندي للاجتماعات. إنني أعتني الآن وحدي بالبيت، وبالزراعة...

ـ ما هذا الذي تقولينه؟ لم يبق هناك سوى بعض الدجاج.

ـ هناك كلب أيضاً، تنهدت.

أصبحت أخاف من "دونتشو" أكثر من ذي قبل. قبل ذلك كان باستطاعتي الاعتماد على أمي التي كانت تبعده عني، ولكني الآن بقيت وحدي في مواجهته. كان دائماً يكز أسنانه، وينبح حين أفتح البوابة. لم يتركني أدخل لأنه لم يعترف بي. حتى إنه في صباح أحد الأيام عضني من يدي حين وضعت له الأكل في الطبق. لم يكن جرحاً يستحق الذكر. بقيت في مكانه بعض الخربشات ولكنها كانت لحظة القرار. يوجد في الحظيرة على الرف سَمٌ مخصص للجرذان. أخذت منه القليل، وخلطته في المساء مع طعام الكلب. حين خرجت في وقت متأخر إلى الحديقة، وجدته مستلقياً بلا حراك تحت سياج توت العليق. اقتربت منه بحذر شديد. كان لا يزال على قيد الحياة في ذلك الجو الضبابي. كان واضحاً أنه يتألم، ولكنه لم يتلوَّ، كأنه أراد أن يحافظ على كبريائه أمام عدوته حتى النهاية.

بكيت كثيراً في ذلك المساء بالذات. بكيت من كل شيء، لأن كل شيء انقلب على عكسه، وشعرت أنه موجه ضدي. ربما كان من الأفضل لي لو بقيت في روسيا لاني لم أجلب معي سوى التعاسة والألم. لقد أرسلت أمي إلى السجن، وقتلت الكلب. بقيت وحيدة لأني لا أستحق شيئاً آخر.

# فيغوغلوفات

## (البحث في الإنترنيت بوساطة برنامج غوغل)

دخلت "لوتسيا" إلى المطبخ وهي ترتدي قميص نوم عريض كانت العجوز قد اختارته لها من بين ثيابها غير المستعملة الموجودة في ركن الملابس.

ـ صباح الخير أيتها العمة، سلمت عليها ـ أشتم هنا رائحة البيض المقلي.

التفتت العجوز كي ترد لها التحية، ولكن بطن "لوتسيا" لفت انتباهها.

ـ استديري على جنبك ـ أمرتها ـ وارفعي ذلك القميص.

تطلعت بانتباه إلى بطن الصبية!

ـ يبدو لي أنه بارز إلى الأمام. ألا تشعرين بأنك ستلدين؟!

ـ ليس بعدُ يا عمتي، ما زال أمامي بضعة أيام ـ قالت "لوتسيا" وهي تضحك.

ـ من جديد ذلك الضحك غير المسؤول، همهمت العجوز.

وضعت المقلاة على الطاولة وطلبت من "لوتسيا" أن تأخذ.

تناولت " لوتسيا" الملعقة، ولكن العجوز أوقفتها.

ـ ليس بالمعدنية، هاك الخشبية كي لا تجرحي التيفال.

ـ ضحكت "لوتسيا" من الكلمة الأجنبية التي استعملتها الفلاحة العجوز:

ـ وأنت يا عمتي، ألم تفكري يوماً ببدء الدراسة؟ على الأقل المدرسة الإعدادية، دراسة مسائية، كان ذلك ممكناً في تلك الأوقات وكانوا يطلقون عليها دراسة عن بعد.

ـ وماذا أجني من تلك الدراسة؟ كي أصبح أكثر فهماً مع العجول؟

ـ كان بوسعك فعل شيء آخر.

ـ كنت أشعر بالراحة في الزرائب، وأنت لا تبلعي قطعاً كبيرة كي لا تتقيأي، وبعدها لن يجد الجنين ما يتغذى به.

أكلتا بصمت. نهضت لوتسيا" بعد ذلك وباشرت في غسل أدوات الطعام.

ـ أريد أن أناقشك في موضوع جدي ـ بدأت العجوز.

ـ أوخ، هذه بداية لا تطمئن ـ أطلقت "لوتسيا" ابتسامة ساخرة.

ـ انظري إلى يدي.

ـ أرى. عندك في كل يد عشر أصابع.

انزعجت العجوز من سخرية " لوتسيا":

ـ ترين بلاشك عشر أصابع روماتيزمية مشوهة ومائلة، أليس كذلك؟

ـ نعم ـ تصنعت "لوتسيا" الجدية- هذا ما حدث لك بسبب صقيع سيبيريا.

ـ لم أكن في سيبيريا، أنت...

حاولت العجوز إنتقاء الكلمات المناسبة، متجاهلة.

ـ سامحيني.

ـ الأمر لا علاقة له بالمكان الذي كنت فيه... تلك الأصابع لا يمكنها الإمساك بأطراف الطفل الصغيرة وسحبه منك. هل تفهمين؟.

حين تحولت عينا "لوتسيا" من أصابع العجوز المصابة بالروماتيزم إلى ذلك الوجه المغطى بالتجاعيد، شعرت بالدموع تنساب من عينيها.

ـ إذاً تريدين طردي؟! إلى من سألتجىء؟ ـ أجهشت" لوتسيا".

ـ إلى أمك، اتصلي بها لقد آلمتها بما فيه الكفاية.

ـ لن أتصل بها أبداً ـ انفجرت "لوتسيا" باكية. ـ أرادت أن تفقدني طفلي.

ـ يجب عليك أن تتعلمي مسامحة الآخرين كي تعرفي مسامحة نفسك، إذا حدث وكان ذلك ضرورياً لا سمح الله.

ـ ظننت أنك أصبحت الآن أمي ـ توسلت "لوتسيا".

ـ هممم، سأكون اماً بالتبني إذاً ـ هممت العجوز ـ ولكن لا يمكنك اختيار أمك على هواك، عليك تقبلها كما هي، جيدة كانت أم سيئة.

ـ ولكني لا أريد أمي الحقيقية.

تنهدت العجوز:

ـ هذه ليست اللحظة المناسبة لتكوني قاسية... انظري إليَّ، لم أتمكن من مسامحة نفسي على ما فعلته بأمي على الإطلاق.

ـ لم تكن لديك خيارات أخرى.

ـ من يدري؟ لم أجربها جميعها. ربما، لو صبرت أكثر لكنت ربحت ابني دون أن أشيّ بأمي.

ـ لقد وشت على نفسها بنفسها ـ ذكرتني "لوتسيا"

ـ ولكني أجبرتها. لو أنها لم تفعل لكنت ذهبت إلى إس إم ب وحدي. لست أفضل من "بافليك موروزوف".

مسحت العجوز دمعتها الوحيدة.

ـ أقول ذلك لمصلحتك. كيف يمكنك أن تربي طفلك إذا كنت تكرهين أمك؟ هذا النوع من الحقد شبيه بالحمل الثقيل. عليك أن تحمليه حتى يرميك أرضاً... سوف ترين كيف ستحب أمك حفيدها. حين ستذكّرينها بعد خمس سنوات أنها أرسلتك كي تجهضيه، لن تصدق ذلك...

ـ لا، لن ترى ابني أبداً ـ أعلنت "لوتسيا".

ـ إذا أردت كسب احترام طفلك عليك أن تكوني له مثلاً يحتذي به، وتحديداً في علاقتك مع أمك. هذا هو الحال في كل عائلة محترمة وفي أي زمان.

ـ ولكننا لسنا عائلة محترم ـ. أنهت "لوتسيا" الحديث.

ـ خرجت العجوز إلى فسحة البيت الأمامية، حيث كان هناك دائماً ما يكفي من العمل، وقد حان الوقت للبدء. لحقت بها "لوتسيا" بعد عدة دقائق.

ـ إنني مستعدة للولادة في المشفى ـ قالت ـ حين سيأتي الطلق، سأتصل بالإسعاف السريع، هل توافقين؟

كانت العجوز جالسة على كرسي خفيض بين البطاطا. تركت المجرفة ثم شبكت أصابعها الملوثة بالوحل وبدأت بالصلاة.

ـ أشكرك، يا إلهي لأنك سمعتني...

انحنت "لوتسيا" كي تقبلها من جبينها.

ـ غداً سيكون عيد القديسين بيتر وبافل. إذا أردت السكن هنا، عليك مرافقتي إلى الكنيسة لحضور القداس ـ أضافت العجوز.

ـ إذا كان ذلك أمر، سأفعل ـ ضحكت "لوتسيا" ـ ولكن أرجو ألا أتسبب في إحراجك. لا تنسي أنني... كيف سميتيني؟ آخ، تذكرت: نمت مع أحدهم.

سمعت العجوز كلامها، ولكنها فكر ت بشيء آخر:

ـ كم أتمنى معرفة ماحدث لعائلة "بافليك موروزوف". كيف عاشت الأم والأخوة...

ـ سنبحث عنهم في صفحة غوغل، ـ أعلنت "لوتسيا".

# زيس 110

## (سيارة ليموزين سوفيتيه تم إنتاجها عام 1946)

جرت محاكمة أمي في براتيسلافا. وصلتني مذكرة تطلبني للشهادة. وضع رهيب. اتصلت من جديد بـ براغ. كانت "ليديا تروفيموفا" على دراية بكل ما يحدث. أخبرتني أن السفارة السوفيتية تتابع مجريات التحقيق بانتباه. إذا حكموا على أمي فمن المؤكد أنهم سيعيدون لي اعتباري، وسيرجعون لي طفلي. رجوتها أن تساعدني كي لا أقف بوصفي شاهدة في محاكمة أمي. أخبرتني أن ذلك من صلاحيات المحاكم التشيكوسلوفاكية، ولا يمكن للسفارة السوفيتية أن تتدخل في هذا الشأن.

جاءني بعد بضعة أيام عنصران من أمن دولة. أبرزا بطاقتي إس ن ب. ثم شرحا لي بأنهما كانا عند رئيس الجمعية، ورافقاني إلى السيارة. ذهبت معهما إلى "لفوتشي". كان ذلك مشابهاً لما حدث معي قبل سنوات، والفارق الوحيد هو أني توقعت ما يمكن أن يحدث لي. وبالرغم من أن الجو كان حاراً إلا أني طوال الوقت كنت أشعر بالبرد من شدة خوفي. أصبت بعطش كبير، تماماً كما حصل معي أثناء ترحيلي في عربة القطار. حين اقتربنا من المدينة، أدركت أن أمي سلكت ذات الطريق قبل مدة قصيرة. بدأت أصلي كي يضعوني في ذات السجن الذي سيسجنونها فيه.

لم نتوقف في الساحة، بل في أحد الشوارع الفرعية. دخلنا إلى بناء صغير اختفت فيه بعض المكاتب الصغيرة. جهزوا لي الشاي. وتصرفوا معي بأدب طوال الوقت. تركوني أتحدث وحدي كيف كان الأمر في نهاية الحرب مع "ألكسي". سألوني في النهاية كيف عرفت أمي بزياراته. أخبرتهم بأني في الحقيقة لا أعرف، وكنت أظن أنها لم تتوقع حضوره. حين أخبروني بانتهاء الاستجواب، شعرت بالفرج. جهزت نفسي ـ إذا كان بإمكان الإنسان أن يستعد ـ للحظة التي سوف يصرخون بها في وجهي أو ربما يضربونني. شرحوا لي في النهاية بأن تلك الشهادة سوف تستخدم في المحاكمة، ولست مضطرة للذهاب إلى هناك، وحسب زعمهم، الرفاق السوفييت يرغب في أن تتم الأمور بهذا الشكل.

لم ينطق الرجل الذي نقلني بالسيارة إلى البيت بكلمة واحدة أثناء الرحلة، إلا أنه هز رأسه حين اقتربنا من "زالسنا بوروبا" وقال:

ـ دعيني أخبرك أيتها الآنسة بأني من الكوادر الموثوقة، ولكن، أن أرسل أمي بهذا الشكل إلى السجن... فهذا فوق طاقتي. دعيني أنزل لك قبعتي احتراماً. هذا يمكن أن يفعله مواطن صادق بحبه للاتحاد السوفيتي. عليهم أن يكتبوا عنك في الصحف.

لا أعرف إذا كان هذا كله مصادفة أم أنه كان أمراً مدبراً من قبل، ولكن ما قاله رجل الأمن حدث بعد مدة قصيرة بالفعل. طلبوني في أحد أيام الصيف الحارة للحضور إلى مكتب رئيس الجمعية. قرعت الباب، وفتحته قليلاً، ولكني حين لمحت الرئيس جالساً وبيده كأس شراب برفقة شاب لا أعرفه، انسحبت متراجعة في الحال.

ـ انتظري، "سوزكا"! ـ صرخ الرئيس.

استغربت نداءه، لأني لم أسمعه من قبل يدعوني باسمي، توقفت في مكاني. دعاني الرئيس للدخول وصب لي كأساً.

ـ الرفيق الشاب صحفي من براغ ـ وضحَ الرئيس.

ـ "بتر روناي ـ عرف الشاب بنفسه، ومد لي يده.

ـ الرفيق "روناي" بصدد كتابة تحقيق صحفي عن التعاونيات في الأماكن الموجودة على سفوح الجبال. وعندنا ـ هنا شرح للصحفي وليس لي ـ الأرض ليست خصبة، والطقس لا يمكن توقعه، ومع ذلك توصلنا إلى نتائج تليق بالجمعية، ويمكن أن يحسدنا عليها "جيتني أوستروف([19])".

مَسَدَ الصحفي شاربيه وأومأ برأسه دليلاً على اعترافه.

ـ الرفيق "روناي" يريد... ـ بدأ الرئيس من جديد.

ـ رغبت تعريف الناس على شباب وشابات الجمعيات أثناء عملهم اليومي - تابع الصحفي. ـ ستكونين إحداهن، هل توافقين؟

تمعنت في وجه الأول ومن ثم في وجه الثاني. ابتسما، وشجعاني. هل جُنا؟ كيف يمكنهم الكتابة عني في الصحف الشيوعية؟ هل نسي الرئيس أني كنت سجينة في معسكر روسي؟

ـ تعرفون، بدأت حديثي بعد ذلك ـ إنني على ما أعتقد لست الشخص الملائم... لست الكادر الصحيح لذلك السبق الصحفي.

ـ كيف لا؟ ـ ضحك الصحفي. ـ لقد أثبت حضوراً في عملك مع الأبقار القديمة، ولهذا السبب نقلك الرفيق رئيس الجمعية إلى عمل أكثر مسؤولية مع العجول. أليس كذلك؟

رفعت كتفي فحسب في حين أومأ رئيس الحمعية برأسه وأضاف سبباً جديداً لقراره:

ـ لقد زكّاك الرفيق "شفيكروها" عن الحزب وعن اتحاد الشبيبة.

التفت إليه الصحفي وقال له:

ـ لوسمحتم أيها الرفيق الرئيس...

ـ آها! سأترككما كي تتمكنا من العمل بروية.

أكمل الرئيس شرب كأسه بسرعة، وخرج من الغرفة.

سألني الصحفي عن أشياء سخيفة في البداية. في أي ساعة أباشر في الصباح العمل في الزريبة، وأي علف أستخدم في إطعام العجول، وهل أعطيتهم أسماء، وهل رفعوك بقرونهم. لم أعرف كيف يمكنه كتابة تحقيق استناداً على معلومات بهذا الشكل، ولكنه غَيَر بعد ذلك الموضوع بذكاء ودون أن أشعر، وبدأ يتحدث عن نفسه. أخبرني أنه أنهى دراسته الجامعية عن بعد لأن الدراسة أثناء الخدمة العسكرية كانت شبه مستحيلة. تحدث كيف تخفى من الألمان في أحد الأقبية. حين سألني كيف أمضيت فترة الحرب، تذكرت كلام رجل الأمن الذي نقلني بالسيارة إلى البيت. أدركت أن الصحفي الجالس أمامي يريد كتابة مقال عن المرأة التي وشت بأمها.

ـ إن ذكرياتي عن الحرب وما دار من حولها كانت مؤلمة للغاية، وأنا بالتأكيد لا أريد الخوض في الحديث عنها ـ قلت له بشكل حاسم.

فقد الرفيق من جريدة البرافدا براعة الكلام:

ـ بالطبع حدثت أشياء... سببها سوء التفاهم والأخطاء... ولكني ظننت أنك قد خرجت منها سالمة...

ـ لقد فقدت ثماني سنوات من عمري، وفقدت خطيبي، وطفلي، وحتى أمي فقدتها. لا يمكنني التحدث عن هذه الأشياء!

هرعت خارجة من المكتب. وحين وصلت إلى الزريبة،أغلقت الباب خلفي لأمنعهما من اللحاق بي، ولكنهما حتى لم يحاولا.

تغير موقف الرئيس مني منذ تلك اللحظة. لم ينادني بـ "سوزانا" بعد ذلك. بدأ يشك في أفعالي، ويراقبني في العمل، وأصبح يتردد أكثر على الحظيرة، وينبهني أكثر على الأخطاء في حين كان يأتي رئيس الفرقة الحزبية ورئيس اتحاد الشبيبة "ميشو شفيكروها" ويتحدث معي عن منحي الفرصة. جلب لي نسخة من جريدة البرافدا التي نشرت مقالاً من نصف صفحة عن محاكمة أمي. كتبه الصحفي نفسه الذي التقيته في الجمعية منذ مدة قريبة. عرفت من هذا المقال أنه تم الحكم على أمي بثلاثين سنة سجن. لا أعرف ما إذا

كان بوسعي تصديق المقال، لأن كل شيء فيه، ماعدا اسم "سوزانا لاوكوفا" وقرية "زالسنا بوروبا" كان مخالفاً للحقيقة. لم يتطرق المقال إلى ذكري على الإطلاق.

لم أكن أعرف نوع العمل الذي يقوم به "ميشو شفيكروها" في الجمعية. ربما لا يعمل شيئاً. كان عضواً متفرغاً في ك إس تشي([20]) و، تشي إس إم، ولديه بالطبع ما يكفي من الوقت كي يتردد على الحظيرة يومياً. غالباً ما كان يجلس على الطنجرة المقلوبة في مكان قريب مني ويبدأ الحديث عن واجبات أعضاء الاتحاد في الجمعية: تحضير البرنامج الثقافي، تزيين المبنى، المشاركة في الرحلات إلى "ممرات دوكلا"([21]). تلك كانت واجباتهم. حين جاءت أمطار أوكتوبر، أصبح "ميشو" يتردد أكثر على الزريبة.

أخبرني أنه على الأغلب سيسافر في السنة القادمة إلى براغ ليشارك في مؤتمر تشي إس إم، ولكنه تجمد في مكانه فجأة وقال:

ـ ياإلهي الرحيم، إنها "زيس 110"

تطلعت إلى المكان الذي كان ينظر إليه. رأيت من خلال بوابة الحظيرة المفتوحة كيف كان رئيس الجمعية يركض في الوحل السميك أمام سيارة كبيرة سوداء. خفت في البداية حين رأيت تعابير وجه الرئيس، وظننت أن السيارة تلاحقه، ولكني فهمت بعد ذلك أنه يوجه السائق إلى الطريق الصحيح. توقفت السيارة مباشرة أمام الحظيرة.

ـ إنها ليموزينة ستالين، ـ قال "ميشو" مندهشاً.

حين خرج السائق من السيارة، تراجعتُ دون شعور خطوة إلى الوراء. كان يرتدي بدلة رسمية، عرفتها من المعسكر. فتح الباب الخلفي الذي ظهرت منه "ليديا تروفيموفا"، ونزل وراءها... في اللحظة الأولى لم أتعرف على ابني. كان أطول بكثير مما عرفته، حتى إن وجنتيه كانتا أكثر ضخامة. هرعت بسرعة باتجاهه. وقف هناك ممسكاً بيد ليديا تروفيموفا". ضممته إلى صدري بقوة حتى شعرت أنه يحاول دفعي. أرخيت يدي قليلاً كي أتمكن من رؤيته بشكل أفضل. زاغ كل شيء أمام بصري وفي رأسي. رأيت فوق قميص "الكسي" الأبيض من خلال معطفه المفتوح فولار الطلائع الأحمر المعقود حول الرقبة، وتذكرت في الحال "آنا" التي قالت قبل ولادته إنه لن يكون بلشفياً. أعتقد أني في حينها ضحكت من كل قلبي. حدقت بعد ذلك في عيني ابني اللتين بدتا لي حزينتين..

ـ لا تخف، أصبحت عندي، همست.

ضم ابني شفتيه وآمال رأسه بسبب البكاء المكبوت.

ـ يا خاتشو إيديت دوموي (أريد الذهاب إلى وطني)، ـ قال.

ـ أنت هنا في وطنك،- طمأنته.

ـ لا ـ وبدأ بالبكاء.

كنت سعيدة ومشوشة في ذات الوقت. حتى أني لم أعرف ما إذا كنت شكرت "ليديا تروفيموفا"، ما أتذكره هو كيف مدت لي يدها، وتحدثت لوقت طويل، وكنت أثناء ذلك أهز رأسي فحسب. قال لي الرئيس بعد ذلك أن أذهب مع الصبي إلى البيت. لست متأكدة من رؤيتي لـ "ميشو شفيكروها" وهو يحاول الصعود إلى تلك السيارة الكبيرة، في حين وقف السائق صاحب البزة الرسمية في طريقه، ولكني ربما أتخيل.

وجدت قدميّ دون أي تفكير مسبق تسوقانني بشكل أوتوماتيكي باتجاه قبر والد "ألكسي". أمسكت بقوة يد ابني الذي مشي معي مستسلماً ونحن نصعد إلى القرية وبعد ذلك إلى سفح التلة الرطب. كنت أحدثه طوال الطريق عن حبي له، وعن سعادتي التي لا توصف لأنه بجانبي من جديد. لزم الصمت، ولكنه كان يمخط بصوت قوي. توقفنا عند النصب التذكاري.

ـ هنا يرقد والدك ـ قرفصت أمام ابني.

توسعت حدقات عينيه من الفضول. تطلع بانتباه شديد إلى النجمة الحمراء، وإلى الأحرف الذهبية، ومرر أصابعه بعد ذلك بحذر فوق السطح المصنوع من المرمر.

ـ كان من الأنصار، وأطلق عليه الفاشيست النار ـ قلت.

ـ أبي، من الأنصار، ـ همس "ألكسي".

أومأ بعد ذلك برأسه موافقاً، أو ربما أراد التعبير عن السعادة التي شعر بها.

كادروفي بروفيل (السيرة الذاتية، وتشمل كل شيء يتعلق بنشاط الفرد، ولا سيما أصوله الطبقية وعلاقته بالحزب)

كانت المدرسة الموجودة في "زالسنا بوروبا" تتألف من أربعة صفوف ابتدائية، وكان الطلاب الأكبر سناً يسافرون يومياً إلى القرية المجاورة، أو إلى "لفوتشي". قبلوا "ألكسي" في الصف الثاني. أصيبت الرفيقة المدرسة الشابة بالدهشة حين عرفت أن صفها سوف يستقبل صبياً من الاتحاد السوفيتي، لا يعرف الكتابة ولا القراءة بالسلوفاكية، ولكنه يجلس مع ذلك في المقعد وحول رقبته فولار الطلائع، بينما يتسلم الطلاب ذلك الفولار في الصف الثالث. كانت تعامله بوصفه ضيفاً مُوّصى به. سألته مباشرة في الحصة الأولى عما إذا كان يرغب في إلقاء نص شعري سوفيتي أمام زملائه. قرأ "الكسي" عليهم مقتطفات من قصيدة "بافليك موروزوف".

ـ الوالد، كلمة غالية، تحمل في طياتها الرقة، والقسوة. يَصعبُ تحت سقف الأب، حيث يوجد أخوة صغار وأم، وحين لا يكون هناك، أن تنادي والدك...

الأولاد بالطبع لم يفهموا شيئاً إلا أن المدرسة فهمت، وعرفت أن ذلك الطفل سوف يساعدها في تحسين سيرتها الذاتية (كادروفي بروفيل). كتبت المدرسة لي في الحال رسالة عبرت فيها عن رغبتها في تحضير "ألكسي" للاشتراك في مسابقة الإلقاء لعموم الجمهورية. الرابحون، حسب رسالتها، يتسلمون جوائز قيمة.

ـ وعدتني الرفيقة المدرسة بالذهاب إلى "أرتك" إذا ألقيت بشكل جيد ـ قال لي ابني وقد غمره الفرح.

ـ ماذا تقول؟

صرخت. لا أظن أنها قالت ذلك!

كلمة "أرتك" أيقظت في نفسي أبشع الذكريات.

ـ هذا ما قالته! ـ انزعج "ألكسي".

هرعت في صبيحة اليوم التالي إلى المدرسة وقد أهلكني الخوف لأعرف ما تقصده المدرسة.

أبلغتني المدرسة في البداية أنها فكرت بالأمر، وتعرف كيف عليها أن تتابع الأمر مع "ألكسي" الذي سوف يتعلم قواعد السلوفاكية مع الكتابة بطريقة لطيفة تشبه اللعب. طمأنتني وطلبت مني ألا أتعب نفسي.

خوفي لم يكن له علاقة بدراسة السلوفاكية، ولكن من "أرتك".

ـ أريد أن أسألك عن مسابقة الإلقاء بالروسية... ـ بدأتْ.

ـ أخ، نعم! تفتحت عينيها. ـ أرغب في إيصال ابنك إلى المرحلة النهائية من المسابقة على مستوى الجمهورية. أطفال صغار مثله عندنا لا يتعلمون الروسية، وهذا يعود عليه بفائدة كبيرة.

ـ وإذا ساعده الحظ وربح؟

ـ يمكنه الذهاب إلى "أرتك"!

ـ وكيف.. وماذا تقصدين؟

ـ لا أظن أنك تخافين من إرساله وحده؟

ـ إنني... ماذا يكون "أرتك"؟

ـ ولكن... ظننت أنك عشت في الاتحاد السوفيتي...

ـ نعِم، عشت، ولكنها بلاد شاسعة.

ـ "أرتك" عبارة عن معسكر كبير للطلائع على البحر الأسود.أكبر معسكر للأطفال في العالم، حتى في أمريكا لايوجد له مثيل.

ـ "أرتك" هو معسكر للطلائع؟

ـ نعم، وماذا كنت تظنينه؟

ـ كنت أظن كل تلك السنوات بأن هذه الكلمة لها معنى آخر.

ـ "أرتك" إتو بيونيرسكي لاجر (معسكر للطلائع)، ـ استخدمت المدرسة روسيتها. ـ هل يمكنني أن أبدأ مع الصبي؟

ـ بالطبع، يمكنك... علماً أني لن أتركه يسافر إلى "سايوز" حتى لو ربح المسابقة.

ـ لا؟ وأنا حقيقة سمعت من الناس بأنك عشت في الاتحاد السوفيتي...

ـ لم يمسكوا بالثعلب بعدُ، ولكنهم يتقاتلون على جلده. دعينا لا نتناقش فيما سيحدث، وإلى أن يربح "ألكسي"، لا زال أمامنا وقت طويل ـ أنهيت نقاشنا بتلك الجملة.

لم يحب "ألكسي" المدرسة. كان الأولاد يسخرون منه لأنه يلفظ بطريقة مختلفة، حتى إن بعض الأطفال كانوا يشتمون أمامه البلشفيك الروس بالرغم من تنبيه الأهل لهم إلى وجود طفل روسي بينهم. إلقاء شعر "بافليك موروزوف" كان أحد الأشياء الصغيرة التي أشعرته بالسعادة. لقد ذكرته بالماضي وبالتحديد بـ "إرينا". أخيراً، لم يكن ذلك منذ وقت طويل، حين كنت أتضرع لربي طالبه منه أن يجعل "إرينا" تحبه، ولهذا لا يمكنني أن أتوقع أنه سوف ينساها بهذه السهولة. وبالرغم من أنه لم يتحدث عنها إطلاقاً إلا أنني كنت أعرف بأنه يتذكرها، ولا سيما حين أخذ عليّ وهو منزعج بأنه كان يملك كلباً هناك، وهذا يعني عندها.

ـ وهنا أيضاً يمكنك أن تقتني كلباً، ـ وعدته في النهاية وكان ذلك مخالفاً لإرادتي.

ـ متى؟

ـ حين ستصبح أكبر، حتى تتمكن من العناية به.

ـ إنني أريده الآن، وحالاً!

ـ من أين أحضره لك؟ هل تريدني أن أخرجه من تحت الأرض؟

أكد لي الحوار مع المدرسة أن مجيء "ألكسي" رفع من مكانتي الخاصة في القريِة. لم يعودوا ينظرِون إليّ كإنسانِة عائدة من المعسكر، كماِ إن قسماً

كبيراً من الذين كانوا يرأفون لحالي أصبحوا الآن يتحاشونني تماماً، في حين أصبحت بالمقابل عند القسم الآخر مواطنة صالحة متعاونة مع السفارة السوفيتية. وربما في نهاية الأمر جاسوستهم كما خططت أمي. الناس قبل ذلك كانوا يتهربون مني، لأن الاتصال معي يمكن أن يعرضهم للشبهة، والآن أصبحوا يتحاشونني بسبب خوفهم مني. كنت أسبب القرف للمحترمين منهم: الإنسانة التي وشت بأمها.

هذا ما أكده لي "شفيكروها" حين كان يتسكع حولي في زريبة العجول. بدأ حديثه بشكل غير مباشر، قائلاً بأنه يستغرب كيف أصبحنا قريبين أحدنا من الآخر، وحسب زعمه أصبحت عنده مكان ثقة أكثر من أعضاء الحزب مما أشعرني بأنه يحاول إغوائي، ولكنه كان يُخفي شيئاً آخر وراء كلامه.

ـ أريد أن أسألك عن شيء لا أريد أن يعرفه إنسان غيرنا ـ بدا خجولاً ـ ما الذي كنت تفعلينه في الاتحاد السوفيتي؟

نظرت إليه، ولكني لم أرد على سؤاله.

بدأ "ميشو" بالاعتذار:

ـ ظن البعض في البداية أنك كنت هناك في السجن. ولكنك بعد ذلك بدأت تسافرين إلى السفارة السوفيتية، واتصلت هاتفياً عدة مرات... إذاً...هذا ما سمعته من أحدهم. ومن أين لي أن أعرف، إذا كان الأمر لا يهمني... ولكنهم في النهاية أحضروا إليك ابنك في سيارة الليموزين السوداء! أخبريني ماذا يمكنني أن أخمن؟

ـ "ميشو" ـ كانت المرة الأولى التي أخاطبه فيها باسمه. ـ أقسم لك أني مباشرة بعد عودتي إلى تشيكوسلوفاكيا، وقعت على إقرار بأني لن أتحدث إلى أحد عن إقامتي في "سايوز". صدقني، ولا تسألني بعد ذلك لأنك بذلك ستوصلني إلى التهلكة.

أومأ "ميشو" براسه متفهماً، ثم مد لي يده بطريقة رسمية، وغادر وهو لا يزال يومئ برأسه.

كنت أعرف من المعسكر أنه حين يجد الإنسان نفسه في وضع مناسب، عليه أن يستغل الظرف إلى أقصى الحدود، وبأسرع وقت ممكن، لأن كل شيء يمكن أن يتغير بسرعة. كنت أرغب في شيء واحد فحسب، وهو أن يضعوا على نصب والد "ألكسي" اسمه الحقيقي بدلاً من عبارة الجندي السوفيتي المجهول. ذهبت لزيارة رئيس إم إن ف(22) "شيشكا " الذي وعدني بأنه سوف يقوم بكتابة الاسم في السادس والعشرين من كانون الأول الموافق للذكرى التاسعة لموت "ألكسي" حيث سينظم حفل خاص

لذكراه. كان يخشى أمراَ واحداَ وهو أن ذلك التاريخ يتزامن مع عيد القديس "شتيفان"، وهو يوم مقدس بالنسبة للكنيسة، والناس

سوف يرفضون المجيء للاحتفال.

ـ سوف أعتبره النشاط الأول ـ أكد على تلك النقطة.

ـ "شتيفان" كان شهيداً، وألكسي هو أيضاً شهيد. يمكنكم أن تدمجوا الحفلين وأن تدعوا الكاهن أيضاً، سيكون أفضل لو دعيتم الكاهن الأرثوذكسي لإجراء قداس أرثوذكسي، اقترحت عليه.

ضحك رئيس مجلس المدينة:

ـ لا بد أنك أصبت بالجنون!

# سترانجولاتيو

## (باللاتينية الطبية تعني: الخنق، الإعدام)

تسلمت وثيقة وفاة والدتي في يوم الثلاثاء، الثالث من تشرين الثاني. خرجت من العمل، وتوجهت إلى البيت أثناء الدوام كي أُحضر طعام الغداء. كان من المفروض أن يصل "ألكسي" من المدرسة خلال لحظات، ولهذا حين سمعت صرير البوابة، ظننت أنه قد وصل، ولكني سمعت بعد ذلك قرعاً على الباب. التفتُّ إلى الخلف. وقفت خلف النافذة ساعية البريد التي حملت لي رسالة مسجلة. حين فتحت المغلف، رأيت ختم قسم إصلاحية النساء في "باردوبتسي"، خطر ببالي أن والدتي لم تتحمل، وقررت الكتابة. عبرت في ذهني فكرة عدم الرد عليها.

احتوت الرسالة على ورقتين رسميتين.كتب في الأولى بقلم الحبر وبخط سيء.

نحيطكم علماً أنه في 1953.10.28 توفي قريبكم / قريبتكم / سوزانا لاوكوفا المولود / المولودة /...

شعرت بغمامة سوداء تغطي عيني مما جعلني أستعين بيدي كي أتلمس المقعد. كان بالتأكيد في مكان ما. حين وجدته وجلست ووضعت جبيني على الطاولة. بقيت فترة في تلك الحالة إلى أن انجلت تلك السحابة من عيني. أحسست أن تفكيري قد تفتح، كما أدركت بالتدريج كيف أني أخطأت قبل ذلك. كنت طوال الوقت أركز تفكيري على كيفية استرجاع "ألكسي". ظننت أني سأدرس جميع الاحتمالات، وأختار أفضلها. ولكني نسيت أثناء ذلك إمكان حدوث ما حصل في النهاية. لقد ماتت أمي في السجن. كان ذلك الاحتمال الأسوأ الذي لم يخطر ببالي على الإطلاق. لقد غاب تماماً عن تفكيري، ووجدت نفسي الآن غير مهيأة لتلقي ذلك الخبر. كنت قبل ذلك وعلى مدى أشهر أفكر بما عليّ فعله حين تعود أمي إلى البيت. هل أنتقل مع ابني أم أتصالح معها. كنت الإنسانة التي يمكنها أن تحكم في القضية. ولكن أمي ماتت، ووقع ذلك الحمل الكبير الذي سببه موتها فوق رأسي. طالما كانت أمي على قيد الحياة فهي المذنبة، ولكن من الآن فصاعداً أصبحت أنا المذنبة، وسأبقاها حتى موتي.

نطالبكم إعلامنا إذا كنتم تريدون تحضير مراسم الدفن بأنفسكم أم تريدون أن نقوم به في مركزنا. أعلمونا بقراركم حتى 1953.11.2 على أبعد تقدير. إذا

لم تخبرونا بقراركم...

وصلت الرسالة في الثالث من الشهر، ولهذا كان الوقت قد تأخر على طلب نقل أمي إلى "زالسنا بروبا". دفنوها في "باردوبتسي". كتبت في الوثيقة قائمة المدفوعات: التشريح (500 كرون)، الجنازة ( 3860 كرون) إضافة إلى تفاصيل جميع المدفوعات. تلك عليّ تسديدها. في أسفل الورقة كان توقيع رئيس مركز الإصلاحية.

الورقة الثانية كانت ورقة النعي التي دون فيها سبب الوفاة إضافة إلى اسم أمي وكنيتها وتاريخ ولادتها، ومكان وتاريخ موتها.

ـ سترانكولاتسي، ـ قرأت تلك الكلمة بصوت مرتفع، وكأني بذلك سأفهم المعنى بشكل أفضل.

ـ ما هذه الرائحة البشعة؟ أجابني من الباب صوت "ألكسي".

أدركت في تلك اللحظة أن الأكل قد احترق في المقلاة. نهضت من مكاني وسكبت الماء.

لم يعجبه الطعام المحروق. كان يضع الملعقة جانباً بعد كل لقمة، ويعلكها ببطء شديد. أنهى طعامه بعد فترة طويلة وبصعوبة كبيرة، ومع ذلك ترك نصف الصحن. تناول بعد الغداء ورقة وبدأ يرسم مشهداً قتالياً كما في كل مرة. احتل الجيش الأحمر أحد الخنادق التي اختبأ فيها الفاشست. كان العلم الذي رُسم عليه الصليب المعكوف يحترق، والدم يسرح من رؤوس ومؤخرات الجنود الألمان. منظر ذلك النهر الأحمر جعلني أشعر بالإقياء. فضلت إدارة رأسي.

ـ لقد تلقيت اليوم خبراً رهيباً ـ بدأت الحديث.

رفع "ألكسي" رأسه عن ورقة الرسم، وتطلع إليّ بفضول.

ـ لقد ماتت أمي ـ تنهدت.

رغبت تذكير الصبي بأنها جدته، ولكن دملة في حلقي منعتني من قول تلك الكلمات.

ـ هل كنت تحبينها؟ سألني بعد لحظات.

كان ذلك أصعب سؤال يمكن أن يطرحه عليّ. كنت أشعر في الأشهر الماضية بكره شديد لأمي إلا أن ذلك الشعور بدأ ينحسر إلى أن توقف، وبالرغم من كل ما حدث لا زلت أحبها.

ـ كنت أتمنى لقاءها ولو حتى لحظة قصيرة ـ أجبته في النهاية.

ـ وأنا أيضاً لا يمكنني لقاء أمي. تبدو لي وكأنها ميتة، وعندها أيضاً أنا ميت.

قال "ألكسي"وهو يحني رأسه فوق الصورة.

توقفت في الكنيسة وأنا في طريقي في المساء إلى الجمعية. كان القس جالساً في صومعة الاعتراف. اقترب أول يوم جمعة في الشهر.

ـ لم آت للاعتراف، أيها السيد الجليل. تسلمت رسالة. سحبت الوثيقة المطوية من كتاب صلواتي الممزق. أريد سؤالك عن معنى كلمة "سترانكولاتسي" فحسب؟

ـ هيا بنا إلى غرفة القداسة، اقترح.

قرأ القس الوثيقة التي وصلتني من السجن.

ـ هل حكموا عليها بالإعدام؟ سألني.

ـ لا! لقد حكمت بثلاثين سنة سجن.

عض القس شفتيه، وأومأ برأسه:

ـ لقد انتحرت، شنقت نفسها.

أحسست من جديد بدوار مفاجئ، وضباب يغطي عيني. بدا ذلك واضحاً من منظري، لذا أمسكني القس من كتفي، واقتادني إلى الكنبة. تمكنت بصعوبة من السير بضع خطوات. أحسست بمسؤوليتي المباشره عن موت المنتحرة. لقد تجرعت مجبرة كأس المرارة حتى القاع، وأصبحت مسؤوليتي في النهاية أكبر مما كنت أظن. يمكن القول أني اندفعت خلف أمومتي عبر الجثث. عبر جثة أمي.

ـ سوف أنظم قداساً على روحها ـ حاول القس تهدئتي.

ـ وهل هذا... مسموح؟ سألته ساخرة بعد قليل.

ـ حياة الإنسان هدية ربانية، ومن يتجاهل الرب، ويحطم حياته أو حياة الآخرين فإنه يستحق الإدانة. ولكن علينا أن نصلي عن ذلك الذي يريد الحياة ولكنه لا يتمكن من الاستمرار فيها، وعن ذاك الذي يتسبب في إنهاء الحياة لأنه لا يجد أمامه حلاً آخر. الرب هو الحكم، وهو العادل والرحيم، والقادر على كل شيء. إنه يراقب قلوبنا ويقرأ أفكارنا، ويعرف ما يدور في أذهاننا. إذا لم نفكر بهذا الشكل فلا معنى لإيماننا. لقد فقدت أمك الأمل، ولكن عليك أن تحافظي عليه.

لم يكن بوسعي المحافظة على الأمل لأنه أصلاً لم يعد موجوداً عندي. الشيء الرهيب هو أني أحسست من اللحظة التي علمت فيها بانتحار أمي بنوع غريب وغير محدد من الكراهية لها، بدأ يعشعش في عقلي.. كان شعوراً لم أجد في نفسي القوة لإيقافه. صوت ظلامي، جعل يدور في رأسي

ويهمس بأن أمي فعلت ما فعلته كي تحطمني. لقد وجهت لي ضربتها القاضية التي لم يعد بمقدوري الرد عليها. لقد تغلبت عليّ بفعلتها تلك لأنها لم تمنحني فرصة مسامحتها.

انتشر في القرية خبر موت أمي خلال أسابيع، ولكن الناس لم يفهموا أيضاً ما تعنيه كلمة "سترانكولاتسي". سألتني العاملات مع الدواجن عما إذا كانت قد سممت نفسها." ميشو شفيكروها" كان فضولياً أيضاً، وأراد معرفة الأداة التي استخدمتها أمي في قطع شرايينها. حين بدأ يخفف عني قائلاً بأن متعاونة مثلها لا تستحق شيئاً آخر، وجهت نحوه المذراة. كان ذلك كافياً ليفهم الشيوعيون بشكل نهائي أنه لا يمكنهم منذ الآن اعتباري رفيقتهم.

# كو هين اودي جوفلي؟

## (بالغجرية: من تكون هذه المرأة؟)

كنت وحيدة، ومُحاصرة، ويمكن القول مشحونة بالكراهية من رأسي حتى كاحلي، ومن جذور شعر رأسي حتى نهاية أصابع قدمي. لقد ازدراني سكان القرية. وخيبتُ ظن الشيوعيين الذين يستعدون الآن للأخذ بالثأر. حتى "ألكسي" حافظ على مسافة بيني وبينه، والتزم الهدوء مع قليل من اللوم. الندبات الموجودة على أصابعي التي أحب في الماضي تمرير أصابعه عليها أصبحت تشعره بالقرف. وبالرغم من أنه لم يفصح عن شعوره هذا، إلا أني تأكدت بأنه يعتبرني بديلاً غير موفق عن "إرينا"، والسبب المباشر الذي يفرقه عنها، ولهذا ربما لم يتوقف عن رسم المشاهد القتالية التي تصور الجنود السوفييت، وهم يقتلون الأعداء. كان يحلم عن طريق الرسومات بمجيء ضابط ضخمة ببذتها السوفيتية الرسمية لتحريره.

توقفت المُدرسة عن تدريبه على إلقاء شعر "ستيباتشوف"، وحسب زعمها أنه صغير جداً مقارنة مع فئة الأطفال الذين سيشاركون في مسابقة الإلقاء. ربما يكونون قد نبهوها أنه ليس من المستحب أن يصعد إلى المنصة طفل بتلك الخلفية الغامضة.

جلست بالقرب من طاولة المطبخ أمام ابني، وبين يدي كتاب الصلوات دون معرفة الشيء الذي سأصلي من أجله. تخليت عن الصلوات على روح أمي التي كنت أشعر نحوها بالكراهية، ولكني رجوت الرب أن يسكب في قلب ابني مزيداً من الحب نحوي، وبالرغم من ذلك وجدت نفسي غاضبة من أمي، ومن ابني، ومن الرب أيضاً.

قمت بتزيين الشجرة قبل أسبوع من عيد الميلاد. وكل ذلك لأن أمي لم تسمح لي حين كنت صغيرة، ولم تأخذ رأيي بعين الاعتبار، كي تُحضر الشجرة ولو يوماً واحداً قبل عشاء الكرم.

جلسنا تحت الشجرة في الثالث والعشرين من كانون الأول. كان الكسي يضع فولار الطلائع حول رقبته حين أخبرته بأن أعياد الميلاد تعتبر أكبر الأعياد، وكنت أثناء ذلك أمسك بيدي كتاب الصلوات وأفكاري سارحة في أماكن لا أحد يعرف عنها شيئاً.سمعت فجأة قرعاً قوياً تبعه فتح سريع للباب. دخل "شيشكا" رئيس إم إن ف. دون تحية.

ـ تست براتسي! ألقى "ألكسي" عليه التحية.

تفحص "شيشكا" الصبي بصرامة. ثم التفت إليّ، وكأنه ينتظر أن أحييه بذات الطريقة.

ـ لم تغلقوا الباب، هناك تيار هواء ـ قلت له.

ابتسم "شيشكا" ساخراً:

ـ تيار هواء، أنت لم ترَّ شيئاً بعد، هذه هي البداية، لأن التيار سوف يسحب معه أحدهم!

فك أزرار معطفه، وأخرج مغلفاً من الجيب الداخلي. فتحه وسحب منه ببطء ورقة، وضعها على الطاولة.

ـ تطبيقاً للحكم رقم مئة وثمانية الصادر في الخامس والعشرين من تشرين أول لعام 1945 ـ كان يخطب ـ المتعلق بمصادرة أملاك الأعداء لصالح الصندوق الوطني، قررت المحكمة مصادرة جميع الأملاك المنقولة وغير المنقوله... دون أي تعويض ـ كان عليه أن يتطلع في الورقة لأنه نسي التالي ـ العائدة للأشخاص الذين مارسوا نشاطاً معادياً للدولة وسيادتها، ووحدتها وضد النظام الديمقراطي ـ الشعبي لجمهورية تشيكوسلوفاكيا.

ـ لا أفهمك على الإطلاق ـ قلت له بالرغم من أني توقعت ما سوف أفهمه منه لاحقاً.

حاول "شيشكا" الحفاظ على رسمية تعابيره:

ـ البيت الذي تسكنين فيه يعتبر من الأملاك غير المنقولة، وهو عائد لشخصية اعتبارية تعاونت مع العدو. لهذا السبب اتُخذ القرار بمصادرته، وتخصيصه.... ألقى نظرة على الورقة، لـ "ديزيدر شتشوك"مع زوجته "يولانا" وبقية أفراد عائلته.

دفع "شيشكا" الورقة على الطاولة باتجاهي، ثم استدار وتطلع إلى الخارج من وراء الباب.

ـ الرفيق "شتشوك"، الرفيقة "شتشوكوفا"، تفضلا بالدخول واستلام الملكية الثابتة. إنني أسلمكم إياها بسعادة!

دخل الغجري الضخم إلى المطبخ وهو يرفع قبعته عن رأسه ثم لحقت به الغجرية برفقة عدد من الأطفال.

ـ مساء الخير أيتها السيدة!

ألقى الغجري التحية.

ـ كو هيم أودي دجوفلي؟ سألته الغجرية بصوت منخفض.

تطلعا باتجاهي مندهشين.

ـ اسمعني أيها الرفيق الرئيس ـ نهضتُ واقفة ـ إنني أسكن هنا الآن مع ابني، وأنا لست متعاونة! لذا ضع ورقتك تلك خلف طاقيتك، واخرج من البيت.

برزت عينا "شيشكا" من وجهه من شدة غضبه. لم يجدث أن رد عليه إنسان بتلك الطريقة. تحدث بهدوء وثقة، وكان متأكداً من سلطته:

ـ تلك الذي تسمينها ورقة هي قرار رسمي. لا أناشدك أن تفرحي بمضمونها، ولكني أطلب منك احترام ما جاء فيها. إنها في ذات الوقت آخر دعوة لك من قبلي، وإلا سأجد نفسي مضطراً لدعوة الجهات الأمنية لتنفيذ ذلك القرار.

ـ وإلى أين أذهب؟ من غير المعقول رمي أم مع طفل في الثامنة من عمره في الطريق وفي ليلة صقيعية في تشيكوسلوفاكيا الديمقراطية الشعبية!

أدار "شيشكا" رأسه معبراً عن سخطه من وقاحتي.

ـ كنت تضحكين علينا أشهر بأن لك أصدقاء في السفارة السوفيتية. حسناً، يمكنك الرجوع إليهم، ولابد أنهم سيعينونك. وإذا لم يفعلوا، يمكننا وضع الطفل في دار الأيتام.

ـ لا أريد الذهاب إلى دار الأيتام...، سأعود إلى الاتحاد السوفيتي، ـ قاطعه ألكسي".

تحدث الغجري الضخم:

ـ لا يمكن تناول الشوربة الكثيفة وهي تغلي، كما يقال. يمكن للسيدة الشابة أن تبقى هنا. عندنا خمسة أطفال، واثنان إضافيان لا يمكنهما إزعاجنا. المكان يتسع للطيبين، ونحن طيبون.

ـ نحن طيبون ـ علقت الغجرية، وأحاطت كتفي بذراعها ـ ستنامين مع الطفل في الغرفة، ونحن سنتدبر أمورنا في المطبخ. لا يمكننا رميكما في البرد؟ لأنكما لن تبقيا حتى الصباح على قيد الحياة.

رفع الرئيس رمانتي كتفيه:

ـ هذا شأنكم، إذا أردتم تركهما في البيت أيها الرفيق "شتشوك".

حين غادر "شيشكا" البيت، جلست على المقعد، ووضعت رأسي بين يدي. تابعتُ الغجرية وهي تفك اللفافة الكبيرة المصنوعة من شرشف السرير، وتخرج منها الأغراض. أحسست بالسعادة من رؤية ذلك العدد من الصحون، وأواني الطبخ في خزانة المطبخ. حين ألقت نظرة على الغرفة فرحت أيضاً من رؤية أغطية الريش. تناقشت بعد ذلك مع زوجها حول طريقة النوم. أحسوا بالخيبة لعدم وجود فرن كبير في البيت حيث يمكنهما وضع الأطفال فوقه. قررت الغجرية بأن على زوجها في الغد تأمينه أو تصنيع سرير. قررا بشكل مؤقت وضع القش في الزاوية.

ـ هل لديكم هنا غرفة لتجميع القش؟ ـ سألتني.

ـ حين وجدتني لا أجاوبها، جلست بجانبي على المقعد، ووضعت ذراعها حوى كتفي.

ـ لا تخافي ـ طمأنتني ـ لو حاول عجوزي في الليل أن يندس تحت لحافك الريشي، اصرخي واتركيه لي لأتدبر أمره.

اقتربت كبرى بنات الغجري من "ألكسي".

ـ أنت طلائعي؟ ما أصغرك ـ سألته.

ـ إنني طلائعي سوفيتي ـ رد عليها "ألكسي".

ـ لاحظ، وأنا أيضاً طلائعية! أخرجت البنت من جيب معطفها منديلاً أحمر مدعوكاً، وربطته حول رقبتها. هل قتل لك الفاشست أحداً أثناء الحرب؟

ـ لقد قتلوا أبي، كان من الأنصار ـ قال لها "ألكسي".

ـ لقد قتلوا جدتي، وجدي ـ قالت البنت.

ـ هل تعرفين التحدث بالروسية؟ ـ سألها "ألكسي".

ـ لا، هل تعلمني؟

ـ لمعت عينا "ألكسي":

ـ بطيب خاطر.

# ديفلا ميرو!

## (يا إلهي، بالغجرية)

ـ ولكن أخبريني كيف احتفظت بالبيت؟ سألتها "لوتسيا".

فكرت العجوز برهة:

ـ اشتريته منهم!

ـ اشتريت بيتك؟ ـ لم تصدق "لوتسيا".

ـ دعينا نعمل ـ أمرتها العجوز بدلاً من الإجابة.

نهضتا من المقعد الموجود في فسحة البيت الأمامية، وسارتا باتجاه شجرة الكرز الموجوده في نهاية الحديقة. لو راقبهما أحد لظن أنه يتابع مهرجا سيرك، حيث كانت كل واحدة منهن تستخدم طريقة مضحكة في المشي. "لوتسي" كانت تتمايل في مشيتها من جهة إلى جهة محاولة إبعاد فخذيها عن بطنها المنفوخ، في حين كانت العجوز تسند نفسها بعكازة لمساعدة طرفها الأيسر.

حتى إن العجوز لاحظت كيف تبدوان:

ـ مشفى، مشفى ميداني ـ تنهدت.

حين توقفتا تحت شجرة الكرز، اتكأتا على السلم وتطلعتا إلى الأعلى. نظرت بعد ذلك إحداهما بوجه الآخرى وضحكتا.

ـ إنك بالتأكيد لن تصعدي! ـ رفعت العجوز إصبعها.

ـ وأنت بحاجة إلى رافعة ـ تابعت "لوتسيا" الضحك.

وضعت العجوز وهي تئن قدمها اليسرى على أول درجة.

ـ تلك التي جف مفصلها، والثانية تقفز وحدها ـ شرحت.

القدم اليمنى صعدت بسهولة واضحة.

ـ والآن اليسرى من جديد.

أمسكت "لوتسيا" بساق العجوز المريضة من تحت الركبة:

ـ سأساعدك بها.

أومأت العجوز برأسها موافقة، ولكنها لم تكن راغبة في الصعود أكثر.

ـ لقد أعاد لي الغجر الرغبة في الحياة ـ بدأت العجوز الحديث.

ـ كانوا نشطاء كثيراً. ذهب "ديجو" منذ الصباح إلى الرئيس وحين لم يجده في المكتب ذهب إلى بيته، وأحضر من عنده كنبة. ثم فَصَّل سريراً عريضاً من الألواح الخشبية للأولاد. بعد الظهيرة كان السرير جاهزاً. ذهب من جديد إلى "شيشكا" وطلب منه مفرشاً، بينما ذهبت "يولانكا" مع الأولاد لإحضار الخشب. قرروا في المساء بناء غرفة جديدة كبيرة بعد اختفاء الثلج. أرادوا الانتقال إليها كي لا يقيدوا حركتي في المطبخ.

جربت العجوز مد يدها إلى الأعلى كي تحسب المسافة التي تفصلها عن أقرب كرزة، ثم قامت بعد ذلك وهي تطلق أنة قوية بصعود درجة أخرى.

ـ تجمعوا في المساء حول الطاولة، وجعلوا ينشدون أغانيهم بلغة الغجر. بداية تلك الممدودة، دفلا ميرووو devla mirooo ـ حاولت العجوز تقليد إحدى النغمات ـ وانطلقوا بعد ذلك في غناء الألحان المتوحشة، دجيلاف، دجيلاف، هوب، هوب هوب!

ـ وماذا حل ببيتك؟سألتها "لوتسيا".

ـ بيتي؟ رسمياً كان بيتهم. إلا أنهم تمسكوا بي. حين توقف الثلج في آذار، باشر "ديجو" حقيقة في البناء ـ أشارت العجوز بإصبعها الروماتيزمي إلى نافذة الغرفة الأمامية ـ ولكنهم لم ينهوها لأنه وجد بعد أسبوع إعلاناً في الصحيفة يشير إلى أن المناجم في "هاندلوفا" بحاجة إلى عمال. هطل المطر بعد ذلك عدة أيام وانتقلوا. ولكنه تمكن خلال تلك المدة من نقل البيت لاسمي. يمكن القول أنهم باعوه لي بثمانية آلاف. أعطيتهم ألفين، ولم يطالبوني بالبقية. كانت لهم قلوب الغجر الرُحَّل، ولم تكن الملكية تعنيهم في شيء. حين غادروا تحولت إلى إنسان آخر. تصالحت مع نفسي. كل ذلك بفضلهم... والآن ناوليني السلة لأن العصافير سوف تنقر الكرز مباشرة أمام عيوننا.

حين انحنت "لوتسيا"، شعرت بألم حاد في حوضها. نهضت لتسلم السلة للعجوز، ولكن الألم بدأ يشتد. اضطرت لعض شفتيها كي لا تصرخ. لم تنتبه لها العجوز. كان يكفيها ما عندها من أمراض في جسمها.

ـ لم أحقد على عائلة "شتشكوف". أخبروني في اليوم الأول أنهم أناس طيبون، وكانوا صادقين في قولهم، كل ما في الأمر أنهم أخذوا ما خصصته لهم الدولة. إذا كنت تسأليني عن رأيي في مصادرة الدولة لبيوت المتعاونين، وتخصيصها للعائلات التي لا يوجد لديها مكان للسكن، أرد عليك بأن ذلك كان تصرفاً صحيحاً. أخيراً، ما عدد الناس الذين يسكنون في مناطق الحدود في البيوت التي كان يسكنها الألمان؟ وكم كانوا سعداء في البيوت التي صودرت

من اليهود؟! لم يخجلوا! ونحن في السجون؟ نحن أيضاَ حين تقدمنا في السن، انتظرنا أين يمكننا أن نستولي... ـ ابتسمت العجوز وهي تتذكر ـ جاءت "يولانكا" مع أكبر بناتها "كريستينكا" لزيارتنا بعد ذلك مرتين. كانت "كريستينكا" عند "ألكسي" بمثابة الحب الأول. كانت تكبره بثلاث سنوات، ولكن قوتها تعادل صبياً في الخامسة عشر من عمره. حين شاهدت الأطفال يسخرون من "ألكسي"، أوقفتهم عند حدهم بسرعة. صرخت بالأول، وصفعت الثاني. أتذكر كيف طلبت منه أن يتوقف عن رسم مشاهد الحرب، وأن بإمكانهما اللعب كالجنود. صنع لهما "ديجو" بعد ذلك بنادق من الخشب، جعلا يركضان بها حول البيت... الآن لا يعرف الأولاد كيف يلعب أحدهم مع الآخر، يجلسون وحيدين في البيت ويستخدمون الحاسوب، وحين يريدون قول شيء، يرسلون إس إم إس، بالهاتف النقال....ولكن ما الذي يدعوني لإخبارك بهذه الأشياء، وأنت لا تسمعيني...

ـ اعذريني أيتها العمة.... أظن أني سأضع الآن، ـ تطلعت "لوتسيا" في العجوز وكان الرعب ظاهراً عليها مما جعلها تُصلّب في الحال.

ـ لا تقفي إذاً هنا! أركضي واتصلي بسيارة الإسعاف.

هرعت "لوتسيا " باتجاه البيت ويداها تكبسان على حوضها.

أرادت تعليق السلة الملأى حتى منتصفها على درجة السلم، ولكنها سقطت من يدها المرتجفة. تدحرجت ثم اختفت حبات الكرز بين العشب الطويل. حتى قصّ العشب كان ضرورياً. تطلعت العجوز نحو الأسفل، وحين تخيلت أن عليها نزول أربع درجات لتصل إلى الأرض، سمعت دقّات قلبها. حاولت تحريك رجلها اليسرى، ولكن تلك خرجت عن طاعتها. لحسن الحظ كانت اليمنى تعمل، نزلت العجوز درجة إلى الأسفل.

ـ عمتي، جاء صوت "لوتسيا" من تحتها ـ هل تعرفين أين موبايلي؟

ـ ابحثي عنه بسرعة! انزعجت العجوز. ـ إنني لم ألمسه حتى.

عادت "لوتسيا" أدراجها، وراحت تبحث عنه من جديد.

ـ انتظري ـ نادت عليها العجوز ـ تذكرت...

ـ أين رأيته آخر مرة؟

ـ قبل البارحة، حين نُمت بعد الظهيرة، اتصلت بابني.

ـ هل استخدمت الموبيل؟

ـ اعذريني!

ـ لا شيء، ولكني مندهشة من حكمتك... ولكن أين وضعته؟

ـ لا أعرف.

ـ تذكري، من أين اتصلت؟

ـ خرجت إلى الحديقة كي لا أوقظك. لابد أني دسسته في جيب مريولي. إنها مثقوبة.

راحت "لوتسيا" تبحث في أرض الحديقة ولكن دون أمل.

ـ إنه إذاً هنا في مكان ما؟ آو ـ زاد ألمها في أسفل ظهرها.

ـ لا تبحثي عنه، اذهبي واطلبي المساعدة.

ـ أين؟

ـ لا أعرف.. ـ فكرت العجوز ـ جميع البيوت هنا في الأعلى مهجورة. ولكن الكوخ الثالث في الناحية الثانية من الطريق ذو السقف القرميدي الرمادي، الذي يملكه زوجان شابان من كوشيتسي". ربما يكونان هناك، وإذا لم يكونا، انزلي إلى القرية.

ـ وأنت ألا تريدين النزول من تلك الكرزة؟ سألتها "لوتسيا".

ـ يا ابنتي العزيزة، أريد بالطبع، ولكن لا يمكنني. إن قدميّ لا يطاوعاني.

ـ إذاً سأطلب سيارتي إسعاف؟! ضحكت "لوتسيا" بشكل هيستريائي، ولكن الألم أوقف ضحكتها في منتصفها.

تمشت ببطء في الشارع الخالي من المارة إلى أن وصلت إلى بوابة الكوخ المغطى بالقرميد الرمادي. النوافذ الصغيرة مغلقة. أحست "لوتسيا" بقطرات دافئة تسيل على فخذيها: حين وصل الأمر إلى حدود لا يمكن تحملها: تبولت من شدة خوفي. هههمتْ.

ولكني حين انحنيت، أدركت أن ما أشعر به، لا علاقة له بالبول. إنه سائل الجنين. (السائل الأمنيوسي).

ـ هل يوجد هنا أحد؟ ـ سألت بصوت مرتفع.- أنا بحاجة إلى مساعدة.

الطريق المسكوب بأشعة الشمس لم يجب على النداء. المنطقة بأكملها خالية من السكان.

ـ ساعدوني! أيها الناس، مساعدة! صرخت بأعلى صوتي.

ردت الكلاب البعيدة بنباحها. تذكرت "لوتسيا" حكايات العمة "سوزانا"، وكيف كانت تدفع العربة الملأى بالذرة، وهي حامل في الغابة حين وجدت ذئباً يعترض طريقها. فكرت بأن تلك الليلة لم تكن حارة كما هي الآن. تابعت

سيرها ببطء منحدرة في الطريق نحو القرية، ولكنها شعرت بعد عدة خطوات بتوقف ألمها في الظهر.

ـ مساعدة!

نادت من جديد دون أن تجد القوة للصراخ. ترددت، هل تعود إلى البيت. لو تمكنت من مساعدتها في النزول عن السلم، فبالتأكيد ستتمكن العجوز من مساعدتها بشكل أفضل لاسيما أنها من سكان المنطقة. حين استدارت وهمت بالعودة إلى البيت، أعمتها الشمس بأشعتها النارية. سترت عينيها براحة يدها. أحست بعد ذلك بأنها تسمع من خلف ظهرها صوتاً آتياً من القرية. استدارت من جديد إلى الجهة المعاكسة وانتظرت آملة. ظهرت سيارة آتية من خلف المنعطف.

ـ أنت "لوتسيا"؟ ـ سأل.

ـ لم تدرك "لوتسيا" في تلك اللحظة العصيبة غرابة كون ذلك الرجل يعرفها.

ـ نعم، أنا "لوتسيا"، يبدو أني سأضع الآن.

ـ تباً، قال الرجل.

ترك محرك السيارة يعمل، ونزل منها. أمسك "لوتسيا" من ساعدها، وقادها إلى المقعد بجانب السائق.

ـ ولكن أين السيدة" لاوكوفا"؟ ـ سأل حين جلس كلاهما في السيارة.

ـ على شجرة الكرز.

ـ ماذا؟ أنت تتألمين من الطلق، وهي تقطف الكرز؟

ـ لقد علقت على السلم، ولاتستطيع تحريك ساقها.

ـ تباً ـ كرر الرجل شتيمته ـ هل تتحملين حتى أنزلها على الأرض؟

أومأت "لوتسيا" بشجاعة. أحست بالهدوء منذ اللحظة التي جلست فيها بالسيارة. قاد الرجل السيارة عدة أمتار حتى وصل إلى بوابة منزل العجوز. أوقفها، ولكنه ترك المحرك يعمل.

ـ لن أوقف المحرك لصعوبة تشغيله. إنها قديمة من مركز تأجير السيارات. حتى إنها بلا تكييف.

مرت عدة دقائق. بدأت "لوتسيا" بشتم الرجل لأنه يضيع وقته في الداخل دون فائدة. إن إنزال العجوز عن الشجرة عند هذا الرجل الضخم لا يحتاج إلى وقت طويل. أخيراً، ظهر في البوابة وبيدة بطانية.

ـ حاولي أن تدسيها تحتك ـ بدأ يخاطب "لوتسيا" بلغة الجمع ـ إذا بدأ سائل الجنين بالخروج.

ـ إنه يسيل مني، أجابته "لوتسيا"

ـ ماذا، صرخ الرجل.

دار حول السيارة بسرعة وصعد إليها. قادها إلى الخلف باتجاه البوابة حتى يتمكن من تدويرها.

ـ كان عليك أن تخبريني منذ البداية ـ عاد من جديد إلى حنقه ومخاطبتها بالمفرد.

ـ كنت نقلتك مباشرة إلى المشفى. كان باستطاعة أمي تدبير نفسها والنزول وحدها عن الشجرة.،،، لقد نسيت تقديم نفسي. أنا "ألكسي لاوكو". ابنها.

حدقت "لوتسيا" بوجهه وقد خرجت عيناها من مكانهما. هذا هو إذاً الشخصية الرئيسية في الحدث الذي كانت تسمعه كل يوم لنصف سنة.

ـ ما أضخمك ـ قالت له.

ـ ضخم؟ ـ ضحك الرجل ـ أنا عجوز! ستة وستون عاماً.

ـ أنا "لوتسيا هرليانسكا "...

ـ أعرف من تكونين. لقد اتصلت بي أمي قبل البارحة وأخبرتني بكل شيء. ـ حين سمعت أن مجنونتين تحضران نفسيهما لعملية الولادة قمت في الحال بتأمين بطاقة طائرة، وغير ذلك حين كنت عند أمي قبل قليل اتصلت برقم 112. سيارة الإسعاف ستلاقينا في الطريق من "بوبراد ".

ـ شكراً ـ همست "لوتسيا"، ولم تكن متأكدة من أن الرجل سمعها.

ـ إنني أقود ببط عن قصد كي تهتزي ـ شرح الرجل.

ـ شكراً! ـ منحت "لوتسيا" صوتها بعض القوة.

ـ ها، ها ـ غمغم الرجل.

كانوا خلف القرية، ولكن الرجل لم يُسرع لانحدار الطريق.

-أرجوك، ألا يمكنك أن تقول شيئاً، ناشدته "لوتسيا" ـ كي لا أفكر بتلك التشنجات.

ـ هل تشعرين بتشنجات؟ بدا الرجل عصبياً.

ـ لا أعرف، إنها نوع من موجات الألم المنتظمة في أسفل ظهري ـ شرحت "لوتسيا".

ـ ليس من الضروري أن تكون آلام الطلق ـ قَيم الحالة.

ـ هل يمكنك إخباري عما حدث بعد ذلك... ـ رجته "لوتسيا" من جديد.

ـ بعد ماذا؟

ـ بعد أن أطلقوا سراح أمك من "الكولاك"

ـ عادت إلى "زالسنا بوروبا".

ـ أعرف، ولكن ماالذي جرى لك؟

ـ لم نتحدث عن هذا الأمر على الإطلاق ـ تابع ـ هل تفهمين؟

ـ أبطأ الرجل السرعة من جديد لوجود منعطفات قاسية.

ـ كنت ألعب في ذلك المساء مع أمي... مع "إرينا" بالدبابات... لقد أحضرت لي من رحلة العمل ثلاث دبابات سوفيتية جميلة مصنوعة من التنك، وقامت إحدى السجينات بتصنيع دبابتين ألمانيتين من الخشب. وصلت المعركة إلى ذروتها حين انتقلت الدبابات السوفيتية إلى الهجوم. كنا نقلد أصوات الانفجارات، وهدير المحركات، وأصوات الأوامر. أطلقت قذيفة من الدبابة السوفيتية على دبابة أمي الألمانية التي طارت في الهواء وتدحرجت جانباً. لم أنتبه ونحن في خضم اللعبة إلى قرع الباب. ربما لم يقرعه أحد. فجأة رأيت أمامي رجلين في الغرفة. أتذكر معطفيهما الجلديان الطويلان وأصواتهما شبيهة الرعد. شرحا على عجل شيئاً لأمي. مد أحدهما يده إلي. خفت كثيراً، واختبأت خلف ظهر أمي. فكرت بأن الاتحاد السوفيتي قد هوجم من جديد، وهذان الرجلان ينتميان إلى الفاشست. صرخا في وجهي، ولكن أمي حاولت إيقافهما، ولكنهما لم يأبها بتوسلاتها. دفعاها جانباً. اصطدمت بالطاولة التي سقطت منها على الأرض صينية ملأى بالفطائر وانكسرت. أحدهما أمسك بي، والثاني وقف فوق أمي، وقال لها شيئاً بصوت مرتفع. رموني في الخارج بالسيارة، وأحاطا بي من الجهتين كي لا أهرب منهما.

ـ لا بد أن أمراً كهذا كان مؤلماً بالنسبة إلى طفل... ـ بحثت "لوتسيا" عن الكلمات المناسبة.

ـ كانت صادمة ـ قيمها الرجل ببرودة.

ـ ولكنهم أعادوك إلى أمك ـ همست "لوتسيا".

ـ ولكنهم أخذوا مني أمي الثانية. كان لي في تلك الأثناء أمّان، لقد أحببت "إرينا ميخايلوفنا" أيضاً، وهي أيضاً أحبتني.

ـ هل تلوم أمك... السيدة "لاوكوفا "لأنها أبعدتك عنها؟ ـ سألته "لوتسيا".

ـ الآن، لا، ولكني في الأشهر الأولى انزعجت منها كثيراَ، ولكني لحسن الحظ لم أتفوه بذلك أبداً. كل عائلة عندها أسرار لا تتحدث عنها، في الخزانة. هذا ما فهمته مذ كنت طفلاً صغيراً.

ـ ألم تحاول الاتصال بـ "إرينا"؟

ـ كنت صبياً صغيراً، ولم أكن أعرف العنوان. ولكني سأخبرك الحقيقية. حين احتل الروس تشيكوسلوفاكيا في عام 1968، كنت بوصفي طالباً في الجامعة في براغ في عمل طوعي. بالطبع كنت مثل الآخرين أهدد بقبضتي، وأرمي الدبابات بالحجارة، ولكني أثناء ذلك كنت أبحث عن امرأة في زي عسكري.

خفف الرجل من سرعته من جديد لأن الطريق تعرج على شكل حرف S حاد.

حين عدت بعد أسبوع إلى "زالسنا بوروبا"، أجبرتني أمي على الرحيل من تشيكوسلوفاكيا طالما أن ذلك لا يزال ممكناً. لقد عاشت ما كتبه قدرها، ولكنها ارادت حمايتي. كانت تُفضل ألا تراني في حياتها مقابل أن أعيش بحرية. لقد كانت كبيرة في السن على الهجرة.

ـ أثبتت أن بإمكانها قطع رباط الروح (حبل السرة) الذي يربط الأم بابنها ـ قالت "لوتسيا" بعد لحظات.

ـ ماذا؟ ـ لم يفهم الرجل.

ـ إلى أين ذهبت؟

ـ إلى السويد.عملت مترجماً من الروسية بالدرجة الأولى. ـ ضحك الرجل وأضاف: ولكني الآن متقاعد بشكل نهائي وأريد العودة إلى أمي. أحتاج إلى الإنسان الذي... إنتبهي، سيارة الإسعاف! لقد نجحنا كما ترين.

# الهوامش

(1). فلاندرا: صبية رخيصة.

(2). كارديستا: عنصر في الجيش السلوفاكي المتعاون مع هتلر.

(3). سفولوتش: شتيمة بالروسية تعني وسخه أو حقيرة.

(4) . باريشنا: إمرأة روسية عادية المظهر.

(5). زتشكا: تعبير روسي لوصف السجينة القديمة.

(6) . بوليتروك: المسؤول السياسي (الحزبي).

(7) . كارتسير: سجن انفرادي.

(8) . ماموتشكا: تصغير لكلمة الأم: أميمتي.

(9) . على مبدأ: عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ـ المترجم.

(10) . بيروك: عجينة محشية باللحم المفروم.

(11) . بورشت: شوربة روسية كثيفة مع الخضار واللحم والقشدة.

(12) . بابيروسكا: سيجارة.

(13) . تشرنا ناد تيسو: بلدة حدودية بين روسيا وسلوفاكيا.

(14). الغارديستا:عنصر في الجيش السلوفاكي الموالي لهتلر.

(15) . تشست براتسي: تحية الشيوعيين .

(16) . بالنكا: شراب كحولي محضر من الفواكه، وغالباً من الخوخ.

(17) . يوداش: الإنسان الذي وشى بالمسيح.

(18) . تشي إس إم: إتحاد الشبيبة التشيكوسلوفاك.

(19) . جيتني أوستروف: جزيرة صغيرة يحيط بها نهر الدانوب بعد براتيسلافا، وتعتبر من الأراضي الخصبة.

(20) . ك.إس تشي: الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي.

(21) .ممرات دوكلا: شرقي سلوفاكيا حيت قام الثوار بمهاجمة الألمان بمشاركة الروس بين جبلين.

(22) . إم إن ف: مجلس المدينة.

... أشعر بالمرارة في حلقي، وبالبرد يهرس جسدي، أنت محمومة يا ابنتي، أنت بالقرب مني يا "آنا"؟ نعم، يا "سوزانا"، إنني هنا، وأنت تهذين.

"آنا": إنني لحم ساخن فوق المقلاة، الدهن يتطاير، أشعر بحرقة في فمي، إنه مر، أريد أن أشرب، كلنا نريد أن نشرب يا صغيرتي الحبيبة، لا تفكري في هذا الأمر، من الأفضل لو صليت، الكلمة تحولت إلى جسد، يقف بيننا، السلام على مريم الرحيمة، أين أمي؟ إنها هنا، أمي هنا، إنها تمسح جبيني، وهي تحبني حتى لو وقعت في الخطيئة. لا تبكي يا فتاتي، جميعنا أخطأنا، امسحي جبيني يا أمي الغالية...

... أين نحن يا أمي؟ في القطار، وإلى أين نحن ذاهبون؟ لا أحد يعلم سوى خالقنا الذي يعرف كل شيء، وهو سيساعدنا، صلي معي ...

أشعر بالبرد يا أمي، أنت أمي، ألست كذلك؟ وأنا سأصبح أماً، أما سأصبح. ستصبحين أماً في يوم من الأيام، ولكن عليك الآن أن تتوقفي عن الصراخ. أنتظر طفلاً، تحول الجسد إلى جسد، أريد أن أركع. لا، ابقي مستلقية، انظري، تلك المرأة كان معها زجاجة ماء، لقد تركتْ لك القليل، اشكريها، واشربي ببطء، حاولي الآن ألا تسعلي، لا تسعلي لأنك بحاجة إلى كل قطرة ماء، لا تسعلي يا طفلتي الغالية.

غني معي يا أمي.




